حركة الفتح الإسلامي

في القرن الأول

دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية

شكري فيصل

دكتور في الآداب من جامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر: مكتبتا الخانجي بمصر والمثنى ببغداد

مطابع دار الكتاب العربي بمصر: محمد حلمي المنياوي

١٣٧١ - ١٩٥٢

المؤلف :

أستاذ مساعد فى كلية الآداب بالجامعة السورية
ليسانس بامتياز فى الآداب من جامعة فؤاد الأول
ليسانس فى الحقوق من الجامعة السورية
ماجستير فى الآداب بتقدير جيد جداً من جامعة فؤاد
دبلوم معهد اللهجات العربية بجامعة فؤاد الأول
دكتور فى الآداب بتقدير جيد جداً من جامعة فؤاد

الكتاب :

الرسالة الإضافية التى تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه
وقد ناقشت الرسالة فى ٢٤/١/٧١ – ٢٥/١٠/٥١ لجنة من :
الدكتور زكى محمد حسن رئيساً والأستاذ أمين الخولى مشرفاً
والدكتور أحمد أمين والدكتور حسن إبراهيم والدكتور فؤاد حسنين

الفهرس

استدراك وتصويب

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١	المدى	المدر
٢٩	٣ « من الهامش »	جرجى	جرجه
٣٨	١٩	عبد الله بن جرير	جرير بن عبد الله
٤٧	١٩	أبى عبيدة	أبى عبيد
٥٢	٧٤	أشوميا	شوميا
٥٩	٣ «من الهامش»	١/٥ عن ... فى اصطخر	١/٥/٢٨٨٤ عن ... فى المدائن
٦٣	١	لابن هشام الكلبى	لهشام بن الكلبى
٦٥	١	بن سعيد	بن سعد
٨٩	٢ «من الهامش»	رؤساء	ومعهم رؤساء
٩٤	١ «من الهامش»	البلاذرى الخطط ٢٢٣	البلاذرى ٢٢٣
١٢٨	٧	قيس بن زهير	زهير بن قيس
١٤٨	٢ «من الهامش»	ابن شهر	أبو شهر
١٥٢	١٠	ابن أبى عامر	عبد الله بن عامر
١٥٤	١٨	ابن أبى عامر	عبد الله بن عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

موضوع هذا الكتاب دراسة حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول . وهو موضوع دفعنى إليه أننى عُنيت بدراسة التطور اللغوى والأدبى الذى شهدته الجماعة العربية فى أدبها ولغتها حين انطلقت من الجزيرة تحمل دعوتها ، فانساحت فى هذه المَهاجر الجديدة ثم استقرت فيها تبنى مجتمعاً وتكوّن أمة وتحكى لغة وتنشىء أدباً ، وتقيم لذلك كله الأسس والمواد .

ومن أجل دراسة هذا التطور اللغوى والأدبى وجدتُنى مضطراً إلى دراسة هذه المجتمعات الجديدة التى كانت وعاء هذا التطور ، لأنه إنما وُجد فيها وزكا فى أجوائها وكان أثراً من آثارها ونتيجة من نتائجها .

وهذه المجتمعات الجديدة إنما نشأت فى أعقاب الفتوح وكانت ثمرتها الأولى . ولذلك يبدو طبيعياً أن كلَّ محاولة للتعرف إلى حال اللغة العربية أو حال الأدب العربى ، وكلَّ دراسة للمجتمع الإسلامى فى نشأته ونموّه ـ يجب أن تقوم قبل كل شىء على دراسة الفتوحات ورصد معالمها الظاهرة والخفية .

٢ ــ ومن هذه الزاوية نظرت فى حركة الفتح الإسلامى وعلى هدى منها أقمتُ هذا الكتاب . . هنالك كثرة كثيرة من الكتب التى تدرس التاريخ الإسلامى فتعرض للفتوح ، ولكن أغلب هذه الكتب إنما يعنى بالفتوح عناية قريبة يجعل منها شيئاً أقرب إلى أن يكون حكاية أو عرضاً ، ويقيمها على أنها سرد لوقائع وقصّ لأحداث ، لا نفاذ إلى الروح التى تكمن وراء هذه الوقائع ، والخمائر التى

تحملها هذه الأحداث ثم تلقى بها هنا وهناك . . ولذا رجوتُ أن يُعنى هذا الكتاب بالفتوحات من هذا الوجه : أعنى من حيث أنها سبب فى نشأة المجتمعات الجديدة وطريق للتعرف إلى معالم هذه المجتمعات ، وسبيلٌ بعد ذلك إلى دراسة اللغة والأدب العربيين دراسة لا تحيا جذورها على السطح الأعلى من الأرض ولكنها تنفذ ما استطاعت إلى البعيد العميق .

٣ — وقد تعاقبت فى المكتبة العربية كتب كثيرة على دراسة الحركات الاجتماعية والسياسية فى الإسلام دراسة طيبة ، بعضها عن هذه الحركات بجملةً وبعضها اقتصر على حركة منها . . ولكنّ أغلب هذه الدراسات كانت تنصبّ على القرون المزدهرة ، ولكن أقلّها كذلك كان لا يقف عند القرن الأول وقفة مستطيلة ، ولكنها جميعاً أيضاً لا تمهد لعملها بالتعرف إلى الأسس الأولى التى نشأت عنها هذه الحركات . . أعنى أنها لم تحاول التعرّف إلى حركة الفتح نفسها وإنما قنعت أنه كان هنالك فتح ثم مضت بعدُ تنظر فيما كان . . على حين يبدو أن من الطبيعى أن نتعقّب جذور هذه الحركات فى منابتها الأولى ، فى حركة الفتح نفسها ، فقد تكون هذه الحركة ، بما هى هجرة دين وهجرة لغة وهجرة قوم وهجرة دم — قد تكون فيها نفسها الكهارب الأولى لكل الذى شهدته الحياة الإسلامية بعد ذلك .

٤ — ومن هنا أخذتُ أدرس الفتوح . . ولست أحبّ أن أشير الساعةَ إلى الصعوبات التى تواجه الدارس المتّئد حين يحاول أن يأخذ الأمور على أمثل وجوهها وأن يتعرّف إليها على أكمل صورها ، فحديث ذلك مما يحسّه الدارسون بأنفسهم ويدركون متاعبه الملذّة وآلامه المنتجة . ولكنى أحب أن أشير إلى أنه لا يزال هنالك كثير جداً من الغموض وكثير جداً من التعقيد وكثير أيضاً من النقص فى ميدان الدراسات التاريخية فى اللغة العربية ، وما نُشر لأعيننا حتى الآن لا ينقع غلة لأنه إمّا أن يهمل التاريخ على حساب التعرض للحوادث الاجتماعية وإما أن يكتفى بالصورة المجملة التى تهب القارىء الأبعاد القريبة من دون الأبعاد الأخرى

العميقة . . ولعلّ أقسام دراسة التاريخ فى كليات الآداب من جامعات العالم العربى والإسلامى تجتمع وتتوزع على صياغة هذا التاريخ صياغة سليمة ، لأن الحقيقة الأليمة القاسية التى ننتهى إليها حين ننظر نظرة بصيرة أن هـذا التاريخ لم يكتب بعدُ بل إنه فى كثير من أطرافه لمّـا يدرس .

٥ — وسيتبيّن مطالع هذا الـكتاب أنى جزّأت الفتوح فى هذه الأقسام الخمسة فجعلت كلاّ من فتوح الشام والعراق ومصر قسماً ، وجعلت ماوراء مصر قسما رابعاً سميته الجناح الغربى وما وراء العراق قسما خامساً سميته الجناح الشرقى . . ودرست حركة الفتح فى كلٍّ من هذه الأقسام دراسة قصدت فيها إلى الايضاح من نحو والتحديد من نحو والتتبع من نحو ثالث . . فكنت أجمع ما بين الروايات وأقابل بعضها ببعض وأضم بعضها إلى بعض ، وكنت أحاول أن أبلور كثيراً من الحركات المتناثرة والفروع المتباعدة فأشركها فى أصولها الأولى أو فى غرضها العـام ، وكنت أتتبع الروايات وأسلسل الحوادث وأنظم سير الحركة الأصلى والفرعى . . حتى يكون من ذلك كله بين يدى القارىء حين ينتهى من قراءة الفصل صورة واضحة لحركة الجيوش فى هذه المناطق وتعاقبها وأمدادها ، وما تمكّنت منه وما ارتدّت عنه ، وكيف تغلبت على ناحية وغُلبت فى ناحية ، وكيف انتهى بها الأمر أخيراً إلى الغلبة والاستقرار .

٦ — ولم أنظر فى حركة الفتح وفى التعليل لبعض ظواهرها نظرة خاصة ، ولـكنى تركت لنفسى أن أقرأ وأن أدرك ، ومن هنا وجدُتنى مضطراً أن أناقش بعض الأفكار والأنظار عند المحدثين من المؤلفين الذين أرّخوا حركة الفتح . فبعض هؤلاء المؤرخين ينظر إلى هذه الحركة من نحو خاص ويلتزم هذا النحو فى التعليل لها ومناقشتها . . وما من شىء أبعد عن الصواب من أن نلتزم فى هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً ، وما لم يفد المؤرخ من دراسته سعةَ الأفق والقدرةَ على الانفلات من تزمّت التعليل الواحد فسيظل بعيداً عن المؤرخ الحق . . إن النظرة

المتكاملة وحدها ، كما يبدو لى ، هى التى تستطيع أن تلفّ حركة الفتح وأن تفسرها لأن هذه النظرة هى نظرة الإسلام نفسه إلى الحياة ولأنها هى التى تدلّ عليها حوادث الفتح نفسها فى أصولها وفروعها .. ولقد كان لى فى ذلك كله حديث أرجو أن أدفع به إلى النشر فى مدى قريب .

٧ — ولقد أطلقتُ على حركة الفتح فى عهودها الأولى ، حين كان فيها كلّ الصفاء والنقاء اسمَ « حركة التحرير الإسلامى » ، ومضيت على ذلك حين كتبتُ البحث فسميت الفصول تحرير الشام وتحرير العراق .. غير أنى آثرت أن أعود بعد ذلك إلى الاسم الذى نعودناه فراراً من التعميم وخلاصاً من الالتباس وسيطالع القارىء بقايا هذا التعبير فى خلال بعض الفصول .

٨ — والمصادر التى رجعتُ إليها هى كل ما قدرتُ عليه حين كنت متفرغاً للدارسة ، وقد تحدثتُ عن هذه المصادر التاريخية فى تصدير كتاب « المجتمعات الإسلامية » . ولن أعيد هنا ما قلته هناك من أنى اقتصرت بادىء الموضوع على الطبرى البلاذرى وابن عبد الحكم وما عللت به لهذا الاقتصار وما تحدثت عن المصادر التاريخية الأخرى التى رجعتُ إليها بعد ذلك ، ولكنى أحب أن أضيف أننى أفدت بعدُ من الدراسات الحديثة التى قصرتْ جهدها على موضوع واحد : أفدت من دراسة الأستاذ جب عن « الفتوح العربية فى آسيا الوسطى » وقد كانت رسالته للماجستير من جامعة لندن — ومن دراسة الدكتور حسين مؤنس عن « فتح العرب للمغرب » وقد كانت رسالته للماجستير من جامعة فؤاد — ومن تحقيق وتفصيل الأستاذ بتلر فى « فتح العرب مصر » وتركيز وإيجاز الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف فى « مصر فى فجر الإسلام » ، وقد كان الكتاب رسالتها للماجستير من جامعة فؤاد — أفدت من ذلك كله فى دراسة الحوادث .. غير أن السبل والأغراض كانت مختلفات .

وكان لى فى كتابة هذه الفصول نهج خاص .. فقد حرصتُ ، فى كلّ مرة توفّرلى

ذلك، أن أستخدم عبارات مؤرّخينا أنفسهم وفعلتُ ذلك ما قدرتُ عليه ، وجاءت بعض الصفحات وليس لى فيها إلا الربط بين العبارات . وتمنيت لو استقام لى ذلك فى كل أطراف الموضوع .

٩ — ولم تكن أكبر الصعوبات التى واجهتها لتبدو فى تتبع الروايات التاريخية وتنسيقها ولكنها كانت قبل ذلك وفوق ذلك فى تحديد المواضع ومعرفة أماكنها من المصوّرات الحديثة . . وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا يكون بين أيدينا أطلس تاريخى عربى ترتدّ معه قراءاتنا من قراءات مجرّدة خيالية عائمة لتكون دراسةً بصيرة واقعية محدّدة ، ترتبط فيها الكلمات بمدلولاتها ارتباطاً وثيقاً محكما .

ولهذا انصرفت حيناً من الوقت أبذل الجهد فى هذه الناحية ، ولم يكن فى وسعى أن أحقق شيئاً ذا غناء كبير ، فاعتمدتُ بعض مصوّرات الأستاذ محمد فخر الدين مرة واستعنتُ بمخططات الأستاذ كيتانى مرة وجمعتُ منها ومن غيرها هذه المجموعة التى يرى القارئ بعضها فى ثنايا الكتاب وبعضها فى آخره .

ومن الوفاء أن أزجى هنا الشكر خالصاً للأستاذة ليلى محمد عثمان « أولى خرّيجات قسم الجغرافيا عام ١٩٥٠ — ٥١ » فقد تولّت عنى رسم هذه الخرائط بما عُرف عنها من جدّ ودقة واضطرها ذلك إلى جهد ووقت بذلته راضيةً به ، إخلاصاً للروح الخلقية والعلمية العميقة التى تتحلّى بها .

١٠ — هذا هو الكتاب : دراسة مقصودة لذاتها ودراسة تمهيدية لما وراءها . . دراسة لذاتها من حيث حاجتنا إلى كتاب يؤرخ لحركة الفتح الإسلامى فى تتبع وحِيدةٍ ووضوح تاريخاً اجتماعيا . . ودراسة تمهيدية لما وراءها من حيث أن الدراسات الأدبية واللغوية تزداد خصوبة وغنى إذا هى اتكأت إلى الدراسة التاريخية واستمدت منها . . إن التاريخ ، كما قلت فى مقدمة كتاب المجتمعات الإسلامية ، لم يُستخدم بعد استخداماً حقاً فى استكناه الحيوات الأدبية واللغوية على حين استُخدم الأدب فى التاريخ استخداماً طيباً واسعا .

ومن هذا كانت الصلة بين هذا الكتاب وكتاب المجتمعات الإسلامية صلة وثيقة . . أنهما يتتامّان ويتكاملان ، لا يغنى أحدهما عن صاحبه ولا يستغنى عنه . ولذلك تجاوزت فى هذه المقدمة عن كثير كنت قلته هناك .

* * *

وأنا أعيد هنا شكر أستاذى المشرف الأستاذ الجليل « أمين الخولى » فقد عوّدنى الصبر وحبّب إلىّ الأناة وأخذنى بالعمل الدائب ، وردّنى مرة ومرة إلى ما يجب أن يأخذ به الدارسون أنفسهم من النهج العلمى ومن الروح العالية التى لا تضيق بالطرق الوعرة الشاقة .

وما من شىء أؤمله أكثر من أن تكون هذه الدراسة نافعة ، وأن تكون تمهيداً لدراسات أخرى كثيرة نحن فى أشد الحاجة إليها .

وذلك ما أسأل الله فيه ، وهو الموفق والمعين .

القاهرة { غرة العام الهجرى ١٣٧٢ — أيلول « سبتمبر » ١٩٥٢ }

شكرى فيصل

تمهيد

بين يدى الفتح

١ – تشكل الانطلاق العربى

ا – استطاع الرسول صلوات الله عليه ، فى حركة بدأت بطيئة ثم مضت متسارعةً بعد ذلك ، أن يجمع حول فكرته الجديدة قبائل العرب جميعاً فى الشمال والجنوب . . كان آمن به قلة قليلة ، ولكن قوة هذا الإيمان من نحو ، و بساطته من نحو آخر ، وثبات المؤمنين به ، كل ذلك مكّن للفكرة الإسلامية أن تنتشر فى الجزيرة العربية وأن تقبل عليها القبائل راضية بها مطمئنة إليها . . حتى الذين ناوءوه لم يجدوا بدّاً أن يذعنوا له وأن يدينوا بما جاء به . . و بدا ، بعد عام الوفود ، كأن الجزيرة العربية التقت التقاء عجيباً حول فكرة واحدة . . وحين انتهى النبى صلوات الله عليه من إلقاء خطبته فى حجة الوداع كانت أصداء هذه الخطبة لا تقف عند حدود عرفات ولا تقتصر على الحجاز ، ولكنما ينقل صداها كلُّ واد وجبل فى الجزيرة ، و يتحدث بها كلُّ هذا العديد الضخم من الحجيج الذى استمع إليها و ينقلها كلٌّ فى البلد الذى جاء منه أو القبيلة التى أقبل منها ، و يحمل فيها خطوط الإسلام الكبرى ومعالم النظام الجديد .

ب – واستقر فى أذهان العرب ، على وعيٍ كامل أو على بعض وعى ، أن هذه الحركة التى تتسرب كما يتسرب الماء فى الرمال ، ليست حركة ضيقة ؛ لم تكن فى ذاتها نداء خافتاً كهذه النداءات التى كان يسمعها العرب من المتحنّفة ولا نصحاً كهذا النصح الذى يلقاهم به الحكماء ولا إشارات مختصرة أو نظرات عابرة ، لم تكن تعبيراً عن القلق والحيرة كما كان سجع الكهان وحكمة الحكماء وقصائد الشعراء ، ولكنها كانت معالجة لهذا القلق وحدّاً لآلامه العنيفة التى كانت تصهر

روح العربي والتي كانت تدعه كمّاً مهملا فى حساب الحياة الإنسانية فى ذاته والحياةِ الاجتماعية فيما حوله والحياةِ السياسية فى فلك الامبراطوريات المطيفة به ، وكانت شفاء من هذا القلق ولفتاً بعيد المدى إلى كل ما فى داخل النفس وما حول النفس ، فى الأنفس والآفاق ، فى القبيلة والشعب والجماعة ، وفى القبائل كلها متفرقة ومجتمعة ، وفيما وراء هذه القبائل من أرض وناس .

ج — ولكل عقيدة جديدة ألق خاص .. هناك عقائد تحلّ عقداً ذاتية ضيقة فى النفس أو فى الأسرة أو فى الجماعة ، وهناك أفكار تتناول جانباً من جوانب النفس ، جانب الانفعال أو العقل أو الإرادة .. أما العقيدة الإسلامية فقد كان من أثرها أنها أثارت بألقها كل جوانب الروح وأثارت فى هزّتها كل أطراف النفس .. والتقى العرب ، هؤلاء المتفرقون ، على هزة تناولت عندهم النزوع والتعقل والانفعال جميعاً ، فإذا هم من وحى هـذه العقيدة الجديدة فى يقظة متنبهة .. لم ينطووا على الإسلام انطواء ضيقاً ، ولم يتناولوه من النبي أو من رسله على أنه شىء يحتفظ به فى البيوت أو فى الخيام ، ولم يروا فيه عقيدة يتحلّوْن أو يتباهَوْن بها كما كان الشأن فى العقائد السابقة التى تحلت بها بعض القبائل ، ولم تحسّ قبيلة ما أو جماعة أن هذا الدين هو لها من دون الجماعات أو القبائل الأخرى .. وإنما كان الأمر على النقيض من ذلك تماماً . كان هناك مشاركة بعيدة الآماد فى الإيمان بهذه العقيدة بين العرب جميعاً ، وكان هنالك التقاء متقارب الأبعاد على الاستجابة له والاندماج فيه .. كان هناك صقل لكل مواهب النفس ولكل قواها .. وكان وراء ذلك شعور متوثّب لا يقنع بالانطواء على هذه العقيدة ولكنه يريد أن يجاوز بها هـذه الحدود الضيقة إلى كل مجالات العرب الأخرى من هنا وهناك فى الشرق والغرب .. فما أكثر ما حُمل إلى العرب من آراء ومذاهب ، وما أكثر ما استمعوا إليه من دعوات ومبادىء ، وما أكثر ما شاهدوا من بيع وصوامع .. لقد وفد عليهم ذلك كله ولكنهم لم يلمحوا فيه ذات أنفسهم .. لم يجدوا فيه البساطةَ التى يجدونها فى حياتهم : حياة الصحراء أو المدن على السواء ، ولا الوضوحَ الذى يعرفونه

فى نفوسهم فى الوبر أو المدى ، ولا اللغة النقية التى يعرفون أنها لغتهم ولا المكارم التى انسابت فى تراثهم ونظامهم . . . وهم لذلك حريّون اليوم أن يفكروا فى أن تُنْقَل عنهم العقائد ، وأن يَحْملوا إلى العرب فى الأطراف و إلى الفرس والروم وراء هذه الأطراف ، كما حمل إليهم عرب الأطراف ومَنْ دون عرب الأطراف ، عقيدةً جديدةً فيها من أفكارهم خير ما كانوا يلمحونه وأبعد مما كانوا يلمحونه . وفيها من حياتهم تجديد هذه الحياة وصلاحها وتفتيق الأبواب أمامها . . وفيها من مطامحهم نحو الحياة الرغدة والعيش الهنىّ ، آفاق واسعة فى الدنيا والآخرة على السواء . . وفيها من العقائد الأخرى التى كانت تغزو حياتهم، صدى أو صوتاً أو دعوة حارة ، تبشيراً أو تحديثاً أو لفتاً . . فيها من هذه العقائد تلخيصها وتخايصُها ، جمعها واعتصارها ، تحويرها وتحريرها ، لتكون بعد ذلك طريق العقيدة الجديدة الصحيحة .

د — كذلك كان يحسّ العرب فى هذه النقلة التى كانوا يجوزونها أنها أبعد مدى من أن تحدّها جزيرتهم . . كان فى حياتهم التجارية الصلةُ بالعالم من حولهم وكان فى ضمائرهم — كما يجول فى ضمير كل شعب لم يعدم إحساسه بالحياة — أن يكون لهم ، ذات يوم ، قياد هذا العالم . . فلما كان الإسلام كان هناك هذا الاستيقاظ لكلّ ما غفت عليه الضمائر أو انطوت عليه طبقات الشعور العميقة ... إنه أتاح لهم بسطة العقيدة فى تمثُّل العقائد الأخرى والسموّ عليها ، و بسطة الحياة فى الإيمان بكل ما فى الحياة ، و بسطة النفس فى الاهتمام بهذه النفس واعتبارها طريق العالم الخارجى و بسطة الخلود فى الإيمان بما بعد الحياة . . . ولذلك لم يعد عجيباً أن ينظر العرب بعد فترة من القلق والتفرق والإحساس بالذات — إلى الرسول و إلى مكة والمدينة ، وأن يتجهوا مع الرسول ومع مكة والمدينة إلى ما وراء ذلك من مشارف الشام وسواد العراق وحفافى الخضرة فى مصر ، ثم أن تكون وثبتهم التالية فى هذه الأرضين الممتدة فى قلب مملكة فارس والروم .

ه — لقد كان فى آيات القرآن الكريم هذا اللفتُ إلى إنسانية الدعوة الإسلامية . . ولكن من المؤكد أن الإرهاق الذى أصاب أفواج المؤمنين الأولى

والعنتَ الذى لقيهم به قومهم وألوان الأذى الذى فُتِنوا به ، لم يترك لمشارف الأمل العريض أن تجوز فى أفقها أرض الجزيرة . . غير أنه لم يكد ينتهى عام الوفود حتى بدأ الإحساس بالانطلاق يملأ على صفوة النفوس المؤمنة أو الطامحة كل أقطارها ، واتسعت مشارف الأمل وامتدت مطلاتها وعرضت آفاقها ، وتراءى للعرب فى الجزيرة العربُ الذين فى الأطراف ، وتألقت فى ضمير العربى أمجاد الدنيا والآخرة معاً : الدنيا على أنها مجاز للآخرة ولكنه مجاز حىّ ، والآخرة على أنها ثواب الدنيا وصورتها فى ميزان العدالة ولكنها صورة خالدة . . واستطاع أن يخرج من ذلك كله بهذه الفكرة الكبرى التى ركّز فيها فلسفته كلها ، وصاغ بها حركته كلها ، ولخص نظرته القريبة والبعيدة والتفاته إلى الدنيا وعقيدته فى الآخرة : فكرة الجهاد الذى يعيش معه من عاش سعيداً ، ويموت من مات فيه شهيدا .

و — لقد كانت السعادة أو الشهادة بلوَرَةً رائعة للقوة المتحركة التى نبضت بها العقيدة الإسلامية كما كانت الشهادتان بلورة رائعة للعقيدة نفسها . . وفى ألق السعادة أو نعيم الشهادة كانت تلتحم قوى العرب الداخلية المتوثبة وتنطلق عبر الحدود فى ثقة واطمئنان ، وفى إيمان هو أقوى من كلّ ثقة واطمئنان . . ولقد جبّ الإسلام خصوماتهم ونهاهم عنها ، ودعا إلى إماتة عصبياتهم وحذّرهم منها ، وسما بنفوسهم فمنحها وَقْدة الفكر وصفاء العقيدة ورحبة الأمل . . . وتوفّر له من ذلك كله قوى قوية كان لا بد لها أن تجد مجراها ومرساها ، وأن تجد فى هذا المجرى قيادها الذى تتمركز فيه . . وهل هنالك قياد آخر تُسْلِس له النفس الإنسانية أندى وأهدى من العيش السعيد أو الموت الشهيد ؟ .

إن لنا غرضنا هنا : أن نتمثل هذه الانطلاقة العربية وأن نتابع توثّبها عبر هذه الأجواء التى هدرت فيها ولكن ليس من غرضنا أن نقف وقفة طويلة عند تشكل هذه الانطلاقة . وحسبنا أننا لخصنا ذلك فى الفقرات السابقة ، ولن نعدم فى الفقرات المقبلة فيضاً من الإشارات إلى ذلك بالقدر الذى يقتضى الأمر من تشابك الماضي والحاضر وارتباط الخطوة الجديدة بالخطى القديمة .

٢ – وجهة الانطلاق العربى

يحدّد وجهةَ الانطلاق العربى موضعُ الجزيرة العربية من العالم ، ومركزُ الدعوة من الجزيرة ، وصلة الجزيرة بالأطراف — كما يحدد هذا الاتجاه انحدارُ سطح الجزيرة ، وتوجيهها الجغرافى ، وطرقها ومسالكها التى كانت بينها و بين العالم القديم من حولها .

ا — إن موضع الجزيرة فى قلب العالم القديم وصلتها بالقارات الثلاث كان يمكن أن يعطى الموجة العربية المنطلقة وجهات مختلفة ؛ غير أن نشأة الدعوة فى القسم الشمالى من الجزيرة ، وانبعاثها فى مكة ، وازدهارها فى المدينة ، جعل وجهة العرب أقرب إلى الشمال ... حال بينها و بين مسالك البحر ، وحجب عنها أمواجه ، وتلقاها بهذه الطرق التجارية التى كانت تمتد إلى الشمال ، فوصل بينها و بين العراق ، و بينها و بين الشام ، ودفعها منهما . . ولم يكن ذلك فحسب ، بل كانت قرابة اللغة والجوار ، وصلات القرابة والدم ، وعلاقة الرمل والطين ؛ كل ذلك كان يقتضى العربَ المؤمنين أن يختاروا مشارفَ الشام و بطائح العراق هدفَهم الأول . . فليست هذه الأرض بعيدة عنهم ولا غريبة منهم ، وليس لكثيرٍ من أهليها لغة غير لغتهم ، وإن كان يكون لهم ولاء غير ولائهم . ومن هنا كانت اصطدامات الجيوش العربية الأولى على سيف البادية : كانت فى مؤتة وتبوك و بصرى ، وكانت فى الحيرة والأنبار والقادسية .

ب — لقد اجتمعت كل العوامل المسعفة حول هذا الاتجاه ، ورأى الرسول صلوات الله عليه أن أقدام جيوشه الأولى الداعية يجب أن لا تطأ أرضاً غريبة بعيدة ... إنها تغادر الجزيرة للمرة الأولى بهذه الهالة التى تحيط بها من ألق الإيمان ووهج الدعوة و بريق السيف . . وقد كان كثرةٌ من الأفراد تغدو وتروح من قبلُ فى خفارة القوافل ، أو رعاية التجارة ، أو تسرية الهمّ ؛ فلْتمض اليوم فى الطريق الذى كانت تمضى فيه من قبل ، ولتخالف عن الغاية التى كانت تملؤها إلى غاية جديدة ... إنها لن تحمل هذه المرة عروض التجارة ، ولن تسوق أموال قريش ،

ولن يكون فوق إبلها لبان حضرموت أو سيوف اليمن ، حرير الصين أو توابل الهند ، وإنما ستحمل معها صورة جديدةً للحياة فى ظلال العقيدة الإسلامية ، ارتضتْها لنفسها ، وأرادت أن تدعوَ الآخرين إليها . . إنها كذلك لن تسأل ، فى هذه الجولة ، قرابتَها من القبائل أن تمكّن لها عند كسرى وقيصر ، ولكنها تريد أن تضم إليها هذه القبائل ، وأن تخرج بها من ذل الولاء للروم ، أو ضعة الحلف مع الفرس ، إلى قوة الوحدة الجامعة التى توصل لها العقيدةُ الجديدة والدماء القديمة ، والتى تردّ الفروع إلى الجذوع ، وتجمع الإيمان بالنبيين من قبل والإيمان بالنبى بعد ، وتتيح للعرب الذين انحرفت بهم الفطرة ، وقسمتهم الفرقة وأفسدتهم العصبية ، واتّخذ منهم ملوكُ الأرض آنذاك الأسهمَ والدروع ، أن يعودوا إلى فطرة الله ، وأن تعود إليهم ألفتهم ، وترتدّ إليهم كرامتهم ، وتحيا فيهم نفوسهم ، فيخلُصون من جديد ، للحياة الكريمة التقية .

حـ — لكأنما كان اندفاع العرب من قبل فى تجارة العالم وخفارة العروض وقيادة القوافل ، والاختلاط بما حولهم من أشياء ومن حولهم من أقوام ، آية الله التى أراد أن تمرُن فيها الخطى ، وأن تطّرد فيها المسالك ، وأن تمتد الدفقة المنبعثة من الجزيرة فى الطريق المُمَهّدة . . لا تتحسّس هذا الطريق حتى لا يشغلها ذلك عن الغاية الرفيعة التى أعدت لها ، والهدف البعيد الذى أهّلت له . فبُعْد هذه الغاية وسموُّ هذا الهدف يقتضى أن تكون القوى كلها خالصة له موقوفة عليه .

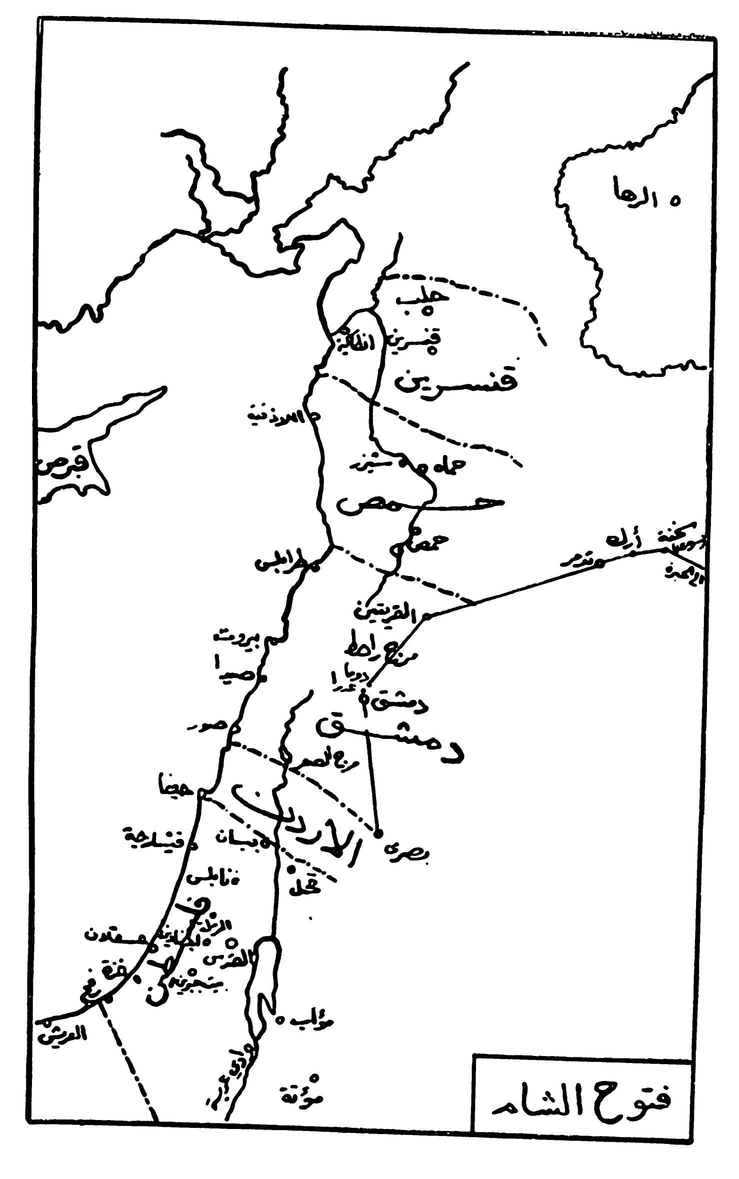
لكأنما كان الماضى التجربة التى يفيد منها الحاضر . . غير أن تجربة الماضى كانت مرتبكة مشوشة ضيقة الأفق ، لا تتصل فيها رمال الصحراء بهدى السماء ، ولا تلتقى فيها هذه الرغبة الجامحة فى اهتبال الحياة وصفاء النفس . . كانت تجربة لاتحوى عناصر البقاء ولا مادة الخلود ، لأنه لم يكن وراءها إلا هذا النزاع بين الرمل والطين .. أما هنا ، فى هذه التجربة الجديدة ، فإن العرب يحملون كل عناصر البقاء ، يزاوجون بين صلاح البال وصلاح الحال ، ويوفّقون بين سموّ الحياة وسموّ العقيدة ، ويمضون فى حركة الإصلاح هذه التى تأتى على فترة من الرسل .

د — وكذلك ينثال العرب فى هذه المرة دعاة وجنوداً فى الطرق التى كانوا ينثالون فيها تجاراً وجنوداً للتجارة ... فى صدورهم مطامح، وكان فى صدورهم مطامع ... فى قلوبهم وألسنتهم حساب اليوم الآخر ، وكان فى قلوبهم وعلى ألسنتهم حساب غنيمة الدنيا . . فى أذهانهم فكرة واضحة وليس فى أيديهم شىء إلا القرآن ومقبض السيف ، وكان فى أيديهم أعراض واضحة وليس فى أذهانهم إلا الخطرات العابرة . . إنهم يهاجرون الآن هجرتهم التى تعوّدوها على خلاف كبير فى الغاية والنوع : هجرة وراءها فكرة ، و بين يديها عقيدة . . هجرة لا تطلب الحماية ، ولكنها تنشر الحماية . . كانت فى الماضى هجرة عقيمة ، أما الآن فهى هجرة وَلودٌ مزدهرة ، تحمل كل عناصر الخصب والتزاوج فى الدم والعقيدة واللغة .

لقد أفاد الرسول صلوات الله عليه من بيئته التجارية الدقةَ ، وأفاد من سموه النفسى الصفاء ... ومن هذه الحياة التى تمازجت فيها هذه العناصر ، كان العرب يستمدون اتجاه هجرتهم الأولى . . إنهم يخرجون من الجزيرة ليضمّوا إليهم أشتاتهم ولينساحوا وراء هذه الأرض التى تطيف بالجزيرة كالهلال . . إنّ وضوح هذه الغاية فى أذهانهم شىء لا نستطيع أن نتبينّه ولكننا نجد صداه فى قوة الانطلاقة التى خرجوا بها . . قد لا يدرون ما وراء هذه الانطلاقة من نتيجة واضحة ولكنهم يعرفون لها الغاية الواضحة .

كانت الجزيرة كوكباً تابعاً يدور فى فلك عظيم تتجاذبه قوة الفرس والروم . . أما الآن فسينطلق العرب من هذا الفلك ، وسيصيب هذه المجموعة الدائرة تغيّرٌ فى مركز ثقلها ، وتحطّم لبعض أجرامها وكواكبها ، وسينتج عن ذلك أن تكون الجزيرة مركز الثقل وأن تدور البلاد الأخرى فى فلكها . .

إن تفسير هذا الحادث الضخم يكمن فى دراسة الحوادث التى واكبته ، فى تؤدة وتعمق . وذلك ما سيكون إن شاء الله نصيب الصفحات المقبلة


الرها
حلب
قنسرين
انطاكية
قنسرين
اللاذقية
حماه
شيزر
حمص
حمص
طرابلس
أرك
تدمر
القريتين
بيروت
صيدا
مرج راهط
دمشق
دمشق
صور
مرج الصفر
حيفا
الأردن
بصرى
قيسارية
نابلس
فحل
عسقلان
فلسطين
بيت جبرين
غزة
مؤاب
العريش
وادي عربة
مؤتة
قبرص
فتوح الشام

الفصل الأول

فتـــوح الشام

القسم الأول

فى حياة الرسول (البعوث)

تمهيد :

لم يكن اتصال الحركة الإسلامية بالشام للمرة الأولى فى عهد الخليفة الأول ، فالحوادث التى جرت إثر وفاة الرسول، والجيوش التى مضت ، والفتوح التى تمت ، كانت جميعاً امتداداً لما كان الرسول صلوات الله عليه قد بدأه ، وتحقيقاً للغايات التى رسمها ، وسيراً بالحركة الإسلامية فى الطريق التى رادَها لها وشقّها أمامها . ولقد كان من أول ما فعل الرسول بعد أن اتجه بكتبه ورسله إلى الأمراء من حوله فى المقاطعات والواحات وإلى الملوك فى الشام وفارس ومصر و بلاد الروم،أنْ جَهّز بعث مؤتة. ولقد كان هذا البعث حركةً مبكرة فى حياة الدعوة الإسلامية ، و يبدو أن الرسول أحسّ بزكانته البارعة و إدراكه البعيد منذ تمّ فتح الحديبية « ٦ هـ — ٦٢٧ م » أن الأمور تجرى لمستقرّ لها وأن مكة توشك أن تسلس له قيادها ، ولن يعوقه أمر الجزيرة بعدها . . فإذا هو تقدم إلى الأطراف الشمالية فإنما يستشرف بالجماعة الإسلامية هدفها الذى يريد أن تتوجّه له .

١ — مؤتة

ولقد كان بعث مؤتة [1] فى جمادى الأولى من السنة الثامنة فى رواية الطبرى « أيلول عام ٦٢٩ » وكان زيد بن حارثة مولى الرسول ومُتَبَنّاه يقود هذه الآلاف الثلاثة التى توطئ أقدامها للمرة الأولى ، أرضاً غير أرض الجزيرة . قد لا تكون هذه الأرض غريبة عنها فهى قد تعرفها تاجرةً ، وقد تعرفها مهاجرةً ، وقد تعرفها زائرةً ، ولكن الذى لا شك فيه أنها تواجه للمرة الأولى جنداً لم تألفه ، وجيشاً

---

(١) تقع مؤتة شمال البتراء قرب الطرف الجنوبى من البحر الميت ، إلى الشرق منه ، وتتاخم البلقاء.

لم تعرفه ، وألواناً من الأسلحة وأساليب من القتال قد لا يكون لها بها عهد . . إنها تواجه كتائب الروم وحامياتهم التي كانت تنتشر في هذه المنطقة من الأرض تثبيتاً للحماية أو تعبيراً عن الاحتلال أو رعايةً لطرق التجارة أو إرصاداً لمن أراد الغارة . ولهذه الكتائب في تجمّعها وفي لقائها غير ما تعوّد العرب أن يواجهوا عند التجمع واللقاء ، وكان لها في أسلحتها كذلك — وهي جزء من جيش ضخم ألِفَ أصعب المعارك مع الفرس — تنوّعٌ وتفوق . أما العدد فلم يكن من التكافؤ في شيء : كان جيش القائد « البطريق » ثيودوروس كثيفاً ، على حين لم يجاوز جيش زيد ثلاثة آلاف[١] غير أن العدد لم يكن هو الذي يفيد المسلمين أو يضيرهم في معركة من المعارك وإنما كانوا بالنصر يقاتلون[٢] .

وفي إطار من كل هذه الظروف التي تتآلف على سريّة زيد ، في أرض غريبة وراء حدود الوطن الأم يسيطر عليها البيزنطيون ، ويتعاونون مع سكانها ، عربا أو غير عرب ، على حمايتها ، وتنتشر فيها المخافر والكتائب ، ويفصلها عن المدينة هذه الآماد البعيدة — لا يبدو لأعيننا غريبا أن يلقى زيد وبعثه الفتيّ هذا المصيرَ المحزن : « أن يشيط في رماح القوم »[٣] والراية في يده ، فيتلقفها جعفر بن أبي طالب ويقاتل عنها حتى إذا « ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فعقرها ، ثم قاتل حتى قُتِل . فأخذ الراية عبد الله بن رَواحة ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردّد وينشد ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل » . ثم يبرز خالد ، والمعركة الكالحة تنيخ أثقالها من كل جانب وتحبس على الجند أنفاسهم ، فيكون أكبر همه أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ المسلمين من هزيمة ماحقة محققة « فيدافع بالقوم ويحاشي ، ثم ينحاز ويتحيز ، حتى ينصرف بالناس »[٤] .

---

(١) الطبري ١/٣/١٦١٠

(٢) الطبري ١/٥/٢٠٠٢ في مقالة خالد لأبي عبيدة : « وبالعدد يقاتلون وإنما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر ، فلا تحفلك كثرتهم » واقرأ ٢٦١٠

(٣) الطبري ١/٣/١٦١٤

(٤) الطبري ١/٣/١٦١٦

٢ — تبوك

ولم يكد الرسول يُتِمّ فتح مكة وغزوة حُنين وحصار الطائف حتى أخذ يعدّ جيشه من جديد ؛ « فأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم[١] » فى ظروف قاسية حرجة عبّر عنها المؤرخون بقولهم : فى زمن عسرةٍ من الناس وشدةٍ من الحر وجدبٍ من البلاد ، وحين طابت الثمار وأُحِبَّت الظلال ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه[٢] ». ولكن ذلك لم يفتن المسلمين ، ولم يصرفهم عن أن يؤدوا واجب الدعوة ، ولم يلفتهم قول المشركين : «وقالوا لا تنفروا فى الحر .. [٣] » ؛ وإنما جدّ الرسول وحمل رجال من أهل الغنى فاحتسبوا ، وأنفق عثمان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته .. وجاءه البكّاءون يستحملونه ، فليس عندهم ما يتقوّوْن به على الخروج ، فلم يجد ما يحملهم عليهم ، فتولوْا « وأعينهم تفيض من الدمع حزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون[٤] » واستتب برسول الله سفره ، وأجمع السفر ، واعتذر من اعتذر ، وتخلف من تخلف ، مُحِقًّا أو منافقاً يبتغى الفتنة « لقد ابتغوا الفتنة من قَبْل وقلّبوا لك الأمور[٥] » ، وخلّف على أهله علىّ بن أبى طالب ، وعلى المدينة سِباع بن عُرْفُطَة أخا بنى غفار ، وفصل من المدينة فى ثلاثين ألفاً ، ومرّ بالحِجْر حتى نزل تبوك .

وفى تبوك لم تكن هناك معارك ذات غناء كبير .. كان كل ما أصاب المسلمون بعضَ الواحات التى صالحوا أهلها .. « صالحوا أهل جَرْباء وأذرُح ، وصالحوا صاحب أيْلة يوحنّة بن رؤبة ، وبعث الرسول خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِر دُومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك ، رجلٌ من كندة ، كان عليها ملكاً ، وكان نصرانياً ؛ فقدم خالد به على الرسول ، فحقن له دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .. وانصرف الجيش بعد بضع عشرة ليلة ، لم يجاوز تبوك ، قافلاً إلى المدينة[٦] .

(١) ١/٤/١٦٩٣

(٢) ١/٤/١٦٩٣ فى حوادث تبوك سنة تسع ، وكذلك النصوص الأخرى فى هذه الصفحات .

(٣) التوبة ٨١ (٤) التوبة ٩٢ (٥) التوبة ٤٨

(٦) ١/٤/١٧٠٢ — ١٧٠٣ جمل مقتطفة .

ويبدو ، فى ضوء ما حققه خروج الرسول إلى تبوك ، أنه كان يستهدف شيئين اثنين : أولهما التمهيد للدعوة فى الشام ، وذلك باستصلاح الواحات ، والواحات فى هذه الطرق الصحراوية قيمتها الكبرى فى الحركات الحربية لأنها منازل الجيوش ومراكز تموينها ، بالقدر الذى كانت تحتاج إليه مثل هذه الجيوش من تموين .. والثانى ، السير فى طريق المؤالفة بين العرب و بين هذا اللون من الخروج إلى الحرب واستئصال ما مُكّن للروم من هيبة فى بعض النفوس ؛ وما من شك فى أن خضوع صاحب أيلة وأكيدِر دومة ، وصلح أهل جَرْبا. وأذْرُح ،كان بدايةً طيبة للأمرين جميعاً ؛ كان فتحاً لمنافذ الطرق إلى الشام ، وكان إثارة للقوة فى نفوس العرب ؛ فهذه الواحات إنما كانت تعيش فى حماية الروم وظلالها ، ولن يفَسَّر خضوعها إلا على أنه كسرٌ لخطوط المقاومة الأولى التى اعتزمها الروم منذ قتلوا رسول النبى إلى صاحب بُصرى ، وألحقوا بجيشه الهزيمة فى مؤتة .

وحققت تبوك أغراضها هذه ، وعاد الرسول إلى المدينة وقد شقّ المسلمين طريقهم هذا .. لفتهم إليه أولاً ، ودلهّم عليه ثانياً حين بعث فيه متُبَنّاه فى مؤتة ، ثم سار هو بنفسه فى تبوك فى ظروف قاسية حرجة لا تتيح للجيوش أن تغادر أرضها ومستقرها . . ولكن الرسول كان يقصد إلى ذلك ، كان يقصد أن يفقه العرب وجهته هذه فى الدعوة الإسلامية ، وأن تشرب قلوبهم اندفاعاً نحوها ، وأن يمضوا فيها ؛ فقد آذنت شمسُ بيزنطة أن تنجاب عن هذه البلاد التى تحتلها ، وآن للدعوة الإسلامية أن تحررها ، وليس « بنو الأصفر » شيئاً ذا بال أمام جيوش الدعوة ؛ لقد كانت مقدماتهم التى تعيش فى واحات الحدود تُسلِم أو تصالح، وسيكون ذلك شأن البلاد الأخرى من ورائهم ، ومع ذلك فليجدّد الرسول صلى الله عليه وسلم للدولة الإسلامية استشرافها ولَفْتَها من قبل أن يصطفيه الله لجواره الكريم .

٣ — بعث أسامة (المحرم من سنة ١١ — آذار سنة ٦٣٢)

فى المحرم من سنة ١١ ، قبل شهر واحد من وفاته (١٣ ربيع أو أواخر صفر من سنة ١١هـ — ٨ يونية سنة ٦٣٢ م) ضرب الرسول على الناس البعث من جديد إلى الشام .. كانت مؤتة أول مُنْطَلَقِ العرب إلى حرب الروم، وكان قد قُتل فيها زيد مولاه ، وكانت تبوك تمهيداً للطريق إلى الغاية ، وقد قادها الرسول بنفسه ، أما فى هذه المرة ، فقد أمّر أسامةَ بن زيد ، هذا الفتى الشاب ، حتى تكونَ صورةُ أبيه — وقد شاطته رماح الروم — ملء قلبه وعينيه ، وحتى تكون صورة جعفر بن أبى طالب وهو « يطير بجناحيه مع الملائكة إلى السماء[١] » تتألق فى ضميره ، وحتى يرى المسلمون أن الرسول أغزى الروم ابنَه ومولاه ، وأنه غزاهم بنفسه ، ثم أغزاهم بابن ابنه ومولاه زيد بن حارثة ، وأنه بذلك — كما قال الرسول — لخليق[٢] .. وقد أمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والدَّارُوم من أرض فلسطين[٣] .

ولكن أسامة لم يكد يتهيأ للخروج حتى بدأ الرسول شكاته ، ولم يكد يخرج يضرب بالُجرْف قرب المدينة حتى ثقل الرسول صلوات الله عليه[٤] ، ولم يجاوز آخرُ البعث الخندقَ حتى قُبض عليه الصلاة والسلام ، قُبض ووجهةُ هذا الجيش ، وفيه وجوه الناس ، الشام . . ويقف أسامة ليستأذن أبا بكر « إذ لا يأمن على خليفة رسول الله وثَقَل رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون[٥] » ويتلقى أبو بكر هذه التكاليف الثقيلة العريضة ، وتضع الجماعة بين يديه دعوتها التى جهد الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كلَّ هذه السنين الطوال ، وتكل إليه هذه الأمانة « وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة فى كل قبيلة ، ونَجَمَ النفاق ، واشرأبت

---

(١) الطبرى ١/٣/١٦١٧ مقتبس من حديث الوسول .

(٢) الطبرى ١/٤/١٧٩٤ — ١٧٩٥

(٣) الطبرى ١/٣/١٧٩٤ وفى رواية أخرى « ١٧٩٥ » أن يوطىء من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردنّ .

(٤) الطبرى ١/٤/١٧٩٧ (٥) الطبرى ١/٤/١٨٤٩

اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم[١] .. » . ويتحدث إليه المتحدثون أن يتمهل فى بعث أسامة ، « وأن فيه جلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين[٢] » ، ولكن أبا بكر ، هذا الرجل الذى كان أقرب النفوس نفساً إلى رسول الله وإدراكاً لغاياته وتمرساً بأهدافه ، والذى صحب الدعوة فى كل خطاها منذ كانت همساً فى الأذن ، ومناجاةً فى السر ، حتى أضحت نداء للناس جميعاً — ينتفض ليقول : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننتُ أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته[٣] » .

ويخرج أبو بكر إلى الجُرف فيأتى الجيشَ ، ويشخصهم ويشيعهم ، وهو ماش وأسامة راكب ، ويأبى عليه أن ينزل ، ويوصيهم وصاته المشهورة[٤] ويودّع أسامة وهو يقول له : « واصنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم : إبدأ ببلاد قُضاعة ثم ايتِ آبِلَ ، ولا تقصّرن فى شىء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعجلنّ لما خلفت عن عهده[٥] » .

ويمضى أسامة مُغِذًّا على ذى المَرْوة والوادى ، وينتهى إلى ما أمره به النبى صلى الله عليه وسلم من بثّ الخيول فى قبائل قضاعة والغارة على آبل . ويسْلَم ويَغنَم ويعود فى أربعين يوماً سوى مقامه ومُنْقَلَبِهِ[٦] .

ولما قدم أسامة بن زيد خرج أبو بكر واستخلفه على المدينة ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة يلقى بنى عبس وذبيان .. فقاتلهم فهزمهم الله وفلّهم ثم رجع إلى المدينة[٧] .

---

(١) الطبرى ١/٤/ ١٨٤٨ (٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) الطبرى ١/٤/١٨٤٨ ، وفى ١٨٤٩ رواية ثانية
(٤) الطبرى ١/٤/١٨٥٠ (٥) الطبرى ١/٤/١٨٥١
(٦) نفس المصدر والصفحة (٧) الطبرى ١/٤/١٨٧٩ — ١٨٨٠

وأراح أسامةُ وجندُه ظهرهم وجمّوا ، وجاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ، فقطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية ، أحَدَ عشر لواء لقتال أهل الردة ، ورسم لكل لواء سبيله . . وفصلت الأمراء من ذى القَصَّة ونزلوا على قصدهم[1] وكان أبرزهم وأنبههم ذكراً خالد بن الوليد .

القسم الثانى

بعد وفاة الرسول (الجيوش)

تمهيد :

واستطاعت الجيوش الإسلامية بعد سلسلة من الاصطدامات والمعارك فى أطراف بلاد العرب ووسطها ، أن تطفىء لهب الردة وأن تعيد إلى الدولة التى خلّفها الرسول مظاهرَ وحدتها ، وإلى المدينة مكانتَها فى قيادة الجزيرة وتوجيهها ، وعادت الألوية التى عقدها أبو بكر ، وفى مقدمتها لواء خالد ، إلى المدينة وقد كلّلها الظفر وأتاحت لها هذه المغامرات البعيدة قدراً من التجربة والتمرّس ، ووهبتها فوق ما كانت تملك من يقين وثقة . واستطاع أبو بكر أن يتنفس فى جوّ من الطمأنينة والنقاء ، وعادت تلحّ عليه استشرافات الرسول نحو الشام ، ومطالب الدعوة نحو العراق ، وحاجة الإسلام إلى أن يتمخض عن اتساع جديد . ووجد أنه ، إذ تحقق له الاستقرار الداخلى بما كان من انقياد القبائل وعودتها إلى الجماعة ، يستطيع أن يتابع خطى الرسول فى الانتشار الخارجى وأن يمدّ من رقعة الدعوة فيضم إليها هذه المقاطعات الخضراء من حوله : الشام والعراق ومصر . . ولم يفارقه فى ذلك طابع المبادهة والسرعة وقطع الطريق على كل تردد أو جبن فقد كان يعرف إلى أى شىء يهدف ، وكانت خطواته هذه المتزنة السريعة التى تتجاوب مع نبضات قلبٍ ملىء بالثقة ، تدل على ما كان يهدف إليه . . ولهذا لم يكد خالد يفرغ من اليمامة حتى كتب له أبو بكر وهو مقيم فيها :

---

(١) الطبرى ١/٤/١٨٨٠ — ١٨٨١

أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند ، وهى الأُبُلّة ، وَتَأَلَّفْ أهل فارس ومن كان فى مُلْكهم من الأمم[(١)]. وما علينا الساعةَ من حديث الدعوة فى العراق ، فلننظر كيف كان سير الدعوة فى الشام . . فللعراق مكانه من هذه الفصول إن شاء الله .

١ — تصنيف الجيوش والأمداد

بدأ الخليفة الأول توجيه الجيوش إلى الشام فى السنة الثالثة عشرة للهجرة مُنْصَرَفَهُ من مكةَ إلى المدينة ، بعد أن قفل من الحج[(٢)].

ولو رحنا نتتبع أنباء هذه الجيوش ونحاول تصنيفها لوجدنا أننا أمام فيض متدفق من الروايات والأسماء والقيادات : أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشُرَحْبيل بن حَسَنَة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأخوه معاوية ، والوليد بن عقبة ، وخالد بن سعيد بن العاص و . .

ويظهر أن مَرَدَّ هذا الفيض من الروايات إلى ما كان من كثرة البعوث من نحو ، وإلى الطريقة التى سار عليها أبو بكر فى التجنيد والاستنفار من نحو آخر ، وإلى الخلط الذى كان بين الجيش وبين الأمداد من نحو ثالث ، وإلى إهمال الفواصل الزمنية فى بعض الروايات من نحو أخير . . وعن هذه الأسباب كان يبدو بعض التعقيد وبعض التداخل .

وفى وسعنا أن نلخص ذلك فيما يلى :

الخطوة الأولى — توجيه خالد بن سعيد بن العاص نحو تيماء :

توضح رواية الطبرى فى جلاء نيّر هذه الخطوة بالأسطر التالية : أمر أبو بكر خالداً بأن ينزل تيماء ، فَفَصَل رِدْءاً حتى ينزل بتيماء ، وقد أمره أبو بكر أن لا يبرحها ، وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه ، وأن لا يقبل إلا مِمَّنْ لم يرتد ، ولا يقاتل إلا من قاتله

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠١٦ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٧٨

حتى يأتيه أمره . . فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة[١] . « وكان لواء خالد أول لواء عقده[٢] » وكان وجّهه إلى الشام حيث وجّه خالداً بن الوليد إلى العراق[٣] .

الخطوة الثانية — استنفار المسلمين وتوجيه الأمراء نحو فلسطين والأردن :

« اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره[٤] » . فكتب إلى بعض العمال يخيّرهم بين العِمالة والجهاد ، مثل الوليد بن عقبة وعمرو بن العاص ، فكتبوا يؤثرون الجهاد ، فأمرهم أن يستخلفوا على أعمالهم وأن يندبوا الناس مما يليهم ؛ وأخذ يخطب الناس يحضّض على الجهاد ، وبعث من اجتمع إليه كما يلى : بعث أبو بكر عمرو بن العاص قِبَل فلسطين فأخذ طريق الْمُعْرِقَةِ على أيْلة[٥] ، وبعث يزيد بن أبى سفيان وأبا عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ، وهو أحد الغوث ، وأمرهم أن يسلكوا التَبوكيّة على البلقاء من علياء الشام[٦] ، وكتب إلى الوليد بن عقبة وأمره بالأردنّ وأمدّه[٧] .

وفى هذه الخطوة الثانية يضيع ذكر خالد بن سعيد بن العاص ، إما لأنه عزل قبل أن يسير « الطبرى ٢٠٧٩ سطر ٧ » — وقد اضطغن عليه عمر بن الخطاب فى قالة قالها بعد بيعة أبى بكر وما زال عمر بأبى بكر حتى عزله — أو لأنه عزل بعد سيره واستجاب أبو بكر لعمر فى عزله بعدما فعل فعلته « ٢٠٨٥ سطر ١٨ » إذ اقتحم على الروم ، طَلَبَ الحظوة ، وأعرى ظهره و بادر الأمراء بقتال الروم وهُزم فى مرج الصُفّر من بين الواقوصة ودمشق « ٢٠٨٤ — ٢٠٨٥ » ، وقُتل ابنه . . ومهما يكن من أمر الروايات الأخرى فى مقتله « ٢١٠٧ سطر ١٥ » أو فى فراره ، أو فى محاولته

---

(١) الطبرى ٢٠٨١/٤/١ (٢) الطبرى ٢٠٧٩/٤/١

(٣) الطبرى ٢١١٠/٤/١ (٤) الطبرى ٢٠٨٢/٤/١

(٥) فأخذ عمرو طريق المعرقة وسلك أبو عبيدة طريقه . وأخذ يزيد طريق التبوكية وسلك شرحبيل طريقه ، وسمى لهم أمصار الشام . وعرف أن الروم ستشغلهم فأحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعد ، لئلا يتواكلوا . فكان كما ظن وصاروا إلى ما أحب ٢٠٨٥/٤/١ — ٨٦ وأيضاً ٢١٠٧ سطر ٧

(٦) الطبرى ٢٠٧٨/٤/١ — ٢٠٧٩

(٧) الطبرى ٢٠٨٤/٤/١ سطر ٨ — ٩

التكفير عن هذا الفرار ، فإن جيشه أو فُلّال جيشه ، تفرق بين معاوية و بين شرحبيل ابن حسنة(١) . وأما جيش الوليد بن عقبة فقد قدم على خالد بن سعيد فسانده(٢) ، وانطوى فيما انطوى فيه جيش خالد .

الخطوة الثالثة — الأمداد والتعديل فى القيادة وتسمية المقاطعات (الكور) :

ا — يقدم شُرَحْبيل بن حَسَنَةَ على أبى بكر وافداً من عند خالد بن الوليد بفتح من فتوحه ، فيسرّحه أبو بكر نحو الشام بجند ، ويستعمله على عمل الوليد ، ويخرج معه يوصيه . ويأتى شرحبيل على خالد بن سعيد فيفصل بأصحابه إلا القليل(٣) .

ب — يجتمع إلى أبى بكر أناس فيؤمّر عليهم معاوية ويأمره أن يلحق بيزيد أخيه فيخرج معاوية حتى يلحق به . فإذا مرّ بخالد (بن سعيد بن العاص) فصل ببقية أصحابه(٤) .

وهكذا يكون قد استقامت تسمية كل كورة من كور الشام لكل أمير من أمراء الجند : سمّى لأبى عبيدة بن عبد الله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبى سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حَسَنَةَ الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مُجَزِّز فلسطين(٥) .

الخطوة الرابعة — فى بلاد الشام :

ويوعب القواد بالناس(٦) ، وتتوجه هذه الجيوش نحو الشام كلٌّ فى طريقها ، ويلحق بها ما كان من أمداد أبى بكر لها ، وتبدو ، وهى فى الشام ، فى جيشين كبيرين : جيش يقوده عمرو بن العاص ومهمته الهجوم على جنوبى شرقى فلسطين .. وجيش آخر يقوده يزيد وشرحبيل ومهمته الهجوم على مقاطعة مواب القديمة(٧) .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠ وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد ، أمر عليهم أبو بكر معاوية ، وشرحبيل .
(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٨٤
(٣) الطبرى مزيج من خبرين ١/٤/٢٠٨٥ و ١/٤/٢١١١
(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٨٥ سطر ١٢
(٥) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠
(٦) الطبرى ١/٤/٢٠٨٦
(٧) بروكلمان ١/١١١

و بعد سلسلة من المواقع والاصطدامات يحس المسلمون حاجتهم الجدية إلى أن يتكتلوا فى جيش واحد[١] فيكون هذا الجيش بقيادة خالد و يكون مركزه بصرى

٢ — الاصطدامات

يمكننا أن نميز فى الروايات الكثيرة التى تحدثنا عن واقعات الجيوش الإسلامية فى بلاد الشام أنها تنتظم فى مرحلتين :

المرحلة الأولى : اصطدامات متفرقة خاضها الأمراء بجندهم حين وطئوا أرض الشام أو حين تقدموا فيها .

المرحلة الثانية : معارك كبرى خاضها الجيش الإسلامى كله فى مواقع فاصلة انتهت به إلى التغلب على الشام ومطاردة البيزنطيين ، وفتحت له فى الشمال الطريقَ إلى الجزيرة وما وراءها ، وفى الجنوب الطريق إلى مصر وما دونها .

ومن الواضح أن المرحلة الأولى مرحلة اصطدامات وأن الثانية مرحلة وقائع ومن الواضح أيضاً أن هاتين المرحلتين تتلاقيان مع ما كان من تفرّد الجيوش أولا وتضامها ثانيا . فحين كانت حركة الفتح تلامس أطراف البلاد كانت لا تزال الجيوش موزعة بين الأمراء الذين فَصَلوا من المدينة والأمداد التى تبعتهم ، أما حين حققت الحركة أولى انتصاراتها و بدأت توغل فى داخل الشام فقد أضحت المعارك ذات طبيعة خاصة ، يريد منها المسلمون التمكن والتمدد ، و يريد منها البيزنطيون الإبعاد والطرد .

الاصطدامات الأولى : لقى المسلمون الروم فى وادى عَرَبَة[٢] . وكان المسلمون

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠ : « فلما شارفوا الشام دهم كلَّ أميرمنهم قومٌ كثير ، فأجمعوا رأيهم أن يجتمعوا بمكان واحد وأن يلقوا جمع المشركين بجمع المسلمين . وفى ١/٤/٢٠٨٧ ففزعوا « المسلمون » جميعاً بالكتب والرسل الى عمرو : أن ما الرأى ؟ فكاتبهم وراسلهم أن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة . وقد كتب الى أبى بكر بمثل ما كاتبوا به عمراً ، فطلع عليهم كتابه بمثل رأى عمرو ، بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، واجتمعوا متساندين .

(٢) منخفض عظيم جنوبى البحر الميت .

بقيادة يزيد ، وكان الروم بقيادة سرجيوس ، وكان سرجيوس هذا بطريق فلسطين وكان مقره قيسارية ، المدينة الساحلية التى تقع إلى جنوب حيفا . وانتصر يزيد فى هذه المعركة واضطر الروم أن يرتدوا إلى غزة حيث كانت بعض مراكزهم الحربية ، فاتبعهم المسلمون وأدركوهم عند قرية داثن ، وكادوا أن يفنوهم (٤ شباط « فبراير » ٦٣٤ [١]) .

وكان اللقاء الثانى فى تموز من عام ٦٣٤ فى أجنادين[٢] . وأجنادين فى فلسطين بين الرملة و بيت جبرين[٣] . وقد انتصر فيها المسلمون على قوات بيزنطة التى كان يقودها أرطبون واضطروها إلى التراجع نحو بيت المقدس .

ونعدّ من المعارك الصغيرة معركة خاضتها فرقة إسلامية صغيرة فى يناير « كانون الثانى » من سنة ٦٣٥ تقدمت إلى الشمال عبر المناطق المحمية واستولت على حمص[٤] .

٣ — المعارك

لم تتخذ حركات الجيوش الإسلامية شكل المعارك الكبرى إلا بعد أن جاء خالد بن الوليد من العراق مُمِدّاً لأهل الشام . ويبدو أن هذه الجيوش استطاعت فى الواحات التى كانت على أكتاف بلاد الشام ، أن تحقق الصلح وتضمن إراقة الدماء ، وأنها حين تقدمت خطوات أخرى فى مناطق الحدود استطاعت كذلك أن تحقق الظفر وتضمن الغلبة فى مثل مُواب وأيْلة . . وأما فيما بعد ذلك فقد بدأت

---

(١) فيليب حتى تاريخ العرب « مطول » ٢٠٠

(٢) روايات الطبرى عن أجنادين فى ١/٤/٢١٢٥ — ٢٦ وتاريخها لليلتين بقيتا من جادى الأولى سنة ١٣ هـ

(٣) فيليب حتى ٢٠٢ أوجنابتين (البوثروبوليس فى اليونانية) على طريق غزة وأورشليم بروكلمان ١١١ ، الطبرى ١/٤/٢١٢٥ وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

(٤) بروكلمان ١/١١٢

العقبات تتضح وتنمو فى طريق الدعوة ، واتخذت هذه العقبات أشكالاً لعل منها شدة المقاومة ، ولعل منها كثرة العدد ، ولعل منها ما سنرى من موقف العرب ومساندتهم للروم .

ولهذا أمدّ أبو بكر جيوش الشام بخير جيوشه وأقوى جنوده ، وقد كانت فرق خالد هذه التى فتحت الحيرة هى هذه الدرّة المتألقة فى جبين الدولة ، صقلتها حروب الردّة وصهرها هذا التطواف فى بلاد العرب ، وعانت كثيراً من القسوة والشدائد فأورثها ذلك مناعة منيعة وقوة قوية . فأمدّ الشامَ بها وكتب إلى خالد أن يؤمر على العراق المثنّى وأن يسير إلى سورية[١] حتى يأتى جموع المسلمين فإنهم قد شجوا وأشجوا[٢] .

وكما تكون الصاعقة شدةً وسرعةً ومفاجأةً كانت فرقة خالد تقطع الطريق بين الشام والعراق وتحقق شيئاً يشبه المعجزة فى حركات الجيوش ، وتطلع على الروم من مؤخرتهم ، وتصيب فى طريقها بعض الواحات و بعض القبائل ، وتلتقى مع جيوش المسلمين جميعاً فى بصرى فى آذار « مارس » من سنة ٦٣٤[٣] .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٨٩ فى موضعين .

(٢) الطبرى ١/٤/٢١١٠ وبقية الكتاب : وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك . فليهنأك ، أبا سليمان ، النية والحظوة ، فأتم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل . وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء .

(٣) لا يزال الطريق الذى سلكه خالد من الحيرة إلى الشام موضع تحقيق كثير من العلماء ولا تزال كثرة الروايات عنه تزيد فى عبء هؤلاء المحققين وتضاعف من ثقل مهمتهم . ويتولى فى العراق طه باشا الهاشمى أمر هذه النواحى بما عرف من اهتمامه بسيرة خالد وحركاته الحربية . ولعل أوضح الروايات وأكملها فى رسم طريقه الرواية التالية : « فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام وضمهم إليه فشخص خالد من الحيرة فى ربيع الآخر سنة ١٣ هـ فى ثمانمائة ويقال فى خمسمائة واستخلف على عمله المثنى بن حارثة : فلقيه عدو بصندوداء فظفر بهم ، وخلف بها ابن حرام الأنصارى . ولقى جمعاً بالمصيخ والحصيد عليهم ربيعة بن بجير التغلبى فهزمهم وسبى وغنم ؛ وسار ففوز من قراقر[١] إلى سوى[٢] فأغار على أهل سوى واكتسح أموالهم =

---

(١) قراقر : قلبان قراقر حديثاً عن فيليب حتى ٢٠٢ .

(٢) سُوى : بالقرب من سبع بيار الحديثة إلى الشمال الشرقى من دمشق . عن فيليب حتى ٢٠٢

ومع امداد خالد تبدأ مرحلة جديدة في تطور الفتح الحربي وتتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة :

١ — توحيد جيوش المسلمين .   ٢ — توحيد القيادة تحت إمرة خالد .

٣ — تغيير نظام التعبئة . وتنثال الفتوح بعد ذلك منظّمة موحّدَة . وتصالح بصرى[1] وهي مفتاح القسم الأوسط من سورية بعد مقاومة يسيرة . ويحاصر الجيش مدينة فِحل[2] ثم يطلب أهلها الأمان في ٢٣ يناير سنة ٦٣٥ . ثم يتقدم المسلمون نحو دمشق ويهزمون الروم في طريقهم إليها في موقعة مرج الصُفّر « وهو سهل على بعد ٢٠ ميلا جنوبي دمشق » ثم يحاصرونها هذا الحصار الذي يستمر ستة أشهر أو سبعة لتُلقي بعد ذلك إليهم بمفاتيحها في « أيلول — سبتمبر » من عام ٦٣٥ « إثر خيانة قام بها بعض أرباب السلطة المدنية والروحية ومنهم الأسقف جد القديس يوحنا[3] . ويكون استسلام دمشق تتويجاً لكل جهودهم التي بدأت منذ كتب

= وقتل حرقوص بن النعمان البهراني . ثم أتى أرك فصالحوه . وأتى تدمر فتحصنوا ثم صالحوه . ثم أتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم وغنم . وأتى حوّارين فقاتلهم فهزمهم وقتل وسبي . وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة . وأتى مرج راهط[1] فأغار على غسان في يوم فصحهم فقتل وسبي ووجه بسر بن أرطأة وحبيب بن مسلمة إلى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العيال إلى خالد . الطبري ١/٤/٢١٠٨ — ٢١٠٩ ، وقابل أيضاً الروايات الأخرى في ١/٤/٢١١٢ — ٢١١٤ التي تذكر كيف تزود بالماء .

(١) هي بصرى أسكي شام الحالية من محافظة حوران . ونص الطبري ١/٤/٢١٢٥ « ثم سار خالد حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجرّاح وشرحبيل بن حسنة ويزيد ابن أبي سفيان ، فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صالحت بصرى على الجزية وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر .

(٢) حصن في الشرق من الأردن يسيطر على معبر هذا النهر (فيليب حتى ٢٠٣) — وفي بروكلمان ١/١١٢ : « وفي يناير ٦٣٥ هاجم العدو مرة ثانية في فحل على المنحدرات الغربية من شرقي الأردن .

(٣) حتى تاريخ العرب « مطول » ٢٠٣

---

(١) مرج راهط من مضارب الغساسنة على بعد ١٥ ميلا من دمشق بالقرب من عذراء عن فيليب حتى ٢٠٢

الرسول صلى الله عليه وسلم رسائله إلى هرقل وبعث أول بعوثه إلى مؤتة ، ويكون ذلك تخفيفاً عن مقتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ، ويكون خالد الذى أنقذ الجيش فى مؤته وحازه هنا وهناك حتى رجع به إلى المدينة ، هو الذى تُفتح دمشق على يديه و يصالح أهلها بكتابه ويدخلون فى عهده وعهد المسلمين ، وتكون الفترة بين مؤته « ٦٢٩ » و بين دمشق « ٦٣٥ » ست سنوات قضاها المسلمون فى محاولات متصلة مستمرة : يدعون فلا يستجاب لهم وينذرون فلا يؤبه لنذرهم ، ويظن بهم الروم هذه الظنون التى خدعتهم عنهم وهوّنت لهم من أمرهم حتى لقوا منهم ما لقوا .. و يستقر المسلمون فى هذه المدينة الخالدة و يبدءون يلقون عليها طوابعهم ويتلقون منها خصائصها ، لتكون بعد ذلك عاصمة ملك ضخم فى عهد بنى أمية .

وكان لابد لهذا الفتح الذى فتح على المسلمين من أن يثير فى جيوش بيزنطة روحَ المقاومة وأن يحملها على رد عنيف . وقد تمثل ذلك فى معركة اليرموك وفيما حشد هرقل من جيش كثيف وعدّة ضخمة . ويبدو كما يقول بروكلمان « أن غرض هذا الجيش كان انقاذ دمشق غير أن أوان الإنقاذ كان قد فات — ومع ذلك فقد استطاع أن ينقذ حمص على الأقل حتى إذا أقبل الخريف وعقبه الشتاء توقفت فيما يبدو العمليات الحربية بين الفريقين بعد صلح اتفقا عليه[١] » .

وفى صيف سنة ٦٣٦ نشبت معركة اليرموك ، وكان جيش الروم خمسين ألفاً بقيادة ثيودورس أخى هرقل ، وكان جيش المسلمين خمسة وعشرين ألفاً بقيادة خالد[٢] واستطاع المسلمون فى ٢٠ آب « أغسطس » فى معركة فاصلة بدأت بعد سلسلةٍ من المناوشات ، أن يحققوا النصر وأن يتقدموا فى يسر وانطلاق نحو الشمال ليحتلّوا حمص من جديد وليلْقَوْا فيها وقفة استجمام وراحة . . وقد كانت هزيمة البيزنطيين فى اليرموك هزيمة ماحقة فنى فيها الجيش أو أكثره ، وقتل فيها القائد ، واضطر هرقل أن

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١١٢

(٢) فيليب حتى ١/٢٠٤ والطبرى ١/٤/٢٠٩١ فكانوا ستة وأربعين ألفاً ، والطبرى أيضاً ١/٥/٢٣٤٧ المسلمون ٢٤ ألفاً والروم مائة ألف .

ينسحب من أنطاكية وهو يقول جملته المشهورة التي تمثل لوعته وحزنه : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو[١] .

ويبدو من تتبع الفتوح بعد ، أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه أن يكون إسلامَ زمام بلاد الشام والجزيرة إلى المسلمين ، لأنه مكّن لهم من أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من سورية والتي تحمى ظهورهم بالبادية ، وأن ينثالوا منها بعدُ في الشمال وفي الجنوب : أما في الجنوب فسينتهي بهم الأمر إلى الاستيلاء على بيت المقدس بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق «٦٣٨» وإلى الاستيلاء على قيسارية وهي مدينة ساحلية أتاح لها مركزها الساحلي أن تتلقى أمداد الروم بحراً ولكنها استسلمت أخيراً في تشرين الأول «أكتوبر» سنة ٦٤٠ في عهد معاوية .

وأما في الشمال فقد توالت الفتوح بعد حمص ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تدخل حلب وأن تدخل بعد حلب أنطاكية ، حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية ، ثم توجهت بعد ذلك إلى الشرق نحو مدن الجزيرة فصالحها أهل الرُّها ونصيبين وأرمينية ، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً وكانت تلك السهولة مَهْجَنَةً عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين[٢] .

وبافتتاح الجزيرة تم الاتصال بين فتوح الشام وفتوح العراق .. وستكون الشام بعد هذا منطلق الجيوش الإسلامية إلى إفريقية الشمالية من نحو و إلى الجناح الشرقي من المملكة الإسلامية من نحو آخر .

لو أننا نحّينا مؤتة وتبوك وبعث أسامة لكان فتح الشام قد امتد بين سنة ٦٣٤ التي التقت فيها الجيوش الإسلامية بالروم في وادي عربة وبين سنة ٤٠ التي استسلمت فيها قيسارية لمعاوية . وفي خلال هذه السنوات استطاعت الجيوش الإسلامية أن

---

(١) البلاذري ١٣٧ وفي الطبري ١/٥/٢٣٩٦ عليك السلام ياسورية سلاما لااجتماع بعده ورواية أخرى في نفس الصفحة

(٢) الطبري ١/٥/٢٥٠٧ — ٢٥٠٨

تركز أقدامها فى معارك قاسية . أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير عزم . . وسنرى فى دراسة هذه الفتوح من الوجهة الاجتماعية تفصيل القول فى هذه الإشارة المجملة .

القسم الثالث

موقف السكان من الفتوح

ترى كيف كان موقف هذه البلاد من حركة التحرير وماذا كانت ميول أهلها .

أننا نستطيع أن نتبين ذلك إذا نحن درسنا موقف الطبقات الثلاث التى كانت تكون المجتمع الشامى قبل الفتح الإسلامى : طبقة العرب ، وطبقة رجال الدين المسيحيين ، وطبقة الروم .

١ — موقف عرب الشام

إن كثرة كثيرة من المؤرخين ترى أن انتشار العرب فى هذه المنطقة ، على حدودها أو فى أطراف منها كبصرى ودمشق أو فى مناطق كبرى كالجزيرة ، كان من أكبر العوامل التى مهدت للفتح العربى طريقه وأعانت عليه . وليس فيهم من يذكر هذه القرابة بين عرب الجزيرة وعرب الضاحية دون أن يشير إلى أثرها فى سرعة الاستجابة وتحقيق الغلبة ، حتى ليرى بعضهم « أن الفتح كان حركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامى[١] » .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق القول فى ذلك منكرين له أو مؤمنين به إلا أن يتاح لنا أن نتتبع موقف عرب الشام من الحركة الإسلامية ومن جيوش التحرير . وسنجهد أن نجمل ذلك فى نطاق من التسلسل التاريخى حتى تكون الأمور أكثر استبانة وأشد وضوحا .

---

(١) حتى تاريخ العرب ١٩٧

وأول الحوادث التى تطالعنا من هذا النحو أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل رسوله إلى قائد قلعة بصرى يدعوه إلى الإسلام و يبصّره بهذه الحركة التى قامت فى قلب بلاد العرب . . ولكن الرسول يقتل ، وللرُّسُل منذ عرف تاريخ العلائق الإنسانية حُرْمتهم وأمْنُهم فى أشد حالات الغضب وأقسى ألوان العداوة ، وما من شك فى أن مقتل هذا الرسول فى بلاد تقيم لمثل هذه التقاليد حرمتها يهب المطالع للمرة الأولى ، انطباعا سيئاً عن تلقى عرب الشام للحركة الإسلامية .

وفى مؤتة فى العام الثامن الهجرى، ايلول «سبتمبر» ٦٢٩ ، تلقى سرية زيد أشد الهول ، وتتلقف الرماحُ زيداً ابن النبى من كل نحو ، و يقتل جعفر ابن عمه ، ويموت بعده عبدالله بن رواحة، و يستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا أسماؤهم ولا أعدادهم . . وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب و يقتلونهم .

وفى عام الوفود ، فى العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة ومكَّن لهم من البيت وهو مثابة العرب وأمنهم وموطن حرماتهم ، كانت تنطلق وفود القبائل من كل صوب تتجه إلى النبى تمدّ يدها تبايعه على الإسلام والنصرة ، وتنضوى فى نظامه الجديد . . وفى هذا الحين لم نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام أو عرب العراق ؛ لم نجد لا هجرة أفراد ولا توفّد قبائل . ولو كان شىء من التجاوب بين هؤلاء العرب والحركة الإسلامية لدلّت عليه حادثات أو أنباء ، من طرف بعيد أو قريب .

وتكون غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى كذلك ، و يقبل على النبى صاحب أيْلة يوحنة بن رؤبة فيصالح الرسول و يكتب له عهده ، و يقبل ناس من أهل جرباء وأذرح فيصالحهم كذلك و يكتب لهم عهودهم ، و يأتيه صاحب دُومة الجندل فيدخله فى ذمة المسلمين ، ويكون الرسول قد قارب مشارف الشام ، ولكن عرب الشام لا يستيقظون لدعائه ولا يستجيبون لدُعاته ولا يبادرون لنصرته وتأييده .

فإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التى بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام ، وجدنا أن موقف العرب لم يكن فى كثير من المرات استجابة أو تأييداً ، وأن الروم كانت « تضرب البعوث على العرب الضاحية وكانت وكانت تستنفرهم فينفر إليها من بهراء وكَلْب وسَليح وتنوخ ولخم وجُذام وغسان[١] » وكانت تحارب بهؤلاء المستنفَرين فى المواقع المختلفات . . بل إنها كانت تجد منهم من تستخدمه فى التجسس والتطلع . ففى أجنادين ، لما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلا عربياً — قال ُحدثت أن ذلك الرجل من قُضاعة من تَزيد بن حَيْدان يقال له ابن هزارف — فقال ادخلْ فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتنى بخبرهم . . قال فدخل فى الناس رجل عربى لا يُنْكَر ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه فقال له ما وراءك : قال بالليل رهبان ، و بالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده[٢] .

هناك رواية واحدة ينفرد بها سيف عن أولى مراحل الطريق إلى الشام حين « أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه ، فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة و بلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على العرب الضاحية البعوث . وكتب خالد إلى أبى بكر بذلك و بنزول من استنفرت الروم ونفر إليهم من بَهْراء وكلب وسليح و . . من دون زِيزاء بثلاث فكتب إليه أبو بكر : أقدم ولا تحجم واستنصر الله . . فسار إليهم خالد فلما دنا منهم تفرقوا وأعرَوْا منزلهم فنزله . ودخل عامة من كان تجمع له فى الإسلام[٣] » .

ترى ما قيمة هذه الرواية المنفردة ، وهل فى الوسع أن نتحقق من رواتها، وهل دخل هؤلاء عامة فى الإسلام وانضموا إلى جيش التحرير ؟ .

ربما كان يغنينا عن ذلك أن ننظر فى الرواية التالية عن اللقاء بين الروم والمسلمين فنجد فى حديث ابن اسحاق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٨١
(٢) الطبرى ١/٤/٢١٢٥ — ٢٦
(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨١

المسلمين من قريش فيها أنه يخص القبائل الشامية بهذا النص العجيب : وكان انضم إلى المسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام فلما رأوا جدّ القتال فرّوا ونجَوْا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين[١] .

موقف عرب الضاحية يبدو إذن موقفاً واضحاً . فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام إليها ، وهم كذلك لم يُولُوها العطف والحدب . . كان ذلك موقفهم طيلة حياة الرسول ، وكان كذلك موقفهم فى حياة الخليفة الأول . . والقلة القليلة التى التحقت بالمسلمين عادت تخذلتهم فجأة فى أحلك ساعات المعركة الكبرى التى فصلت فى مصير بلاد الشام وفى أقسى مواقفها وعلى حين اضطر النساء المسلمات أن يسهمن بالعون وأن يقاتلن بالسيوف .

ونحن بعدُ نملك أن نستبين موقف العرب الشاميين من غير طريق الروايات ، ونستطيع أن نتمثله فى حركات الفتح نفسها إذا تجاوزنا أيام حياة الرسول والتمسنا لهم العذر عنها .. فمن الواضح أن البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون بالبيزنطيين وحدهم، كانت كثرة من جيوشهم من هؤلاء العرب أنفسهم، فمن هم الذين قاتلوا فى وادى عربة .. ومن هم الذين قاتلوا فى أجنادين وفى دمشق ؟ كيف كان يستطيع المحاصرون أن يحفظوا على أنفسهم هذا الحصار ستة أشهر أو سبعة لو رفّت فى نفوس العرب صلات القربى وحَمِيَ فيهم دم النسب المشترك . . وفى اليرموك كيف كان نصف الجيش من المستعربة عليهم جَبَلَة بن الأيهم الغسانى[٢] يقاتلون العرب المسلمين إلى جانب أهل أرمينية .. أكان هذا كله اضطراراً وإكراهاً . . وكيف لحقت بعض القبائل ، بعد أن استقر للمسلمين الأمر وانتهى إليهم الزمام ، بهرقل ومضت معه إلى بلاد الروم[٣] ؟ .

(١) الطبرى ١/٥/٢٣٤٧

(٢) الطبرى ١/٥/٢٣٤٧ فسار القبقلار بمائة ألف مقاتل ، معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفا عليهم جرجى ، ومن المستعربة من غسان وتلك القبائل من قضاعة اثنا عشر ألفا عليهم جبلة بن الأيهم الغسانى وسائرهم من الروم .

(٣) الطبرى ١/٥/٢٣٤٧ ودخل أبو عبيدة تلك السنة دمشق فشتا بها ، فلما أصافت الروم سار هرقل بالروم حتى نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة ، وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير .

٢ — موقف الروم

ولا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدةً عنيفة دون امتدادهذه الموجة المنطلقة . . ومن الطبيعى أن هؤلاء الروم كانوا يدركون مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم، وكانوا يعرفون أن اقتطاعها هو اقتطاع لمصر أيضاً بعد أن يعترض المسلمون فى سورية بينهم و بينها ، وأنها كذلك تهديد لهم . فهم لهذا لم ينزلوا عنها فى يسر و بساطة : جهّزوا كل ما قدروا عليه من جيوش ، وخاضوا كل ما ملكوا أن يخوضوا من معارك، واستنفروا كلّ من كان فى وسعهم أن يستنفروه : العرب وأهل أرمينية والبيزنطيين وسكان المقاطعات الأخرى ، غير أنهم لم يوفّقوا . . وقد يكون من العبث أن نبحث عن سر هذا الفشل فى أسباب نتلمسها تلمساً فى شى كثير من العنت الذهنى فنقول مع الذين يقولون « إن الروم أهملوا تحصين الحدود — وإن هرقل أبطل الجراية التى كان يوزعها فى قبائل الشام العربية المقيمة جنوباً من البحر الميت على الخط الواصل بين غزة والمدينة — وإن نصيباً وافراً من الفوز الذى حازوه يرجع إلى اعتمادهم أساليب حربية تلائم فلوات آسيا الغربية وصحارى إفريقية الشمالية — منها استعمال الخيل والإبل — ولم تكن الروم تحسن استعمالها[1] . . » فلم يكن هنالك هذا الإهمال لأن هؤلاء الروم أنفسهم هم الذين استطاعوا أن يجندوا مائة ألف أو خمسين ألفا على الأقل فى اليرموك بكل ما يحتاج إليه هذا العدد الضخم من عُدد — ومن الصعب أن نصدق قصة إبطال الجراية هذه ، لأنه لو صحت لكان معنى ذلك أن ولاء العرب كان ينتقل من يد الروم إلى يد العرب المسلمين ، ولم نجد فى تتّبع انتشار المسلمين إلاّ أثراً باهتاً لهذا الولاء — وأما الأساليب الحربية التى اعتمدها العرب فلم تكن شيئاً قط غير إيمانهم وشجاعتهم وتحريم تولية الظهر إلاّ تحرّفاً لقتال . . ولو كان من سبيل إلى الحديث عن الأساليب لكان هذا الحديث من نصيب الروم هؤلاء الذين كان تاريخهم سلسلة من الحروب أفادتهم الدُربة والمعرفة بفنون القتال ، وعلّمتهم استعمال

---

(١) فيليب حتى تاريخ العرب ١٩٤/١ — ١٩٥

الإبل والخيل على حد سواء، لأنهم حاربوا الفرس فى هذه الأرض التى حاربهم بها المسلمون ... فلم يكن هناك مجال لهذه التعلات لا بطبيعة الأرض ولا بأدوات الحرب ولا بأساليبها، فذلك كله مما ألف البيزنطيون وعرفوه تجربةً وخبرةً وممارسةً خلال القرون الطويلة التى عاشوها فى هذه البلاد والحروب الوبيلة التى أشجوا بها وشجوا... وإن الإنسان ليدافع بسمة عريضة حين يرى أن التماس العذر للروم واعتبار الفتح حركة قريبة يسيرة، لا يكون إلا على حساب اضطراب الحقائق وجعل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين فى فلوات آسيا وصحارى إفريقية، على حين لم تسكن فى هذه الفلوات والصحارى وإنما كانت فى المدن والوديان وعلى أطراف الأنهار، وفى بلاد سكنها البيزنطيون ستة قرون أو تزيد، وكانت حامياتهم وجنودهم فى كل ناحية منها وطرف فيها.

والحق أن الروم كانوا يهملون هذه النقلة النفسية العميقة التى أصابها العرب فى الدين الجديد، وكانوا على غير وعى واضح بحقيقتها البعيدة، وأنها نظامٌ جديد آمن به العرب فوهبهم حياةً داخلية جديدة تغاير كل ما كانوا عليه، وأنهم دعوا إلى هذا النظام وأرادوا غيرهم على الإيمان به، وخرجوا من أجل هذه الغاية التى كانت تتيح لهم خير الدنيا والآخرة.. ويبدو أن هذه الجهالة كانت هى مصدراً لكثير مما آل إليه الأمر، فقد أعمَت الرومَ عن تقدير قوة العرب وعن تقويم هذه العقيدة التى تكمن وراءها، فلم يستطيعوا أن يضعوا الهجرة فى غير موضع الهجرات السابقة ظنًّا أنها الغارات ثم لا يلبثن أن ينجلين.. ولذلك طاولوا فى القتال ومدّوا من أيامه مؤمّلين أن يكون فى ذلك ما يُملّ العرب ويعود بهم إلى مصدرهم.. ولكن العرب فى هذه المرة لم يكونوا عرباً مُرْتادين، ولكنهم كانوا عرباً مسلمين، ودعاة مهاجرين... ولم يكونوا من هذه القبائل الشمالية التى تنشد النفع ثم ترتد فحسب ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة، لا يردهم عن غايتهم شىء لأنهم ليس لهم إلا إحدى الحسنيين وليس لأعدائهم إلا اختيار واحدة من ثلاث ... ولذلك كان من خطل الرأى وسوء

التقدير ما يرْوُون من أن هرقل قال لأمير حمص بعد موقعة مرج الروم : « بلغنى أن طعامهم لحوم الإبل وشرابهم ألبانها ، وهذا الشتاء ، فلا تقاتلوهم إلاّ فى كل يوم بارد فإنهم لا يبقى إلى الصيف منهم أحد هذا جلّ طعامه وشرابه[١] » . وما يروون أيضاً من « أن أهل حمص كانوا يتواصَوْن بينهم ، و يقولون تمسكوا فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون و يشربون[٢] » .

. . لقد غاب عن فطنة الروم أن نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يُعدّ هؤلاء الناس لهذه الدعوة ، وأن هذا الإعداد هو العدة التى كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين .

٣ — موقف النصارى

ما من شك فى أن الحرب اتخذت شكلا دينياً واضحاً فى هذه المعارك التى دارت فى أرض الشام . . وكان مما لجأ إليه الروم أنهم استثاروا مشاعر الجماعة الدينية واستثمروا فى ذلك رجال الدين . والتفاصيل التى وردت فى بعض روايات المؤرخين تطلعنا على أن قواد الروم كانوا يقدّمون أمامهم الشمامسة والرهبان والقسيسين يغْرون الجند و يحضّونهم على القتال[٣] وأن هؤلاء الشمامسة والقساوسة كانوا جزءاً من الجيش وسلاحاً من أسلحته يقيمون معه إذا قام ، و يرتحلون إذا ارتحل ، و يخندقون إذا خندق ، يثيرون فيه حماسة الدين إذ ينعون له النصرانية[٤] .

و يبدو هذا الطابع الدينى واضحاً كذلك فى صنيع أشراف الروم . فقد كانوا يرَوْن أنهم فى هذه الحروب إنما ينعون النصرانية ، فإذا لم يستطيعوا منعها فلا عليهم من أن يتخطفهم الموت وقد لفّوا رءوسهم لا يحبّون أن يروا يوم السوء[٥] إذا لم

(١) الطبرى ١/٥/٢٣٩٠ - ٩١
(٢) الطبرى ١/٥/٢٣٩١
(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨٩
(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٩١
(٥) الطبرى ١/٤/٢٠٩٩

يستطيعوا أن يرَوْا يوم السرور . . وقد حدث هذا غير مرة : تجلل الفيقار وأشراف من الروم معه فى اليرموك وأصيبوا فى تزمّلهم . ولفّ القبقلار رأسه فى أجنادين فاحتزّه المسلمون و إنه لملتف .

و بلغ من تميز الطابع الدينى أن هرقل رغب فى موادعة العرب ، ولكن جلساءه قالوا له : « قاتل عن دينك ولا تجبّن الناس واقض الذى عليك . . قال وأى شىء أطلب إلّا توقير دينكم[1] » .

لم يكن ذلك إذن موقف رجال الدين وحدهم ، ولكنه كان موقف النصارى جميعاً . . وطبيعى فى مثل هذه المجتمعات أن يكون موقف رجال الدين وموقف عامة الناس واحداً . فلم تكن هنالك هذه التفرقة فى مثل هذا الإحساس

على أن موقف النصارى لم يكن موقفاً جامداً ولم تلازمه هذه الصلابة فى كل مراحل الفتح ، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك و بعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم لهم الاستيلاء على سورية الوسطى وأضحى تقدمهم نحو الجنوب نحو القدس ، ونحو الشمال نحو الجزيرة ، أمراً مضمون النتائج . . بعد هذا أخذت النصرانية سبيلا آخر فى مداراة الإسلام وفى إفساح المجال له ، فارتضى أهل إيلياء الصلح ، وقيل إنهم طلبوا أن يتولّى الخليفة نفسه العقد[2] . . « واستقبل بطريرك أورشليم صفرونيوس الملقب بـ « حامى الكنيسة المعسول اللسان » عُمرَ وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الأماكن المقدسة . .[3] » .

واستقاد أهل الجزيرة فى يسر ولين إلى فتوح عياض بن غَنْم ، وسَرْعان ماصالحوا على الجزية[4] . وكان هرقل استتبَعَ أهل الرُّها فأبَوْا وقالوا : نحن هنا خير منّا هنالك وأبوْا أن يتبعوه وتفرقوا عنه وعن المسلمين[5] . وكاتب أهلُ الجزيرة أبا عبيدة

(١) الطبرى ١/٤/٣/٢١٠٣   (٢) الطبرى ١/٥/٤/٢٤٠٤
(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ١/٢٠٨ عن تيوفانس
(٤) الطبرى ١/٥/٢٥٠٥ وما بعد ذلك   (٥) الطبرى ١/٥/٢٣٩٥

والمسلمين بحمص ، فأمدّوه أول الأمر بثلاثين ألفاً ، فلما بلغهم أن سعداً وجه القعقاع ابن عمرو عوناً لأبى عبيدة فى حمص من العراق ، وأن الخيول خرجت نحو الرقة وحرّان ونصيبين ، تقوّضوا إلى مدائنهم[1] وبادروا المسلمين إليها ، فتحصّنوا ونزل عليهم المسلمون . . وأرسل إليه أهل حمص حين استثارهم بأنّا قد عاهدناهم فنخاف ألّا ننتصر[2] . . وما من شك فى أن الموقع الجغرافى للجزيرة بين العراق والشام — وقد خضعا للمسلمين — يجعل من اليسير تطويقهم وإمداد أحد جيشى الشام والعراق أحدهما بالآخر . . وذلك أحد العوامل الكبرى التى أملت على النصارى هذا الموقف .

على أننا لا نحب أن نُغْفِل هنا الإشارة إلى كثرة ما يردد المؤرخون من أمر الخلاف الدينى بين البيزنطيين و بين نصارى الشام ، وما ينسبون إلى اختلاف الكنيستين ، السورية المونوفيزية التى تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة والكنيسة البيزنطية التى تؤمن بما أقر مجمع خلقدونية « ٤٥١ م » من إقرار طبيعتين للمسيح : الطبيعة الآلهية والطبيعة البشرية — من أثر فى الترحيب بالمسلمين وتسهيل مهمتهم أو الميل إليهم .

ويبدو أن من العسير أن يطمئن الإنسان ، سواء استشهد بما نعرف من روح الجماعات أو بما استقرأنا من حوادث الفتح ، إلى أن الخلاف المذهبى أدّى إلى مثل هذا الترحيب ، وأن العداء استحال إلى أن يفسح المجال لدينٍ جديد أقلُّ مايوصف به أنه لا يرتضى المذهبين معاً ، و إنْ كان يحلّ المسيحَ عليه السلام محلّ الإيمان بنبوّته وكتابه ولكنه يجرّده من ألوهيته بطبيعتها أو بطبيعتيها كلتيهما ، فلا يرى فيه غير مايرى فى محمد بشراً رسولاً . . . وصحيح أن الإسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدراً من الحرية قد لا يجدونه عند البيزنطيين . ولكن هل كان نصارى الشام يعرفون

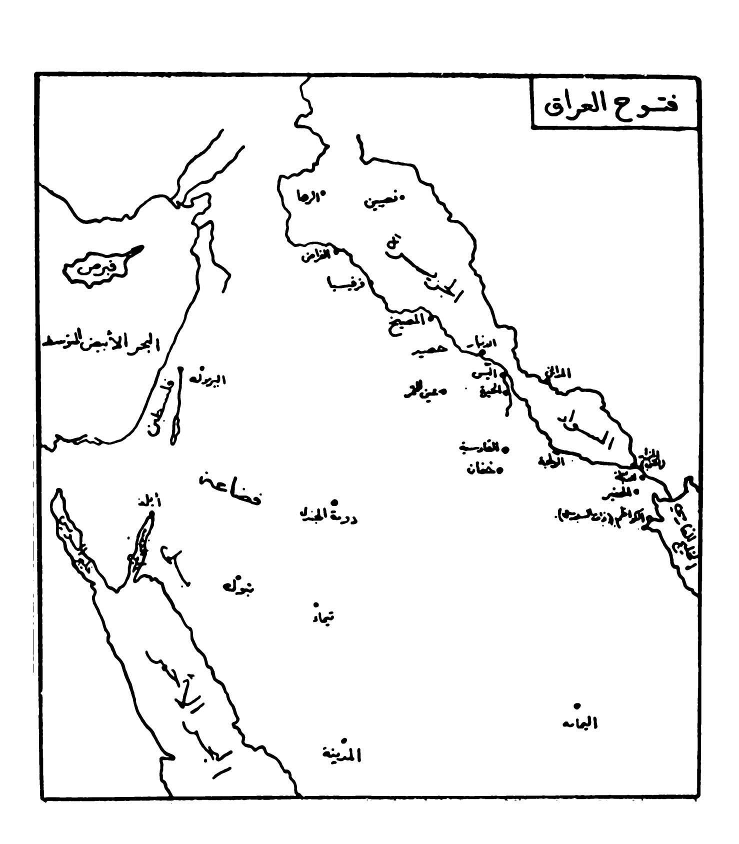
---

(١) الطبرى ١/٥/٢٠٠٢ وفى ٢٠٠٠ رواية أخرى : ولما بلغ أهل الجزيرة بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا ، الجزيرة يريدون أم حمص ، فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم .

(٢) الطبرى ١/٥/٢٠٠١

كيف كان سيسير المسلمون بهم وكيف كانوا سيعاملونهم . . ألا يجب لنا أن لا ننسى التفريق بين النظر إلى الأمور قبل وقوعها و بين النظر إليها بعد أن تقع ؟

لقد دخل الإسلام بلاد الشام فلقى من مقاومة النصارى مثلَ ما لقى من مقاومة العرب . . لم يكن دخوله ترحيباً ولم تنصب له الرايات ولم تستقبله على الحدود الوفود ، وإنما تألبتْ عليه هذه الطبقات جميعاً على اختلافٍ فى البواعث وتباينٍ فى الأغراض . . ولقى مقاومة العرب كما لقى مقاومة الروم وكما لقى مقاومة النصارى ، ولعله أن يكون قد وجد منفذاً لحيويته وصلاحيته من خلال هذا الاختلاف والتباين . . أما الأسباب الكثيرة التى يحاول المؤرخون أن يفترضوها ، سواء ما اتصل منها بالروم أو العرب أو النصارى ، فهى لا تعدو أن تكون ظلالا خفيفة لا تدل على الحقيقة إلاّ بمقدار ما تستر منها . . أما الحقيقة ذاتها فهى تكمن وراء ذلك . . تكمن فى أنه كان فى حركة الإسلام دعوة وكان يتنفس بروح معنوية رفيعة ، على حين لم يكن لدى القوى التى واجهته مجتمعةً مثل هذه الروح : الروم يوقنون أن الأرض لم تكن أرضهم — والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش فإذا جدّ الجد سيلتقون معهم بحبلٍ من قرابتهم لهم — والنصارى بين أن يكونوا عرباً أو روماً وقد ضاعت حماستهم الدينية فى ثنايا هذه الأغراض الملتوية الأخرى . . ولذلك لم يكن عجيباً أن يؤول الأمر إلى مثل ما آل إليه .


فتوح العراق
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
فلسطين
اليرموك
قضاعة
أيلة
دومة الجندل
تبوك
تيماء
المدينة
اليمامة
الرها
نصيبين
الجزيرة
الفراض
المصيخ
حصيد
أليس
الحيرة
عين التمر
المدائن
السواد
القادسية
خفان
الولجة

الفصل الثاني

فتـــــــــوح العراق

القسم الأول

الفتوح

تمهيد :

لم يكن العراق غريباً عن سكان الجزيرة ، ولم تبعد القبائل التى تسكنه فى أنسابها عن قبائل الجزيرة ، وقد كان هو امتداداً لمنازلها ودار هجرة من هجراتها .. كانت تنتقل إليه وتسكنه كما كانت تنتقل إلى الشام وتسكنه ، وكان الفرس هنا كما كان الروم هناك يجدون فى هذه القبائل التى تقارب حياة الحضر وتنشد لوناً من الاستقرار — أداةً من أدواتها التى تكفيها مَنْ وراءها من العرب : تقيم منها هذه الدويلات أو هذه الأمارات ، وتجعل منها مقاطعة من مقاطعاتها أو ولاية من ولاياتها ، ويكون ما بينها وبينها من الجفاء أو الودّ ومن الأمانة أو الكيد ، تبعاً لما يكون من استقامة السيرة وحسن السريرة وتعاقب الملوك أو الأمراء . فلم يستقم الأمر ، فى مرة ، على حال معينة أمداً طويلاً ، وإنما كان هناك أمراء يناصبون الملوك الساسانيين العداء وملوك يبذلون للأمراء الود ، كان بين الأمراء من قُتل فى السجون وكان من الملوك من رُبىَّ فى قصور العرب وباديتهم . . وبلغ من شدة الصلات بين الفرس والعرب أن بهرام جور إنما نشىء فى قصور المناذرة وبوادى العرب ، وتعلم لغتهم ، واعتاد عاداتهم وقال الشعر كما يقولون[1] . . ولم يقتصر ذلك على بهرام وإنما كان طائفة من أبناء البيوتات الفارسية الذين عاشوا مع آبائهم فى عمالات العراق أو اليمن يثقفون العربية ويجيدون فنون القول فيها على نحو ما يجيد ذلك أبناؤها . . ففى حروب العراق سار عبد الله بن جرير البَجَلى إلى مهران يقاتله . . فكان مما قاله

---

(١) الطبرى ١ / ٢ / ٨٠٤

مهران لما لقى جريراً هذا الرجزَ الذى تعود العرب أن يقولوا مثله عند اللقاء :

إنْ تسألوا عنى فإنى مهران   أنا لمن أنكرنى ابنُ باذان

قال — والمتحدث ابن إسحاق — فأنكرت ذلك حتى حدّثنى من لا أتهم من أهل العلم أنه كان عربياً نشأ مع أبيه باليمن إذ كان عاملاً لكسرى[1] . قال فلم أنكر ذلك حين بلغنى .

ومهما يكن من أمر هذه الصلات فى الجاهلية فقد كان العراق كما كان الشام بعض أهداف حركة الفتوح الإسلامية . ولذلك لم يكد خالد يفرغ من حروب الردّة حتى كتب إليه أبو بكر — وهو فى اليمامة — أن يمضى إلى العراق فيدخلها من أسفلها وحتى كتب كذلك إلى عياض بن غَنْم ليشاركه هذه المهمة : أنْ سِرْ حتى تأتى المُصَيَّخ فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها ، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، فإذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمِنْتُما أن يُؤتى المسلمون من خلفهم فلْيكن أحدكم رِدْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، ولْيقتحم الآخر على عدوّ الله وعدوكم من أهل فارس دارَهم ومستقرّ عزهم المدائن[2] .

وسواء أكانت رواية سيف بن عمر أو كانت رواية الواقدى أو كانت رواية ابن الكلبى أو كانت هذه الروايات الأخرى المتناثرة عن اختلاف طريق خالد إلى العراق ، أكان سار من اليمامة أم كان رجع من اليمامة فقدم المدينة ثم سار إلى العراق — وعن إغفال ذكر عياض أو الإشارة إليه — وعن دور الأمراء الأربعة المثنى ومذعور وسُلمى وحرملة[3] والمثنى بوجه خاص . . سواء أكانت هذه الرواية أم تلك ، فقد كان الهدف الأول للجيوش الإسلامية أن تبلغ الحيرة عاصمة عرب الضاحية حتى تنزلها وتنفى الفرسَ عنها وتجعل الطريق بينها و بين الحجاز آمنة لا سلطان فيها لأجنبى . . تفضّ مسالحها وتقرّ أصحابها من العرب أو من الفلاحين ثم تقتحم على الفرس ، وقد أمِنَتْ ظهرها ، معاقلَهم[4] .

(١) الطبرى ١ / ٤ / ٢٢٠١ ـ ٢٢٠٢   (٢) الطبرى ١ / ٤ / ٢٠٢١ ـ ٢٠٢٢
(٣) الطبرى ١ / ٤ / ٢٠٢١ و ٢٠١٨ الأسطر ٧ ـ ١٠   (٤) الطبرى ١ / ٤ /٢٠٥٨

وفى الطريق إلى الحيرة كانت أيام ووقائع يفيض المؤرخون الإسلاميون فى الحديث عنها ، وكانت منازل ومراحل يختلفون فى بعضها ولا يتفقون فيها جميعاً على رأى واحد . . وأغلب الظن أن ذلك لم يكن عن تضارب أو تعارض ، و إنما كان عن تركيز أو إسهاب ، وعن تفصيل أو إجمال ، وعن النظر إلى سير بعض الفرق من الجيش أو النظر إلى سير الجيش كله . . فمن الواضح أن حركة الجيش لا تقتضى أن يسير كلاً واحداً[1] ... لا بدّ فيه من أن يفترق ويلتقى ، ويتفرّع ويتجمّع ، و يسير بعضه من هنا و بعضه من هناك ، ولا بد من هذه الحركات الفرعية والاصطدامات الأولى قبل أن تكون المعركة الفاصلة ، ولا بدّ من تنقية الطريق وتطهير الأرض من مراكز الفرس ومسالحها . ومن الواضح كذلك على ما سنرى بعدُ أن القبائل التى كانت تنتشر فى هذه البقعة من الأرض لم تتخذ موقفاً واحداً . . سالم بعضها وحارب بعضٌ ؛ وأسهم بعضها فى النصر ، فى تحقيقه ، وأسهم بعضها فى تعويقه ، ووقفت بعض المدن والقرى موقف المسايرة ووقف بعضها موقف العداء والمنافرة . . وذلك كله كان يؤدى إلى كثرة من الروايات : تُغْفِل شيئاً وتتحدث عن شىء آخر ، وتُولى أمراً من الأهمية غير ما تولى سواه ، فتبدو وكأنما هى متعارضة أو متناقضة .

ونستطيع أن نلخص حركة فتح العراق فى المراحل الثلاث الآتية :

المرحلة الأولى — العراق العربى

وهى ذات شقين : سير خالد من اليمامة أو من المدينة ليأتى العراق من أسفله وسير عياض من المُصيَّخ ليأتى العراق من أعلاه .

---

(١) فى رواية عن المغيرة بن عتبة قاضى الكوفة أن خالداً فرّق جنده ، مخرجه من اليمامة إلى العراق ، فى ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحد فسرّح المثنى قبله بيومين ، ودليله ظفر — وسرّح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر ، أحدهما قبل صاحبه بيوم — وخرج خالد ودليله رافع فواعدهم جميعاً الحفير ١/٤/٢٠٢٢ — ٢٠٢٣

الشق الأول — خالد قبل الحيرة

١ — ذات السلاسل : كانت المعركة الأولى فى طريق خالد معركة ذات السلاسل فى الكاظمة «أو الكواظم» قرب الحفير ، وكان على رأس الفرس هرمز : « أسوأ أمراء ذلك الفرج جِواراً للعرب ، فكلّ العرب عليه مغيظ ، وقد كانوا ضربوه مثلا فى الخبث حتى قالوا أخبث من هرمز وأكفر من هرمز[1] » .

وسميت ذات السلاسل لأن هرمز وأصحابه اقترنوا بالسلاسل ، ونزل خالد عليهم وقاتلهم فما ارتفع النهار وفى الغائط مُقْتَرِنٌ ، وانهزموا وركب المسلمون أكتافهم[1] .

ولم يلجأ الفرس إلى الاقتران فحسب ، وإنما تذهب بعض الروايات إلى أنهم استخدموا كذلك الفيل — وسيلعب الفيل دوراً هاماً فى المعارك المقبلة — لأن رواية سيف عن محمد أن خالداً بعث بالفتح وما بقى من الأخماس وبالفيل . . ولكن يبدو لمتتبع الفتوح أن الإشارة إلى الفيل هنا إشارة مبكّرة ، لأن المعارك لم تبلغ بعدُ قسوتها ولم يستخدم فيها الفرس كل أساليبهم وعُددهم ، ولأن هزيمة المسلمين فى الأيام التى استخدمت فيها الفيلة بعد ذلك كانت مفاجئة لهم وكانت الفيلة هى عنصر المفاجئة وسبب الهزيمة . . فلو أنهم عرفوها فى ذات السلاسل لكان لهم معها بعد ذلك فى الجسر ، حيث بلى منها أبو عبيد بن مسعود الثقفى القائد ، وفى القادسية — شأنٌ آخر .

٢ — المَذار أو الثِنى[2] : كان أردشير أمدّ هرمز بجيش عليه قارِن بن قريانس فخرج من المدائن ، حتى إذا ما انتهى إلى المذار وبلغته الهزيمة فى ذات السلاسل ، وانتهت إليه الفُلّال وتذامروا ، اجتمعوا على العَوْد فعسكروا بالمذار ، وكتب خالد إلى أبى بكر باجتماعهم إلى الثنى ، المُغِيث والمُغَاث — والعرب تسمى كل نهر الثنى — وخرج خالد سائراً حتى ينزل المذار على قارن فى جموعه ، فالتقوا ، وقُتل

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٢٣ — ٢٠٢٥ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٢٧ — ٢٠٢٩

قارن ، وقُتلت فارس لذلك مقتلة عظيمة ، قيل ثلاثون ألفاً سوى من غرق ، ومنعت المياهُ المسلمين من طلبهم ، ولولا المياهُ لأُتى على آخرهم ، ولم يُفلِت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه العراة .

وأقام خالد لعدوّه بالمذار يتجسّس الأخبار ، وسلّم الأسلاب لمن سلبها بالغةً ما بلغت ، وقسم الفيء ، ونفّل من الأخماس أهل البلاد ، و بعث ببقية الأخماس ، ووفّد وفداً مع سعيد بن النعمان أخى بنى عدى بن كعب ، وأمّرَ على الجند سعيد بن النعمان ، وعلى الجزاء سويد بن مُقَرِّن المزنى وأمره بنزول الحفير ، وأمره ببثّ عماله ووضع يده فى الجباية .

٣ — الوَلَجة[١] : ولما فرغ خالد من الثنى ووقع الخبر إلى أردشير بمصاب قارن وأهلِ المذار ، بعث الأَنْدَرْزَغَرَ — وكان فارسياً من مولدى السواد وتنّائهم ، ولم يكن ممن ولد فى المدائن ولا نشأ بها — وأرسل بَهْمَن جاذَوَيْه فى أثره ، وأمره أن يعبر طريق الانْدَرْزَغَر .

وخرج الأندرزغر سائراً من المدائن حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى الولجة ، وقد حُشِر إليه مَنْ بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جانب عسكره بالولجة .

ونزل خالد ، بعد أن سار من الثنى ، على الأندرزغر وجنوده ومن تأشّب إليه ، فاقتتلوا قتالا شديداً هو أعظم من قتال الثنى ، وتمت الغلبة للمسلمين .

٤ — أُلَيْس الصغرى ، على صلب الفرات[٢] : اجتمع الفرس إلى العرب فى هذه الموقعة ، وذلك أن خالداً كان أصاب فى الولجة أناساً من نصارى بكر بن وائل ، أعانوا أهل فارس ، فيهم ابنٌ لجابر بن بُجَيْر ، وابن لعبد الأسود العجلى ، فغضب لهم نصارى قومهم ، وكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس ،

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٢٩ — ٢٠٣١ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٣١ — ٢٠٣٦

وكتب أردشير إلى بَهْمَن جاذَوَيْه : أن سر حتى تقدم أُلَيس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب .

و بلغ خالد هذا التجمع فَنَهَدَ لهم ، ودارت المعركة فكشفهم الله للمسلمين ومنحهم أكتافهم . و بعث بالفتح مع رجل يدعى جندلاً من عجل — وكان دليلاً صارماً — فقدم على أبى بكر بذلك .

٥ — أمغيشيا[١] : كانت أليس من مسالح أمغيشيا ، وكان منها أكثر الجند فى موقعة أليس . ولذلك نهض خالد فأتاها — وقد أعجلهم عما فيها — وقد جلا أهلها وتفرقوا فى السواد — فغلب عليها .

٦ — يوم الْمَقْر وَفَم فُرات بادَقْلَى[٢] : ولما أَخْرب خالد أمغيشيا أدرك الآزاذَبَه ، وكان مرزبان الحيرة ، أنه غير متروك . فتهيّأ لحرب خالد وعسكر خارجها من الحيرة وأمر ابنه بسدّ الفرات . . فلما استقلّ خالد من أمغيشيا وحمل الرَّجْل فى السفن مع الأثقال والأنفال ، لم يفجأ خالداً إلاّ والسفن جوانح ، فارتاعوا لذلك ، فقال الملاحون إن أهل فارس فجّروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا الماء إلا بسدّ الأنهار ، فعجّل خالد فى خيل نحو ابن الآزاذبه فتلقاه على فم العتيق خيلٌ من خيله ، فجئهم وهم آمنون لغارة خالد فى تلك الساعة ، فأنامهم بالمقر ، ثم سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الآزاذبه حتى يلقاه وجنده على فم فرات بادقلى ، فاقتتلوا فأنامهم ، وفجّر الفرات وسدّ الأنهار ، وسلك الماء سبيله .

٧ — الحيرة[٣] والأنبار[٤] : وقصد خالد بعدُ للحيرة ، وتتامّ أصحابه إليه بالخورنق ، وأهلُ الحيرة متحصّنون ، فأدخل المدينةَ الخيلَ من عسكره ، وأمّر بالقصور بكل قصر رجلا من قواده يحاصر أهله و يقاتلهم ؛ « فكان ضِرار بن الأزور محاصِراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قَبيصة الطائى — وكان ضرار بن الخطاب محاصِراً قصر

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٣٦

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٣٧ — ٣٨

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٣٨ — ٢٠٤٥

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٥٩

العَدَسِيِّين وفيه عَدِىّ بن عدىّ المقتول — وكان ضرار بن مقرّن المُزَنى، عاشر عشرة إخوة له، محاصراً قصر بنى مازن وفيه ابن أكّال — وكان المثنى محاصراً قصر ابن بُقَيْلَة وفيه عمرو بن عبد المسيح — فدعَوْهم جميعاً وأجّلوهم يوماً، فأبى أهل الحيرة وتجلوا، فناوشهم المسلمون، وكان قتالٌ انتهى إلى نزول أهل الحيرة على الجزية، فعاهدهم خالد وكتب لهم.

٨ — ما حول الحيرة(١) : وسقوط الحيرة والأنبار جعل الدهاقين يتتابعون على صلح المسلمين، وكانوا من قبل يتربّصون وينظرون ما يصنع أهل الحيرة، فلما استقام ما بينه وبينهم مَضَوْا يعاهدونه، أتاه دهاقين المِلْطاطين، وأتاه زَاذ بن بُهَيْش دهقان فُرات سِرْيا، وصَلُوبا بن نسطونا بن بَصْبَهْرَى، فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُزْجِرْد. وصالحه غيرهم على مناطق أخرى.. وتمت للمسلمين الغلبة على أحد جانبى السواد، وصار فى وسعهم أن يهددوا شاطىء دجلة، وكتب خالد ينذر ملوك الفرس ومرازبتهم(٢).

الشق الثانى — خالدٌ بعد الحيرة (خالد يَتَنَقّذ عياضاً)

وكان على خالد قبل أن يمضى فى فتح فارس أن ينظر أين انتهى بعياض بن غَنْم سيرَه إذ مضى يأتى العراق من أعلاه.. وكان عياض قد شجى وأشجى بدُومة.. فكان لابد لخالد أن يتنقذه ويعالج عمله، بعد أن استقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السواد(٣)، وبعد أن وزّع العمال والمسالح(٤)..

١ — عين التمر(٥) : كان أول ما فعل خالد حين خرج فى عمل عياض لإغاثته وليقضى ما بينه وبينه أن قصد إلى عين التمر. وفى عين التمر كان جمعٌ من العرب، من النمر وتغلب وإياد ومن لافّهم عليهم عَقّة بن أبى عقة، فى جمع عظيم من العجم

(١) الطبرى ١/٤/ الصفحات بين ٢٠٤٩ — ٢٠٥٢ (٢) الطبرى ٢٠٥٣/٤/١
(٣) الطبرى ٢٠٥٧/٤/١ (٤) الطبرى ٢٠٥٧/٤/١ — ٥٨
(٥) الطبرى ٢٠٦٢/٤/١ — ٢٠٦٤

عليهم مِهران بن بَهْرام جُوبين . وتولى عَقّة قتال خالد ، فأُسر وانهزم صفه ، وهرب بُجَيْرُ بن فلان أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير وكان على ميسرته ، والهذيلُ بن عمران وكان على ميمنته ، وهرب مهران ، واعتصم الهُرّاب بحصن هناك فافتحمه عليهم خالد ، وسباه ، وغنم ما فيه وقتل أسراه ، وقتل عقة قبلهم ليوئسهم من الحياة .

٢ — دُومة الجندل(١) : وخلّف خالدُ عُوَيْمَ بن الكاهل الأسلمى على عين التمر ، وخرج إلى دومة الجندل . ولما بلغ أهل دومة مسيره إليهم ، بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ، فقاتلوه والفرسَ ، فى حديث طويل . . وكانت له الغلبة .

٣ — الحُصَيْد والخنافس والمُصَيَّخ والبشر(٢) : وكاتب عربُ الجزيرة الفرسَ غضباً لعَقّةَ ، فخرج زَرْمِهْر من بغداد ومعه رُوزَبه يريد الأنبار ، واتّعدا حُصَيْدًا والخنافس ، وخرج الهُذَيل بن عمران ، فعسكر بالمصيخ ، ونزل ربيعة بن بجير فى عسكره بالثَّنِىّ و بالبشر .

ولم يترك خالد للفرس أو العرب الفرصة للاجتماع ، و بادرهم المجمة ، فأرسل القعقاعَ إلى حصيد وأمّره على الناس ، و بعث أبا ليلى بن فَدَكِىّ إلى الخنافس ، وتولّى هو أمرَ المذيل ور بيعة .

فأما فى الحُصَيْد : فقد استمدّ روزبه زِرمهرَ فأمده بنفسه ، واستخلف على عسكره المَهْبُوذان والتقوْا جميعاً بحُصَيْد ، فقتل الله العجم مقتلة عظيمة ، وقتل القعقاعُ زِرمهرَ وقُتل روزبه ، قتله عصمةُ بن عبد الله أحد بنى الحارث بن طَرِيف من بنى ضَبّة .

وأما فى الخنافس : فقد سار أبو ليلى بن فَدَكِىّ بمن معه ومن قدم عليه نحو الخنافس ، وقد أرزت فُلاَل الحُصَيْد إلى المَهْبُوذان ، فلما أحس المهبوذان هرب ومن معه وأرزوا إلى المُصَيَّخ ، وبه المُذَيل بن عِمران ، ولم يلق بالخنافس كيداً ، وبعثوا إلى خالد بالخبر جميعاً .

---

(١) الطبرى ٢٠٦٥/٤/١ — ٢٠٦٧ (٢) الطبرى ٢٠٦٧/٤/١ — ٢٠٧٣

وأما فى المُصَيَّخ : فقد كتب خالد إلى القعقاع وأبى ليلى وأعبد وعُروة يواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ .. فأغاروا على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه ، وهم نائمون ، من ثلاثة أوجه . وأفلت الهذيل فى أناس قليل .

وأما فى البِشر والثَّنِيّ : فقد كرّر خالد المفاجأة ، و بيّت القوم بالثنى ثم بالبشر وقتل فى كلّ مقتلة عظيمة ، ثم عطف من البشر إلى الرُّضاب ، و بها هلال بن عَقّة ، فلم يلق كيداً .

وكذلك وُفّق خالد فى سلسلة من المباغتات السريعة أن يحول بين الفرس والعرب و بين الاجتماع فى جبهة واحدة .

٤ — الفِراض(١) : ثم قصد خالد بعد الرُّضاب وبعد بغتته تغلب إلى الفراض ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عليه الروم والفرس والعرب ، على ما سنرى بعد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلا ، ثم إن الله عز وجل هزمهم .

ثم أذن خالد فى القفل إلى الحيرة ، وأظهر هو أنه فى الساقة .. ولكنه مضى إلى الحج فى طريق غير مطروقة مُتَعَسِّفًا البلاد مُتَسَمِّتا مكة(٢) ثم عاد إلى الحيرة ليلقاه كتابُ أبى بكر يأمره بالشام .

وكذلك استقام العراقُ للمسلمين أسفلُه وأعلاه ، أسفل السواد وضفافى الفرات والضفاف الغربية بنوع خاص ، وخضعت الحيرة والأنبار «٦٣٣ م» ، وانصل ما بين الشام والعراق والجزيرة فى الفراض على رضا من القبائل العربية أو كره ، وعلى كره من الفرس لاشك ، وعلى رضا من الفلاحين لاشك فى ذلك أيضا . وسنتولّى تفصيل الأمر حين ننظر فى موقف السكان من الفتح .

وحسبنا أن نشير هنا إلى أن المرحلة الأولى من مراحل تحرير العراق قد تُوِّجت بدخول الحيرة من نحو — وكانت من عمل خالد بن الوليد من نحو آخر — وكانت فى خلافة أبى بكر من نحو ثالث — وكانت آمادها العراق العربى والقبائل العربية الضاربة فيه وفيما حوله ، من نحو أخير .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٧٣ — ٢٠٧٥ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٧٥–٢٠٧٦

بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية :

وفيما بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية التى سنتحدث عنها بعدُ ، كان كتاب أبى بكر إلى خالد أن يستخلف على العراق ، وأن يمضى إلى الشام ينجد المسلمين فيها بعد الذى تجمّع لهم فيها من الروم . فمضى خالد « فى ربيع سنة ٦٣٤ » من العراق إلى الشام مُنْجِداً فى هذه السرعة المعجزة التى تحدثنا عنها الرواة(١) ، واستخلف على العراق المثنّى بن حارثة الشيبانى ، الجندى العامل المغامر ، الذى يدين له فتح العراق بكثير من الجرأة والقوة والاندفاع .

المرحلة الثانية — العراق العجمى
(من الحيرة إلى القادسية)

تمهيد :

وتبدأ المرحلة الثانية مع خلافة عمر . . لن يعود خالد إلى العراق مرة ثانية فقد آثر الخليفة الثانى أن يعفيه من القيادة ، ولن يقصر الخليفة الجديد جهدَه على الشام فقد حققت الجيوش الإسلامية فى الشام ظفراً طيباً مكّن لها منها . . وكان لابدّ لهذه الفتوحات التى بدأت فى العراق أن تستكمل غاياتها وتتابع طريقها . ولذلك وجد عمر أنه مدفوع إلى العراق ملفوتٌ إليه على مثل ماوجد أبو بكر من قبلُ أنه مدفوع إلى الشام ملفوتٌ نحوه . . فبدأ يندب الناس إلى هذا الوجه من وجوه المسلمين إثرَ أن سوّى تراب الخليفة الأول .

لقد بدأت المرحلة الثانية أذن بخليفةٍ جديد هو عمر ، وبإمدادٍ جديد هو إمداد أبى عبيدة الثقفى الذى كان أول من لبى نداء عمر ، وبقيادةٍ جديدة انتهت بعد مقتل أبى عبيد فى الجسر ووفاة المثنى بعد البويب ، إلى سعد : صاحب النبى وبطل القادسية والمؤثل لحركة الفتح فى هذا الجناح من الأرض الذى سيكون بعدُ الجناح الشرقى من الأمبراطورية الإسلامية الواسعة .

ولقد كانت ميادين هذه المرحلة العراق العجمى . فلم يكن خالد حين افتتح

---

(١) اقرأ عن سير خالد إلى الشام ٢٢ — ٢٣ من الفصل الماضى .

جنوب العراق يقصد إلى هذه الأرض التى يملؤها العرب فذلك مطلب يسير — على ما كان من مقاومتهم — فى جانب الآمال الكبرى التى تراوده ، وإنما كان يهدف إلى ما وراء ذلك من أرض الأعاجم . . كان العراق العربى القنطرة التى تحمل جند المسلمين إلى ما وراءه ، ولذلك كان أول ما فعله إذ استقر له أمرُ الحيرة والأنبار أن كتب — فى رواية هشام عن أبى مخنف عن الشعبى — إلى مرازبة أهل فارس هذا الكتاب العنيف يدعوهم إلى الإسلام أو الذمة فى أسلوب قاس ولهجة حازمة تقطر عنفوانا[١] ، ولذلك أيضاً قبل من بعض الأرياف التى مرّ بها فى طريقه حول الحيرة صلحاً هيناً يسيراً ، صالح أهل بانِقيا على ألف درهم[٢] . . ولذلك أيضا صالح أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ففعلوا[٣] . .

المعارك :

وقد تتالت المواقع فى هذه المرحلة من مراحل فتوح العراق وفى وسعنا أن نشير إليها بما يلى :

١ — معركة النمارق[٤] : وقد كانت هذه المعركة عقب وصول أبى عبيد وتولّيه قيادة الجيوش فى العراق . وكأنما أراد منها الفرس أن يُرْهبوا أبا عبيد ، أول من انتدب ، حتى يقهروا فى نفسه إرادة الظفر ورغبة النصر ، فأعدّوا لها القوى الداخلية وعبأوا الجند ، ولقوا فيها المسلمين من خلفهم ومن بين أيديهم ومن أمامهم : كتبوا إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ، ودسّوا فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله ، فبعثوا جابان إلى البِهقُباذ الأسفل ، ونَرْسى إلى كسكر ، وجنداً ليواقعوا المثنى . . وبلغ المثنى ذلك فضم إليه مسالحه وحَذِر . . وخرج الدهاقين وتوالَوْا على الخروج ، وثار أهل الرساتيق وتتابعوا على الثورة ، ونزل أبو عبيد والمثنى بخَفّان ، وتعبّى ، ثم كان اللقاء فى النمارق . . وكان قتالٌ شديد هزم الله فيه أهل فارس وأُسِر جابان القائدُ ومردانشاه ، وكانا على المُجَنِّبَةِ ، وكانا معاً هما اللذين تولّيا أمر الثورة .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٢٠و٢٠٥٣ (٢) الطبرى١/٤/٢٠١٩
(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٢٠ (٤) الطبرى ١/٤/٢١٦٢—٢١٦٨

٢ — السّقاطية بكَسْكر[١] : وحين انهزم الفرس فى النمارق أخذ فالّتهم نحو كسكر يلتجؤون إليها ، وأتبعهم أبو عبيد المجرّدة — وانحاز إلى الفالّة أهلُ كسكر وبارُوسما ونهر جَوْبر والزاب وعاجلهم أبو عبيد ، فالتقَوْا أسفل من كسكر بمكان يدعى السقاطية ، فاقتتلوا فى صحارى مُلْسٍ قتالا شديدا وتم النصر للمسلمين . ولم يمهل أبو عبيد أعداءه وإنما سرّح المثنى إلى باروسما ، وبعث والقاً إلى الزوابى ، وعاصماً إلى نهر جَوْبَر ، فهزموا من كان تجمّع ، وأخربوا وسَبَوْا . .

٣ — وقعة باقسياثا[٢] : وقد استمدّ الجيشُ الفارسى بعد هذه الهزائم بورانَ ، وكانت على العرش ، فأمدته بالجالنوس . ونزل جالنوس هذا باقسياثا فنهَدَ له أبوعبيد فى المسلمين ، وهو على تعبيته ، فالتقوا وهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس ، وأقام أبو عبيد وقد غلب على تلك البلاد .

٤ — وقعة الجسر[٣] «ويقال لها وقعة القرقس أو القُسّ قُسّ الناطف أو المَرْوَحة» .

ولم تستتم المعارك للمسلمين فى نسق واحد ، فالنصر الذى حققوه فى المواقع السابقة قابلته هزيمة يوم الجسر هذه ، وهزائم الفرس دعتهم إلى أن يشدوا ويُكْثِروا من جموعهم : فاستعمل رستم على حرب أبى عبيد بَهْمَنَ جاذَوَيْه وهو ذو الحاجب ، وردّ معه الجالنوس ومعه الفيلة فيها فيل أبيض عليه النخل ، واستكثر من الجند وحفل بهذه المعركة وسار ومعه راية كسرى « دِرَفش كابيان » يلقى أبا عبيد فى زُهاء وعُدّة لم يلق المسلمين بها أحدٌ من قبل ، حتى وقف على شاطىء الفرات بقس الناطف ، وأبو عبيد معسكر على شاطىء الفرات بالمَرْوحة ، موضع البرج والعاقول . . فبعث إليه بَهْمَن يخيّره بين أن يعبر أحدهما أو الآخر ، ولم يكن الرأى العبور ، ونهى المسلمون أبا عبيد وأشاروا إليه أن يدعوهم إلى العبور ، ولجوّا فى ذلك ولجّ ، وكان أشد الناس عليه سَلِيط بن قيس . ولكن أبا عبيد ،

---

(١) الطبرى ١/٤/٢١٦٨ - ٢١٧٠ (٢) الطبرى ١/٤/٢١٧٢

(٣) الطبرى ١/٤/٢١٧٤ — ٢١٨٢

هذا القائد الذى لا يريد أن يعرف غير النصر ، ترك الرأى وقال : لا يكونوا أجرأ على الموت منّا بل نعبر إليهم. فعبروا إليهم ، واقتتلوا .. وأسرعت السيوف فى أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف فى المعركة . . وإلى هنا لم يبق أو لم ينتظر — على حد تعبير الطبرى — إلا الهزيمة رغم ما لقى المسلمون من شدة الفيلة وهيبة الخيل لها ، لولا أنّ خبطة الفيل لأبى عبيد تركت أثرها ، فالقائد فى مثل هذه الجيوش دائمًا سحره وأثره وقد كان جرحه أو أصابته أو قتله تعنى تدهور الجيش أو تفككه أو انسحابه . وكذلك كان الأمر هنا ، فقد ركب أهلُ فارس المسلمين وبادر رجلٌ من ثقيف هو عبد الله بن مَرْثَد الثقفِى فى شىء من الحماس لا يعى النتائج ، فقطع الجسر ، فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم ، فتهافتوا فى الفرات ، وأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل ، وحمى الناسَ المثنى وعاصمٌ والكَلَجُ الضبى ومذعور ، حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا فى آثارهم ، فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح والكلج ومذعور وعاصم ، وكانوا حماة الناس مع المثنى .

ولقد كان من قسوة معركة الجسر هذه أن هرب من الناس بشر كثير على وجوههم ، وافتضحوا فى أنفسهم واستَحْيَوْا مما نزل بهم ، ولحق بعضهم بالمدينة ، وتركها بعضهم ونزلوا البوادى ، وبقى المثنى فى قلة . وعند النهدىّ أنه بلغ عدد الهلكى يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقى ثلاثة ، وقد جُرح المثنى وأثبت فيه حَلَقَ من درعه عتكهنّ الرمح ، وقُتل سَلِيط بن قيس عند الجسر .

وعلى أن النصر كان حليف فارس إلا أنهم لم يستطيعوا استثماره ولم يتمكّنوا من أن يتعقبوا المسلمين إما عن عجز أو عن تجاوب مع ما كان فى المدائن من ثورات داخلية ، فقد روَوْا أنه بينا أهل فارس يحاولون العبور أتاهم الخبر أن الناس بالمدائن ثاروا برستم .. وصاروا فرقتين ، فرجع ذو الحاجب بجنده .

٥ — البويب[1] : ثَقُلَ على عمر أمر هذه الهزيمة ، وما لقى الجند من هول ، وثقل على المسلمين الفارّين أمرُ فرارهم ، فليس يجيز الإسلام للجندى هذا الفرار إلا أن يكون متحيزاً إلى فئة[2] أو متحرّفاً لقتال ، فلحق بعضهم بالمدينة مستخفياً ، ونزل بعضهم البادية مستحيياً ، ورأى عمر جزعَ المسلمين ، من المهاجرين والأنصار ، من الفرار فوقف موقف القائد المحنك الذى لا يصرفه هول المصيبة عن حسن التفكير والتقدير ، ولا يفتت فيه جزعُه تماسُكَهُ ، واعتبر فرار الفارين تحيّزاً إليه على أنه هو القائد الأعلى لهذه الجيوش وعلى أن المسلمين فى المدينة هم الفئة التى تمد هذه الجيوش وترعى شؤونها وتشرف على حركاتها ، وهى مصدرها ومبعثها ونقطة انطلاقها ، فالجوء إلى المدينة أو إلى عمر ليس إذن فراراً من المعركة ولكنه وثبةٌ لمعركة أخرى أو تحرّفاً لقتال آخر . . وفى ذلك قال عمر : « لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم إنما انحزتم إلىّ » .

وكان لابد للمسلمين إذن من أن يثأروا للجسر ، وكان لابد لهم من أن يكفّروا عن سيئاتهم فى الفرار ، وكان على عمر أن ينقذ المسلمين من أثر هذه الصدمة ، وأن يطبّ لجزعهم ، وكان هذا الوجه من قبل أشدّ الوجوه عليهم وأكرهه لهم[3] وزاده يوم الجسر جهامة وقسوة ، ولذلك كان يلقى فى إمداد المثنى قسوة وحرجاً : وحين حاول أن يبعث بجيلة بعد أن استخرجها من الناس — حين جاءه فى ذلك جرير بن عبد الله — اضطر إلى إكراهه على السير إلى العراق ، فقد أراد جريرُ الشام ، وأبى عمر ، لأن أهل الشام قد قوُوا على عدوهم ، وأكرهه ثم عوضه لإكراهه إياه

(١) كان البويب مغيضاً للفرات أيام المدود ، أزمان فارس ، يصب فى الجوف . الطبرى ١/٤/٢١٨٧ ، ١/٤/٢١٩٩

(٢) « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » الأنفال ١٦

(٣) ندب عمر الناس أول خلافته ثلاثة أيام فلم ينتدب أحد إلى فارس لأنه كان من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم . الطبري ١/٤/٢١٥٩

واستصلاحاً له ، ربع خمس ما أفاء الله عليهم فى غزاتهم هذه ، له ولمن اجتمع إليه ولمن أخرج إليه من القبائل(١) .

ولم يكن امداد المثنى ببجيلة وحدها ، و إنما بعث عمر كذلك عصمةَ بن عبد الله من بنى عبد بن الحارث الضبى فيمن تبعه من بنى ضبّة(٢) .

وكانت فرصة طيبة أمام عمر يعالج فيها أمر أهل الردة ... كان أبو بكر من قبل كره أن يستخدمهم فى الحروب وأوصى أن لا يستعان بمرتد(٣) ولم تنفع عنده شفاعة من استشفع من مثل المثنى(٤) . فلما كانت الجسر وحاجة جند العراق إلى الأمداد ، اهتبل عمر هذه المناسبة يفيد منها من العزم الذى لم ينطاق ومن الحماس الذى لم يُستثمر ومن الحرمان الذى مكّن للرغبة فى الفتوحات والتكفير بها عن ماضى السيئات ، فكتب إلى أهل الردة « فلم يواف شعبانَ أحدٌ إلا رمى به المثنى(٥) » .

ثم والى عمر بعد ذلك إمداد المسلمين بمن كان ينتدبهم و بمن كان يجتمع إليه(٦) وتوافى إلى المثنى جمع عظيم ، واجتمع عسكر المسلمين على البويب مما يلى موضع الكوفة اليوم وعليهم المثنى ، و بإزائهم الفرس عليهم مهران ، والمشركون بموضع دار الرزق « أشوميا ٢١٩٠ » ، والمسلمون بموضع السّكون « ٢١٨٧ » ، والفرات بينهما « ٢١٩٠ » .

ومضى المثنى يقود المعركة فى شجاعة ودربة ، وأولى أمر النظام عناية خاصة ، «٢١٨٥و٩١» لكأنه بذلك يريد أن يعوض ما كان يوم الجسر من غلبة الحماس على الطاعة . وخاض القتال وحقّق النصر وقُتل مهران وقُتل معه من الفرس ناس كثير ... ما كانت بين العرب والعجم وقعة أبقى رِمّةً منها « ٢١٩٤ » حتى ليحدّث شعيب عن

(١) الطبرى ١/٤/٢١٨٣ . واقرأ عن استخراج بجيلة من الناس طائفة من التفاصيل فى ٢١٨٦ ومواطن أخرى متفرقات . (٢) اقرأ تصنيف الأمداد ومصادرها القبلية فى كتابنا « المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول» ٩٢ — ٩٣ (٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨١

(٤) ١/٤/٢١٢٠ خرج المثنى نحو أبى بكر ليخبره خبر المسلمين والمشركين وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته ، وندب من أهل الرده من يستطعمه الغزو ، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم .

(٥) الطبرى ١/٤/٢١٨٣

(٦) انظر الطبرى ١/٤/٢١٨٨ — ٩٢ — ٩٣ والفقرات الخاصة بذلك فيما يلي من صفحات

سيف : والله ان كنا لنأتى البويب فنرى فيما بين موضع السَّكون و بنى سَلِيم عظاماً بيضاً تلولاً تلوح من هامهم وأوصالهم يُعتَبر بها « ٢١٩٣ » ، وأنهم كانوا يحزرونها مائة ألف « ٢١٩٣ و ٢١٩٩ » .

واطمأن المسلمون إلى هذا النصر ، ووجدوا فيه تعويضاً عن يوم الجسر وتسلَّوْا به عن مصيبتهم السابقة « ٩٤ » ، وثأروا فيه لقتلاهم حتى لقد سُمِّى البويب يومَ الأعشار ، أُحصِى فيه مائةُ رجل ، قتل كل رجل منهم عشرة فى المعركة يومئذ ، عدا من قتل التسعه أو مادون التسعة « ٢١٩٦ » .

ولم يقعد إغراء النصر بالمثنى عن غايته . . فقد ندب الناس اثر المعركة وراء الجيش المنهزم وسألهم أن يتبعوهم إلى السِيب « ٩٧ » واستجابت له فى ذلك بجيلة وناس كانوا فى يوم المعركة أرادوا أن يخرجوا إلى العدو من صف المسلمين ؛ يريدون أن يستقلوا تكفيراً عن سيئاتهم يوم فروا من الجسر ، فنهرهم وقرعهم بالرمح وألزمهم موقفهم « ٢١٨٥ » .

وأمر المثنى أن يعقد لهم الجسر « ٢١٩٨ » ثم أخرجهم فى آثار القوم وأتبعتهم بَجيلةُ ، وخيولٌ من المسلمين تِغذُّ من كل فارس ، فانطلقوا فى طلبهم حتى بلغوا السيب ولم يبق فى العسكر جسرىّ إلا خرج فى الخيل ، فأصابوا غنما كثيراً . . وأغاروا حتى بلغوا ساباط « ٩٩ » ثم انكفأوا راجعين إلى المثنى .

وتبدو قيمة البويب ، لا فى استصلاح الأثر النفسى الذى كان بعد هزيمة الجسر ، بل فى أن المسلمين أضحوا قادرين على السواد كله . . كانوا يحاربون من قبل لا يجتازون الفرات ، ثم حاربوا فيما بين الفرات ودجلة ، أما بعد البويب فقد استمكنوا من كل هذه المنطقة التى تمتد بين الفرات ودجلة « فمخروها لا يخافون كيداً ولا يلقَوْن فيها مانعاً[1] » .

٦ — الخنافس والكَباث وغارات أخرى[2] : وقد استقام الأمر للمسلمين بعد

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٩٩ وانظر كل أخبار البويب فى الصفحات بين ٢١٨٤ ـ ٢١٩٩
(٢) الطبرى ١/٤/٢٢٠٢ ـ ٢٢٠٧

البويب ، واستقاد لهم السوادُ ، وأخذ المثنى يمخره هنا وهناك : وزّع القواد وأذكى المسالح وأغار على تجمعات الفرس والعرب .

وكان من هذه الغارات غارته على الخنافس ، وهو سوق يتوافى إليها الناس ، ويجتمع بها ربيعة ومضر يخفرونهم ، فأغار عليها وانتسف السوق وما فيها وسلب الخفراء ثم رجع عوده على بدئه ، يريد أن يطرق دهاقين الأنبار ، واستعان بهؤلاء الدهاقين ليُغير على المدائن فأغار وسلم .

ومن هذه الغارات غارته على الكَباث . ويتميز الكباث أن أهله كلهم من بنى تغلب ، فأخلَوْه وارفضّوا عنه ، وتبعهم المسلمون يركبون آثارهم ، وأدركوا أخريَاتهم ، وقتلوا وأكثروا .

ومنها غارة على أحياء من تغلب والنمر بصفين .

وقد كان المثنى هو سيد هذه الغارات كلها بعد البويب ، وكان على مقدمته حُذَيْفة بن مِحْصن الغَلَفانىّ وعلى مُجَنَبَتَيْه النعمان بن عوف بن النعمان ومَطَر الشَيْبانيان « ٢٢٠٧ » .

ولا يطول أمر هذه الغارات فقد أدرك الفرس أىّ نذر مبينة تهدد دولتهم الواسعة فبدأوا يعدون للمعركة الجديدة : معركة القادسية ، إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ .

٧ — القادسية[١] : حين وفق المسلمون فى هذه المعارك المتسلسلة التى أشرنا إليها واستطاعوا أن يغلبوا على السواد ، وانطلقت أيديهم فيه ينالون منه حيث شاءوا وجاوزوا المناطق التى كانوا يرتادونها فى الجاهلية فى أطراف العراق وفى جنوبيه ، إلى صميم الامبراطورية الفارسية ، وعبروا الفرات ومخروا السواد ، وحاذوا دجلة ، وجازوها فى بعض الغارات المتفرقة . . حينذاك وجد الساسانيون أنهم والخطر سواء . . لم يعُدْ الأمر أمر غارات قصيرة قريبة ولا أفواج عربية صغيرة تغنى

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٢٠٨ وما بعد ذلك .

أو تستقر ، وإنما هى أمواج تنذر وتغير ، وتدعو وتفتح . . ولم تعد هذه الجماعات التى عهدوها تمتار فى أيام الجدب وتتّجر فى أيّام التجارة ، وتحاول أن تحمل إلى القبائل وراءها العروض ، وإنما هى جماعات من نوع جديد تدعو إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب فإذا حاربت لم تعرف الفرار ولم تستهدف غير النصر أو الشهادة . . ولهذا ثار الفرس برؤسائهم : غلى فيهم حماسهم ووجدوا فى خلافاتهم الداخلية منفذاً ينفذ منه المسلمون ، وأحسوا أنهم يطرقون أبواب مدنهم فى عنف وشدة ، وأن هذه الأبواب لن تلبث أن تنفتح لهم على مثل ما انفتحت لهم فى المعارك السابقة « فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن[1] » على ما رَوَوْا أن أهل فارس قالوا لرؤسائهم

ومن هنا هاج أمر القادسية ، ووجد يزدجرد أن الحكم يلقى على كتفيه هذا العبء الثقيل : إنقاذ البلاد من هذا الهجوم الثقيل الذى يمتد ويستطيل . . فبدأ لذلك حركة عامة جنّد فيها الكفاءات وحشر كل القوى وأرادها مع المسلمين معركة فاصلة قاصمة .

ولم يكن استعداد الفرس لهذه المعركة فى هذه المناطق الفارسية فحسب ، وإنما تعدّاها إلى المناطق التى سيطر عليها المسلمون ، فسمّى يزدجرد الجنود لكل مسلحة كانت للفرس أو موضع ثغر « ٢٢١٠ » ، فسمى جند الحيرة والأنبار والمسالح والأُبُلّة وثار سكان هذه المناطق ، وهم ذمة المسلمين ، بالمسلمين ، وكفر أهل السواد ، من كان له منهم عهد ومن لم يكن له عهد .

ورافقت هذه الإثارات الداخلية الزحوف من المدائن ، فوجد المسلمون أن الأرض التى لم يُمَكّن لأقدامهم منها تكاد تميد بهم ، وأن كل شىء يثور من حولهم : الجند والسكان والمعاهَدين وغير المعاهدين ، وأدركوا أن زحفاً هائلاً مرعباً يتقدم نحوهم وأن معركة كبيرة تنتظرهم . فكتبوا إلى عمر وتنزّل الناس بالطف فى عسكر واحد « ٢٢١٠ » وانسحبوا متخلّين عن أكثر المناطق التى احتلوها . . حتى جاءهم كتاب عمر .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٢٠٩

موقف الفرس إذن هو هذا :

ا — استقرارٌ داخليّ تمثل فى تنصيب يزدجرد واجتماعهم عليه ، واطمأنت فارس واستوسقوا وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته « ٢٢١٠ » .

ب — تجنيدٌ عام شمل كل ما استطاع الفرس أن يجندوه ، وتوزيعُ الفرق فى كل أنحاء الأرض التى احتلها العرب .

حـ — وأخيراً إثارة السكان وتأليبهم على المسلمين ، حتى خفروا عهدهم وكفروا بذمتهم وثاروا بهم . . .

فماذا يكون موقف المسلمين ؟ .

سيكون موقف المسلمين فى هذه اللحظات الحرجة هو هذا الموقف الذى تعاون على صياغته كتاب عمر من نحو « ٢٢١٠ و ٢٢٢٧ — ٢٨ » ووصاة المثنى من نحو آخر « ٢٢٢٦ — ٢٧ » فقد رووْا أن المثنى أوصى سعداً فى خطة قتال وصاةً لاتخرج عن كتاب عمر فى كثير ، بل تشترك معه فى الفكرة واللفظ والنصيحة والخطة . . ويتلخص هذا الموقف فيما يلى :

ا — الانسحاب : خروج المثنى والقواد الآخرون على حامياتهم من الأرض التى احتلّوها من بين ظهرى الأعاجم .

ب — التراجع : والتفرق فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود الأرض العربية والأرض الفارسية . . وقد نزل المثنى فى ذى قار ، ونزل الناس الطفّ ، فكانوا فى أمواه العراق من أولها إلى آخرها مسالحَ بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن كان كون « ٢٢١١ » .

حـ — مقابلة التجنيد العام بالتجنيد العام : فالمثنى يستنفر الناس من حوله فى أمر عمر له : ولا تدَعوا فى ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أجلبتموه ، فإن جاء طائعاً وإلاّ حشرتموه ، احملوا العرب على الجِدّ إذا جَدّ العجم فلْتلْقوْا جِدّهم بجِدّكم . . وعمر يكتب إلى عمال العرب على الكور

والقبائل : لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ . والعجل العجل « ٢٢١٠ — ٢٢١١ » .

نحن إذن أمام هذه القوى الضخمة التى تتجمع لتصطرع : القوى الساسانية تنتفض انتفاضة الحياة التى تأبى أن تموت ، والقوى العربية تدافع عن كيانها الناشىء ودعوتها الممتدة ، وهؤلاء وأولئك لا يدعون سبيلا إلاّ سلكوه ولا عُدّة إلا اعتدّوا بها ولا جنداً إلا حشدوه .

وفى هذا الحماس المتدفق هنا وهناك كانت معركة القادسية . . ولسنا نحاول أن نتحدث هنا عن جيوش المسلمين ، كيف تجمعت وكيف انتظمت فى الفرق والأعشار وكيف وزعت جندها وحمت ظهورها ، ولا عن قسوة المعارك كيف التهمت الشهداء وملأت وجه الأرض منهم ، ولا عن هذه الأيام التى مضت بين ابتداء المعركة وانتصار المسلمين ، يوم أرماث ويوم أغواث وليلة الهرير . . فقد أوسع المؤرخون هذا كله حديثاً عنه وتتبعاً لأطرافه . ورسم له الطبرى فى الصفحات التى أفردها به صوراً ملونة زاهية منذ بدأ الجيشان يلتقيان على الدعاء والمفاوضة حتى خرس المنطق وتفتحت الأغماد عن السيوف . . وإنك لتقرأ هذه التفاصيل التى ساقها المؤرخون فتدرك شدة اهتمام المسلمين بهذه المعركة وتقديرهم لمداها البعيد وأثرها فى الجماعة العربية والجماعة الفارسية على السواء . . قالوا : « وكانت العرب تَوَقَّعُ وقعة العرب وأهلِ فارس فى القادسية فيما بين العُذَيب إلى عَدَن أَبيَنَ وفيما بين الأُبُلّةِ وأَيْلَة ، يَرَوْن أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وكانت فى كل بلد مُصيخَةً إليها تنتظر ماذا يكون من أمرها حتى أن كان الرجل ليريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية[1] » .

وقد نُقلت لنا الأحاديث التى دارت بين رستم ويزدجرد وبين الوفود التى حدثته عن الإسلام ، ورسمت له الدعوة آفاقَ الروح المسلمة وتراءى هذه الآفاق فى عالم ندىّ مخضلّ تُظِلّه المساواة وتحكمه العدالة وتسود فيه عبادة الله . . ولقد تحدث النعمان

(١) الطبرى ١/٥/٢٣٦٤

بن مُقَرِّن والمغيرة بن شعبة وأضرابهما أحاديث شيقةً بارعة تملؤها الفطرة الصحيحة والنظرة المستقيمة . . ويبدو أن الفرس لم يستطيعوا أن يدركوا ما كان من جديد فى حياة العرب . . كانوا دائما يقيسون الحاضر على الماضى ويذكرون العرب أيامهم الجدبةَ وما لقُوا من رعاية الفرس وعونهم ويغرونهم بالكسب والمال والهدايا . . وما دروا أن الأمر اليوم غيره بالأمس ، وعبثاً حاول أن يدلهم رؤساء الوفود ومحدثوها على ذلك أو يلفتوهم اليه . . وقد انتهت القادسية بانتصار المسلمين هذا الانتصار الرائع الذى كسر كلّ السدود من أمامهم فاندفعوا لا يقفون عند حد . . استعادوا كل ما كانوا جَلَوْا عنه ، ومضوا وراءه .. ربما كانوا يخشون بعض مقاومة الفرس ومغالبتهم أما بعد أن وُفّقوا هذا التوفيق العريض البعيد فقد كان عليهم أن ينساقوا ، فى قوة وإدراك ، وراء هذه الإمبراطورية المولّية ، أن يحققوا دعوة الرسول وانتشار الإسلام ووراثة الأرض .

المرحلة الثانية — من القادسية إلى المدائن

فاذا عَدَوْنا القادسية فى تتبع حركة الفتح وجدنا أننا فى المرحلة الثالثة من مراحل هذه الحركة . . كانت المرحلة الأولى تمكيناً للمسلمين من العراق العربى وكانت المرحلة الثانية فى عهد عمر حين عناه العراق وسيّر له الامداد وولّى أمره أبا عبيد والمثنى ، ثم مات أبو عبيد واضطلع المثنى بالأمر كله حتى كانت ردة الفرس وثورة أهل السواد وموت المثنى .

أما القادسية فكانت هذه المعركة الفاصلة التى توّجت المرحلة الثانية ، تولاها قائد جديد هو سعد ، وردّت إلى المسلمين الأرض التى كانوا أصابوها ، واندفعت بهم فى قوة وجرأة ، ومكّنت عندهم الشعور بالظفر فوق أنه مكين ، ونقلت اليهم ما كان فى عسكر فارس من سلاح وكراع ومال . . فكأنما وضعت فى أيديهم كل ما كان ينقصهم من عُدّة وانتزعته من أيدى أعدائهم .

ولا تمتاز المرحلة الثالثة بشىء إلا هذا الانهيار الذى سارت فيه الإمبراطورية الساسانية ، وليس فى هذه الحركة هنا ما يلفتنا من وجه من وجوه الدراسة : جيوش

تتقدم وجيوش ترتد ، قوى تظفر وقوى تخسر [١] ، ومعاقل تنهار ومساجد المسلمين تقام [٢] . . وأيام ومواقع تبدأ بعد القادسية فبابل ، فَبُهَرَسير ، فالمدائن ، فجلولاء ، فتكريت ، فالحصنين ، فماسبذان ، فقرقيسيا ، فتُستر ، فالسوس ، فَجُنْدَيْسابور ، فنهاوند ، التى كانت كما يلقبها المؤرخون المسلمون ، فتح الفتوح .

لقد استسلمت المدائن عاصمة الامبراطورية الساسانية والتجأ الأمبراطور من مقاطعة إلى أخرى . . كان رؤساء المقاطعات يتولّون التقاء المسلمين ومدافعتهم ، وكانوا يتولون صلحهم وحربهم ، وانتهى الأمر بيزدجرد إلى أن قُتل فى مرو ذات يوم من أيام . . ومع مقتله كانت المقاومة الرسمية للحركة الإسلامية تخبو وتخفت ، لتفسح المجال لمقاومات عنيدة فى المقاطعات والأطراف .

القسم الثانى

موقف العراق من حركة الفتح

كيف كان موقف العراق من حركة التحرير هذه التى قادها خالد والمثنى وأبو عبيد وسعد . . وماذا كان ميول حكامه وأهليه وعربه وفلاّحيه . . هل استجابت بعض الطبقات للفاتحين أم أصمت آذانها عنهم . . هل هناك من تلقى الفتح مُرَحِّباً به هاشّا له أم كان السكان سواء فى مناهضته ومقاومته والتأليب عليه . . كيف كان موقف عرب الضاحية من اخوانهم عرب البادية ، وكيف كان موقف الفلاحين الذين يملكون الأرض ويعملون فيها ، وماذا كان موقف الفرس الحاكمين . . أكان ذلك كله سواء ؟ وهل تميز موقف العرب بالمساعدة والعون . . أمهّدوا للمسلمين المقبلين الطريقَ يسلكونه ودلّوهم على الثغرات التى ينفذون منها أم انخرطوا مع الفرس يحاربونهم ويقومون دونهم . . أكان للفلاحين من ذلك موقف خاص ، ومن هم أولئك الذين قادوا هذه المقاومة العسيرة التى لقيها المسلمون وأججّوا نارها ؟ . .

سنحاول فيما يلى أن نجيب عن ذلك كله وسندرس موقف الطبقات الثلاث من

---

(١) اقرأ الطبرى ١/٥/٢٤٢٢ وما حول ذلك

(٢) اقرأ الطبرى ١/٥/ عن مسجد أقامه المسلمون فى المدائن .

حركة الفتح : موقف العرب من نحو ، وموقف الفلاحين «السكان الوطنيين» من نحو آخر ، وموقف الفرس من نحو ثالث . . فلعل ذلك أن يكشف لنا الغطاء عن سير حركة الفتح وعن استقرار المسلمين فى هذه القطعة من الأرض ، ولعل ذلك أن يفسر لنا ماذا كان بعدُ من أحداث . . وسنرى حين تستبين لنا هذه المواقف ما كان بين فتح الشام وفتح العراق من فروق والتقاء .

١ — موقف العرب

لقد تعود المؤرخون المُحْدَثون حين يتحدّثون عن فتح العراق ، كما تعودوا ذلك فى الحديث عن فتح الشام ، أن يسندوا إلى العرب المقيمين فى الأطراف والمدن دورَ الشريك المسعف الذى لا يفتأ يؤدّى لشريكه العون ويمد له اليد ، ويقيه بعض شر الحروب التى يقبل عليها والأعداء الذين يواجههم ، ولا يكاد يبعد مؤرخ من المؤرخين الشرقيين أو المستشرقين عن هذا الرأى أو يجانبه . . حتى خيل إلينا أن عرب الأطراف كانوا دائماً التُّكأة التى اعتمد عليها المسلمون ، وأن للمساعدات القيمة التى قاموا بها يعود فضل هذه الفتوح المعجزة .

ولقد وقفنا فى الحديث عن تحرير الشام وقفةً طويلة عند موقف العرب من حركة الفتوح ، وأبنّا كيف أن كثيراً من المؤرخين لم يلمحوا كل جوانب الموضوع ، ولم يستقرئوا كل حوادث الفتح حين أسندوا إلى العرب الشاميين نصرةَ العرب الفاتحين المنطلقين من جزيرتهم بدينهم ودعوتهم وقرآنهم . . ويبدو أننا هنا ، فى الحديث عن العراق ، مضطرون أن نقف كذلك مثل هذه الوقفة ، فنعرض لموقف عرب العراق من حركة خالد والمثنى ، وما كان عليه هذا الموقف . . أكان موقف ترحيب أم مقاومة ، ولِمَ كان الترحيب أو كانت المقاومة . . أكانوا يولون وجههم الجزيرةَ حقاً ، أم كانوا يولون وجههم شطر فارس . وهل حنت الدماء إلى الدماء ، أم ساطتها العداوة وغلبت عليها البغضاء ؟ . إن ذلك يقتضينا أن نسلسل حوادث

المرحلة الأولى — أعنى العراق العرابى — فى نطاقها التاريخى الذى مضت فيه حتى نكون على بينة :

من الواضح أن خطة أبى بكر حين دفع المسلمين إلى العراق تلخصها رسالتُه إلى خالد : أن عارق حتى تلقى عياضاً ، ورسالتُه إلى عياض بن غَنْم وهو بين النباج والحجاز : أن سِرْ حتى تأتى المصَيَّخ ، فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها وعارق حتى تلقى خالداً[1] . . أعنى أن يدخل خالد العراق من أسفله ، ويأتيه عياض من أعلاه ، ثم يلتقيان فى الحيرة . فلنتتبع طريق خالد وما لقى ، وطريق عياض وما لقى ، ولنحاول أن نرى كيف كان لقاء العرب لهما فى هذه الطرق إلى الحيرة .

١ — موقف العرب فى طريق خالد إلى الحيرة :

تلخص الروايات المطولة قَصْدَ خالد إلى الحيرة فى المواقع التالية :

١ — الحفير ، أو ذات السلاسل : وليس فى الروايات عنها ذكر للقبائل العربية .

٢ — المذار ، أو الثنى : وليس فى أخبارها ذكر للعرب .

٣ — الوَلَجة : أرسل أردشير بعد الهزيمتين السابقتين الأَنْدَرْزَغَر ، وحُشِرَ إليه مَنْ بَيْن الحيرة وكسكر — وكسكر مما يلى الولجة من البر — من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة ، وسار إليهم خالد فاقتتلوا شديداً ، وكانت له الغلبة ، وأصاب فى أناس من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بُجير ، وابناً لعبد الأسود[2] .

٤ — أُلَيْس : لما أصاب خالد يوم الولجة مَن أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أُلَيْس وعليهم عبد الأسود العِجْلى ، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بنى عجل : عُتيبة بن النَّهاس وسَعيد بن مُرّة ونفر[3] . .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٢٠ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٢٩ — ٢٠٣١

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٣٢

وكتب أردشير إلى بَهْمَن جاذَوَيْه أنْ سر حتى تقدم أُلّيْس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب ، فقدّم بهمنْ جابانَ ، ومضى هذا إلى أُلّيْس فنزل بها ، واجتمعت إليه المسالح التى كانت بإزاء العرب ، وعبد الأسود فى نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضُبَيْعَة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وكان جابر ابن بُجير نصرانياً ، فساند عبد الأسود .

وكان خالد بلغه تجمّع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشّب إليهم ، فنهد لهم ، ولا يشعر بدنوّ جابان ، وليس لخالد همةٌ إلا من تجمّع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل ... فلما طلع على جابان جعل على مُجَنِّبَتَيْهِ عبدَ الأسود وأبجر ، وخالد على تعبيته . . فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إن الله عز وجل كشفهم للمسلمين ومنحهم أكتافهم[1] .

٥ — أمغيشيا : لما فرغ خالد من وقعة أُلّيْس نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عما فيها ، وقد جلا أهلها وتفرقوا فى السواد ، فأمر بهدمها ، وكانت مِصْراً كالحيرة[2] .

٦ — الحيرة : ثم قصد خالد بعد يوم المقر وفم فرات بادَقْلى[3] إلى الحيرة[4] وأهلها متحصّنون فأحاطها بخيله ، وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم : فكان ضِرار بن الازور محاصراً القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائى — وكان ضِرار بن الخطاب محاصراً قصر العَدَسيين وفيه عدىّ بن عدىّ المقتول — وكان ضرار بن مقرّن المزنى ، عاشر عشرة أخوة له ، محاصراً قصر بنى مازن وفيه ابن أكّال — وكان المثنى محاصراً قصر ابن بُقَيْلَة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، فدَعَوْهم وأجْلوهم يوماً ، فأتى أهل الحيرة ولّجوا فناوشهم المسلمون ، ثم انتهى القتال

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٣١ — ٢٠٣٤

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٣٦ — ٢٠٣٧

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٣٧

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٣٨

إلى الصلح[1] على تسعين ومائة ألف درهم[2] .. وفى رواية لابن هشام الكلبى أن خالداً صالح أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ، ففعلوا[3] .

وقد كان استسلام الحيرة للمسلمين حادثاً كبيراً له أثره فى نفوس السكان والدهاقين جميعاً . . كانوا يحسبون أن فى الأمر منجاة وأن هذا النصر الذى يحققه المسلمون لن يكون نصراً مؤقتاً . . وكانوا كما يقول الطبرى « يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتت الدهاقين فصالحوه على ما تحت أيديهم من أرضين[4] »

ولكن المقام لايطمئن بخالد فى الحيرة ، فقد حقق أحد شطرى الخطة التى رسمها الخليفة الأول وبقى عليه أن ينتقذ عمل عياض حتى يحقق الشطر الأخير ، وحتى يتحقق له ما حدّثَ به عبد الله بن وَثيمة من أنى « إنما أريد أن أستفرغ المسالح التى أُمِرَ بها عياض فنسكنها العرب فتأمن جنود المسلمين أن يُؤتَوْا من خلفهم وتجيئنا العرب آمنة غير مُتَعْتَعة[5] »

* * *

من الواضح بعد هذا العرض أن موقف العرب لم يكن مسهماً فى حركة الفتح ولم يتجاوب عرب الضاحية مع عرب الجزيرة . . لم تتوهج فيهم حرارة الدم ولم تخفق عندهم نبضات القرابة . وفى المعارك الأولى فى الحفير والمذار لا نجد ذكراً للعرب لا فى القيادة ولا فى الجند ، ولا ندرى أكانت هذه الأرضين خاليةً منهم لا تنزلها قبائلهم أم أن القبائل التى تنزلها لم تكن ذات شأن كبير ... وبدأت المقاومة منذ كانت الولجة ... ويقترن ذكر العرب فى هذه المقاومة بذكر نصارى العرب كأننا أمام حقيقتين اثنتين .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٤١ خلا خالد عند الصلح بأهل كل قصر منهم دون الآخرين وبدأ بأصحاب عدى ، فقال : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال عدى : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال لو كنتم كما تقول لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ؟ فقال له عدى : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية ... الخ

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٤٤ ـ ٢٠٤٥ فى نص كتاب الصلح

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٢٠

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٥٠ وما حول ذلك

(٥) الطبرى ١/٤/٢٠٥٨

أولاهما — أن موقف عرب العراق كان ضد عرب الفتح

والثانية — أن هؤلاء العرب الذين قاوموا وحاربوا وكاتبوا الفرسَ وكاتبهم الفرسُ واجتمعوا بهم واتّحدوا معهم وتأشّبوا إليهم ، إنما كانوا ، أو أكثرهم ، من العرب النصارى . أتراه كان الدين أم كانت الرغبات ؟ . أكان نصارى العرب يقاومون مخافة أن يشاركهم هؤلاء الوافدون الأرضَ والحياة والرزق ، أم كانوا يقاومون لأن هنالك ديناً جديداً آمنت به الجزيرة فهو يوشك أن يُظِلّهم ويطويهم .

ربما كانت تتضح لنا الأمور على خير مما اتضحت لنا لو أننا تتبعنا طريق خالد بعد الحيرة حين مضى يتنقّذ عياضاً فى الشطر الأعلى من العراق .

٢ — موقف العرب فى طريق خالد بعد الحيرة :

سنلخص عمل خالد فى المواقع التالية :

١ — الأنبار[١] : خرج خالد على تعبيته يريد الأنبار ، والأنبار مزيج من العرب والعجم ، فتحصن أهلها ووُفِّق خالد إلى فتحها ومصالحة أهلها ومَنْ حولهم من أهل البوازيج وأهل كَلْواذَى .

والروايات تقول إنه لما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون ، وأَمِنَ أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلّمون ، فسألهم ما أنتم ؟ قالوا قوم من العرب نزلنا إلى قوم قبلنا . فقال ممن تعلمتم الكتاب ؟ قالوا تعلمنا الخط من إياد . وأنشدوه قول الشاعر :

قومى إياد لو أنهم أمَمُ ... أو لو أقاموا فتُهْزَل النَّعم
قوم لهم باحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والخطّ والقلم

٢ — عين التمر[٢] : ولما فرغ من الأنبار واستحكمت له ، استخلف عليها وقصد لعين التمر . فلقى فيها جمعاً عظيما من العجم عليهم مهران وجمعاً عظيما من العرب من النمِر وتغلب وإياد ومن لافّهم عليهم عَقّة . . ونزل عقة لخالد على

(١) ١/٤/٢٠٥٩ — ٢٠٦١ (٢) الطبري ١/٤/٢٠٦٢ — ٢٠٦٤

الطريق ، وعلى ميمنته بُجَير بن فلان أحد بنى عبيد بن سعيد بن زهير ، وعلى ميسرته الهُذيل بن عِمران . . وكانت الغلبة لخالد وهرب بُجَير والهُذَيل واتبعهم المسلمون وهرب مهران فى جنده

٣ — دُومَة الجندل[1] : ومضى خالد من عين التمر بعد أن خَلّف عليها عُوَيْم ابن الكاهل الأسلمى إلى دومة الجندل ، وبلغ أهلها مسيره إليهم ، فبعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ، وقبل ما قد أتاهم وَديعةُ ، فى كلْب وبَهْراء ، وساندُه ابن وَبَرة بن رُومانِس ، وأتاهم ابن الحِدْرجان فى الضجاعم ، وابن الأَيْهَم فى طوائف من غسّان وتنوخ ، وكانوا أشجوا عياضاً وشَجُوا به . . فجعل خالد دومةَ بين عسكره وعسكر عياض ، واستطاع أن يوقع بكل هؤلاء الأحلاف من العرب هزيمة ماحقة .

٤ — الُحصَيْد والخنافس والمُصَيَّخ والثَّنِيّ[2] : وقد أثارت هذه المواقع محاولة عرب الجزيرة الثأرَ لعقّة ، وقد قتله خالد فى عين التمر ، فتكاتبوا مع الفرس وخرج الفرس بقيادة زَرْمِهْر ومعه رُوزَبه واتّعدا حُصَيْداً والخنافس ، وانتظرا بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة ، وقد كانوا تكاتبوا واتّعدوا . . وخرج العرب فعسكر الهُذَيل بن عمران بالمصَيَّخ وربيعة بن بُجَير بالثَّنِيّ وبالبِشْر ، يريدان زَرْمِهْر ورُوزَبه . . ولكن خالداً ، بما عُرف عنه من مبادهة ، لم ينتظر أن يلتئم هذا الجمع ، فقتل من العجم مقتلة عظيمة فى الُحصَيْد ولم يلق كبير كيد فى الخنافس ، وأغار على الهُذَيل بالمُصَيَّخ من ثلاثة أوجه ، وأفلت الهُذَيل مع ناس ، وبيّتَ ربيعةَ بن بُجَير التغلبى ، وقد كان نزل الثَّنِيّ والبِشْر ، فى خطة محكمة ، وعطف من البشر إلى الرُّضاب وبها هلال بن عَقّة ، وقد ارفضّ عنه أصحابه حين سمعوا بدنوّ خالد ، وانقشع عنها هلال فلم يلق كيداً .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٦٥ – ٢٠٦٦ (٢) ١/٤/٢٠٦٧ – ٢٠٧٣

• — الفِراض(١) : ثم قصد خالد بعد الرضاب و بنتَيْهِ تغلبَ ، إلى الفراض — وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة — فاجتمع له الروم والفرس والعرب : حميت الروم واغتاظت واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس وقد حَمُوا واغتاظوا واستمدّوا تغلب و إياداً والنمر فأمدّوهم ثم ناهدوا خالداً واقتتلوا بعدُ قتالا شديداً طويلا حتى هزمهم الله . . وأقام خالد على الفِراض عشراً ، ثم أذن فى القفل إلى الحيرة .

وهكذا استطاع خالد أن يحتلّ أعلى العراق ، وأن يستتم له ما دون الحيرة وماعلاها من أطراف الفرات ، وأن ينتقذ عياضاً و يحقق الشطر الذى عجز عنه من خطة القيادة فى المدينة . . وكان عمله هـذا بين خروجه من الحيرة وعودته إليها سلسلةً قاسية اتصلت فيها المعارك والأيام ونُظِمْنَ نظما(٢) .

* * *

هل نحتاج بعد هذا العرض المتتبع أن نقول شيئاً كثيراً نوضح به موقف عرب الضاحية فى العراق من جيوش التحرير ؟ . إنّ يوماً من هذه الأيام فى الأنبار أو فى أُلَّيْس أو فى المُصَيَّخ أو فى الوَلَجَة لم يخلُ من مقاومة ولم تخل المقاومة من عرب . . بل لعلّ العرب هم الذين كانوا يحملون عبئها و يقومون بنصيبها و يجمعون الأحلاف والأنصار لها .. لم يكن خالد ليلقى الفرس وحدهم ولـكنه كان يلقى العرب والفرس ، بل كان يلقى فى هذه المواقع التى دارت على طرف الفرات الغربى مجاورةً للبادية ، من العرب فوقَ ما يلقى من الفرس ، ولعل العرب كانوا يقاتلونه أحياناً وحدهم من دون الأعاجم كما فى عين التمر .

و إنه ليستبين واضحاً من خلال هذا العرض أن عرب الضاحية هنا وقفوا فى وجه عرب البادية : جمعوا لهم وجبهوهم وقاتلوهم . . لم يمهدوا لهم الطريق إلى العراق كما يذهب إلى ذلك كثير من المؤرخين حين يعدّدون العوامل التى سهلت الفتح ولم يكونوا معهم إلباً على الفرس ، و إنما كانوا مع الفرس إلباً عليهم ، يستنزفون قواهم التى كان يجب أن تدخر لقتال الأعاجم . ولعل أقلّ ما كان من موقفهم أن

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٧٣ — ٢٠٧٤ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٧٣

اضطروا خالداً إلى قضاء عام كامل فيما بين دخوله الحيرة وسيره إلى الشام يعالج حمل عياض فى مناطق عربية كلها . . فأخروا سير الفتح وما كان دون فتح فارس شىء — إنها كما يقول خالد : لَسَنَةٌ كأنها سنة نساء[1] » .

٣ — موقف عرب المدن :

ولم يكن عرب المدن خيراً من عرب البادية ، فقد حارب الحيريون وقاتلوا ، وخندق الأنباريون وقاوموا على مثل ما حارب بنو عجل وتيم اللات وضُبَيْعة فى أُلَّيْس ، وعلى مثل ما حاربت تغلب و إياد والنَّمِر فى الفراض ، وعلى مثل ما حاربت بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم فى دُومَة الجندل . . وقد يكون فى بعض أخبار الحيرة والأنبار بعضُ الطرافة من مثل ما حدّثوا به من أن خالداً صالح أهل الحيرة على أن يكونوا عيوناً له[2] ، وأن أهل الأنبار حرصوا على أن ينتسبوا إلى العرب فوصلوا بين حاضرهم وماضى الهجرات العربية إلى العراق وزعموا أنهم تعلموا الخطّ من إياد[3] . . . قد تكون هذه الأخبار وأمثالها من الأخبار الأخرى التى جاءت فى حديث خالد مع أصحاب القصور فى الحيرة حين جاء يتألّفهم ويدعوهم و يسألهم ما تنقمون منا[4] ، قد يكون هذا هو الذى أوحى للمؤرخين بهذه الأوهام التى استقرت فى التاريخ الإسلامى عن مساعدة عرب الضاحية للمسلمين المنطلِقين . والواقع أن هذه المساعدة لا تتّضح ولا تستبين ، وإنما الذى يتضح ويستبين مقاومةٌ متصلة مستمرة لا تكاد تُهزم فى موقعة حتى تتجمع فى موقعة ، ولا يكاد يهدّ خالدٌ طرفاً منها حتى يفجأه طرف ، ولا يفضّ حلفاً حتى يتشكل حلف .

٤ — ارتداد عرب العراق عن صلحهم :

وليس هذا فحسب بل إن هناك ما هو أبعد من ذلك وأعمق دلالةً على موقف عرب الضاحية فى العراق بوجه عام ، مدناً وبوادى . فلم تكن غلبة خالد لهم ودعوتهم إلى الإسلام وصلحهم وعقودهم وتألّفهلم أول الأمر ، لم يكن شىء من ذلك ليحول بينهم وبين

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٥٦ (٢) الطبرى ١/٤/٢٠٢٠
(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٦١ (٤) الطبرى ١/٤/٢٠٤١

أن يرتدّوا ، وأن ينتقضوا بالمسلمين ولقد كانت تكون المقاومة ، أول حركة الفتح ، مقاومةً لمامبر راتها ومعاذيرها فى منطق الواقع ، من الجهل بطبيعتها والحذر من الفرس والخشية أن تكون المساندةُ للعرب طريقاً للاضطهاد والظلم .. ولكنْ كيف نفسر بعد ذلك حركة الارتداد الواسعة ، ونقض العهود المتصل ، والإخلال بكتب الصلح إخلالا لم ينقطع ؟ . أ كان يكون الأمر كذلك لو أن العرب وقفوا حقاً إلى جانب الفاتحين وكانت ميولهم معهم . .

لقد نقض أهل الحيرة عهدهم ثلاث مرات : صالحهم خالد فى ربيع الأول من سنة ١٢ ، فلما كفر أهل السواد بعد موت أبى بكر استخفّوا بالكتاب وضيعوه ، وكفروا فيمن كفر ، وغلب عليهم أهل فارس — فلما افتتح المثنّى المدينة ثانيةً أدلَوْا بذلك فلم يجبهم إليه وعاد بشرط آخر — فلما غَابَ المثنى على البلاد كفروا فيمن كفر وأعانوا واستخفوا وأضاعوا الكتاب — فلما افتتحها سعد وأدلَوْا بذلك سألهم واحداً من الشرطين ، فلم يجيئوا بهما ، فوضع عليهم وتحرّى ما يرى أنهم مطيقون[1] .

ولقد نقض أهل الأنبار كذلك عهودهم . لم تنفع عروبتُهم المسلمين فى شيء كما لم تنفعهم عروبة الحيرة . لم يثبتوا على ما عاهدوا عليه ، وإنما نقضوا فيما كان يكون بين المسلمين والمشركين من الدول ، ووقفوا إلى جانب الفرس فى كل حركات الإثارة والمقاومة .

* * *

لقد روى سيف عن عمرو عن الشعبى أن خالداً لما فتح الحيرة صلّى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلّم فيهن ، ثم انصرف وقال : لقد قاتلت يوم مُؤتة فانقطع فى يدى تسعةُ أسياف ، وما لقيت قوماً كقومٍ لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أُلّيس[2] » . . ثمانى ركعات متصلات ! ! أىّ تعبير نفسى عميق عن قسوة ما لقى خالد حتى لقى الحيرة من الجنوب ؟ . ترى ماذا فعل حين عاد إليها من الشمال ، وماذا كان يفعل لو أتيح له أن يصلى عقب عودته من تَنَقُّذ عياض وعمله فى المُصَيَّخ والبَرْشاء وهذه السلسلة الطويلة من الواقعات ؟

---

(١) الطبرى ٢٠٤٥/٤/١ (٢) الطبرى ٢٠٤٨/٤/١

٢ — موقف الفرس

بمَ يتميز موقف الفرس من حركة الفتوح ؟

من الواضح أن موقف الفرس كان موقف مقاومة عنيفة قاسية ، ولقد رأينا في نظر حوادث الفتح أمثلة من قسوة المعارك التي كان يخوضها المسلمون .. كان هنالك قتال ضار في أكثر المواقع ، وكان هناك تفريق ومقاتل ، وسبي وأسارى ، وثورات وانتقاضات ؛ وقد استخدمت كل الأسلحة ، وجُنّدت كل القوى ، وحشر الناس من كل ناحية في المعارك الفاصلة ، وبلي المسلمون هنا مالم يبلوه في الشام ، حتى لقد كان وجه فارس أكره الوجوه إليهم[1] ، وكان الخليفة يحملهم عليه ، ويدفعهم إليه ، ويعوضهم عن هذا الإكراه نصيباً من الخمس[2] .

غير أن هذه المقاومة لم تتخذ دائماً شكلاً واحداً : كانت مقاومة مشتركة فارسية — عربية في المرحلة الأولى حين كان خالد يخضع العراق العربي ومايتصل به من مناطق يسكنها الفرس .. وكانت مقاومة فارسية فحسب في المراحل التالية فيما بعد ، وإن لم تخل مع ذلك من انتقاضات العرب وخروجهم عن ذمة المسلمين .

١ — الحياة الداخلية للأسرة المالكة : ولقد لفتت الأسرة المالكة في فارس نظر المؤرخين ، ووجدوا لوناً من الاضطراب يتمثل في كثرة الملوك المملّكين والمخلوعين ، ثم ربطوا بين هذا الاضطراب في حياة الأسرة المالكة وبين امتداد الفتوح الإسلامية ، وجعلوا من ميسّرات هذه الفتوح ، القلقَ الداخلي في حكومة الساسانيين .

وعلى أن اضطراب القصور ينعكس أثره في حياة الجماعة كلها ، إلا أننا نحب أن نشير إلى أن مقاومة الفرس لم تنهر أو لم تتقهقر تحت تأثير هذا العامل ، ولم يكن له هذا الأثر الكبير الذي يحبّ أن يوليه إياه بعضُ المؤرخين .. فقد كانت قيادة الجيوش لا تني تعمل وتجنّد وتثير ، في حكم كل ملك طالت مدته أو قصرت ، وكانت الجيوش تَفْصِل وتقاوم وتسير دون أن يترك لها خلع الملوك أو تنصيبهم ظلاً

(١) الطبري ١/١/٢١٥٩ (٢) الطبري ١/٤/٢١٨٨ في تسيير بجيلة إلى العراق .

قويا على حركتها[١] . . كان الخلاف الداخلى لا يفسد الإجماع على قتال المسلمين ، ولا ينال من التساند عليه ، ولو كان له أثر كبير لسمعنا عن ثورات داخلية أو انتقاض مقاطعات ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، وكل الذى كان ، إنما هو على النقيض ، استجابةٌ لدسّ الدهاقين ، وثورة بالمسلمين ، و إخفاء لكتب الصلح ، وانتقاض متصل متكرر على كل ما كان من شروط وعهود .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن فترة الخلاف الداخلى لم تطل . . إنها لم ترافق كل حركة الفتح ، و إنما التقى الفرس بعد ذلك على تنصيب يزدجرد والتفوا حوله واجتمعوا على معاونته ، وكانوا جميعاً يداً واحدة معه . ورواية شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد «أنهم ملّكوه واجتمعوا عليه ، واطمأنت فارس واستوسقوا وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته[٢] » . وقد كان تنصيب يزدجرد من قبل أن يمضى المسلمون فى فتح العراق العجمى ومن قبل الصلة المباشرة بالأرض الفارسية .

وأخيراً يجب أن لا ننسى أن المؤرخين المسلمين قد لحوا لحاً واضحاً هذا المعنى الذى يلحّ عليه المحدثون من المؤرخين ، وكأنما أدركوا ما سيكون حوله من جدل ، وما يثير من نقاش ، ولذلك ذكروا بعد حديث الحيرة : « وكان أهل فارس بموت أردشير مختلفين فى الملك ، مجتمعين على قتال خالد ، متساندين[٣] » .

٢ — هل كانت الإمبراطورية هرمة : والمؤرخون الذين تحدثوا عن الإمبراطورية الساسانية يذكرون أن الحركة الإسلامية صادفتها على حين عجز ، فقد جاءت بعد هذه الحروب المضنية المُفنية التى دارت بين الفرس والروم ، وأنها وجدت فراغاً فتمكّنت منه ، وأن الإمبراطورية كانت بلغت حداً من الهرم أو الشيخوخة جدير أن يتيح لها مثل هذا المصير الذى لقيته على يد الدعاة المسلمين .

وما من شىء أقرب إلى المغالطة وأبعد عن الصواب من هذا . فالإمبراطورية

---

(١) فى الطبرى ١/٤/٢١٦٤ بعد أن تحدث عن تنصيب رستم : ودعت « بوران » مرازبة فارس وكتبت له (رستم) : بأنك على حرب فارس ليس عليك إلا الله عز وجل عن رضاً منا وتسليم لحكمك ، وحكمك جائز فيهم ما كان حكمك فى منع أرضهم وجمعهم عن فرقتهم . وتوّجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا، فدانت له فارس بعد قدوم أبى عبيد .

(٢) الطبرى ١/٤/٢٢١٠ (٣) الطبرى ١/٤/٢٠٥٤

الساسانية لم تكن عاجزة ، بدليلٍ من هذه المقاومة المنيفة التي استطاعت أن تجبه بها الجيوش الإسلامية ، ولم تكن هرمةً لأن أنوشروان كان قبل عقود قليلة من السنين قد جدّد فتوتها وصقل عزمتها ونفخ فيها من روح الحياة والشباب . وكان هناك هذا التوافق العجيب بين مولد الرسول صلوات الله عليه وحكم أنوشروان كأنما هو الآية على أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لن تمضي في أرض سهلة ، وأن المقاومة قد جُنِّدت لها منذ فتح صاحبها عليه الصلاة والسلام عينيه للضياء والنور ، ونحن نعرف أن إصلاحات أنوشروان قد تناولت كل شيء : النظم المالية والنظم الإدارية والنظام العسكرية ، وأنها أتاحت للإمبراطورية فورةً من النشاط لم يكن لها بها عهدٌ من قبل .

٣ — مواقف خاصة : على أننا ونحن نحدّد موقف الفرس من الحركة الإسلامية ونحاول أن نتبيّنه من وجوهه كلها ، لا نحب أن نغفل الإشارة إلى ما كان من موقف بعض الفرس أو بعض الدهاقين من موالاة . غير أن هذه الموالاة لم تكن كلها اخلاصاً ، كان بعضها مداراةً ، كالذي فعل بعض الدهاقين في الأنبار حين أعانوا المثنى على أن يغير على سوق بغداذ ونزلوا إليه فأتَوْه بالأعلاف والزاد وأتوه بالأدلاء[1] . وكان موعده الإحسان إليهم إن استقام لهم من أمرهم ما يحبون[2] . . . وكان بعضها اتقاء كالذي يدل عليه موقف أهل الحيرة في حديثهم مع رستم : « وأمّا أنّا قوّيناهم بالأموال فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا ، إذ لم تمنعونا مخافة أن نُسبى وأن نُحرب وتُقتل مقاتِلتُنا ، وقد عجز منهم من لقيهم منكم فكنا نحن أعجز ، ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم وأحسن عندنا بلاء ، فامنعونا منهم نكن لكم أعوانا ؛ فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب[3] — وكان بعضها تجسساً كالذي كان من أمر رجلين أَزَّا بالمثنى حين غزا السواد ، أحدهما أنباريّ والآخر حيرى ، يدلّه كل واحد منهما على سوق ، فأمّا الأنبارى فدلّه على الخنافس وأما الحِيرىّ فدله على بغداذ[4] .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٢٠٣
(٢) الطبرى ١/٤/٢٢٠٦
(٣) الطبرى ١/٥/٢٢٥٦
(٤) الطبرى ١/٤/٢٢٠٣

وليس فى كل هذه مايُعْتَدُّ به ، فهى كلها نوع من الموالاة الحذرة التى لا تلبث أن تنقلب مع رياح النصر هنا أو هناك — وهى كلها كذلك ذات طابع فردى لا يمكن أن يتخذ دليلا من روح الجماعة على كل روح الجماعة — وهى متفرقة موزعة فى أيام الفتوح جميعاً فليست لها صفة الدلالة القوية . غير أن موقفا واحداً يطالعنا به المؤرخون المسلمون ويدل على وجهات المستقبل الذى سيودى اليه الفرس ، موقف أشبه بالبذرة التى تحمل فى جرمها الأصغر عالم الشجرة الأكبر بكل ظلالها وأغصانها وثمارها ونداها . . ذلك موقف قلة قليلة من الفرس الذين استجابوا الدعوة : أسلموا وأسهموا فى حركة الفتح فى القادسية وكان لهم فضل إنقاذ الجيش من شر الفيلة ، فقد سألهم سعدُ عن مَقاتلها فدلّوه منها على المشافر والعيون وأنه لا ينتفع بها بعدها[1] . . وعلى أن هذا هو الموقف الوحيد الذى عرفنا فى خلال أيام الفتح ، فنحن مدفوعون إلى أن نشير اليه ، حتى نكون على إحاطة واضحة بكل ما كان من قبلُ وما سيكون من أثر ذلك فيما بعدُ .

* * *

لقد كان موقف الفرس موقف مقاومة وكانت مقاومةً عنيدة لا تسلبها بعضُ الحوادث الفردية فى إسلامِ بعض الفرس ومداراةِ بعض الدهاقين عن إخلاص أو نفاق — لونَها وأثرَها . . والغايةُ التى استطاع المسلمون أن يحققوها لم تستمدّ عناصرها من حياة الفرس الداخلية ، ولا من هموم الامبراطورية ، ولا من الخلاف حول تنصيب الملوك . . وإنما استمدت عناصرها من حياة المسلمين الداخلية ، من قوة اندفاعهم وإيمانهم بالذى يحاربون من أجله وحرصِهم على أن يشاركهم الناسُ نعمة هذا الإيمان الجديد واستيراثهم الأرض على أنهم عباد الله الصالحون . أما الأرض الفارسية فقد أمدّت المسلمين بالصعوبات الصعبة ، وأما الحكومات الفارسية فقد وضعت فى طريقهم الجيوشَ والعُدد والأسلحة التى لم يكن لهم بها عهد ، والفيلةَ التى أرهبتهم حتى تمكّنوا منها ، والثوراتِ التى أوقدوا نارها فى السواد ، فى عديد من المرات ، وتأليبَ العرب عليهم والإستعانة بهم فى صدّهم .

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٣٢٤

٣ — موقف السكان الأصليين : أهل السواد

تمهيد :

يمتاز موقف أهل السواد ، خلال حوادث الفتح ، عن موقف العرب أو الفرس ، وتبدو له بعض الطوابع التى يُعرف بها سواء فى موقف هؤلاء السكان من حركة الفتح نفسها أو موقف أصحاب هذه الحركة منهم ورعايتهم لهم .

على أن الروايات التى نستطيع أن نتكىء عليها فى التعرّف إلى موقف هؤلاء السكان تقودنا إلى التفريق بين طبقتين اثنتين : الطبقة الأولى طبقة الفلاحين الذين ينتشرون على الأرض : يعملون فيها و يعيشون منها ، لا يبالون ماعدا ذلك من شئون الحياة ومن أمور السلم والحرب إلا بالقدر الذى يضمن لهم صلتهم بالأرض وحياتهم فوقها . . والطبقة الثانية طبقة الملاك أصحاب الإقطاعات الكبرى والدهاقين الذين يتولون فى العراق وفارس عملًا إداريًا يقرب أن يكون الإشراف على الأرض ، وتطبيق نظم الدولة الإدارية والمالية ، وقد كان أغلب هؤلاء الدهاقين من كبار الملاك فى القرية ، فلنسم إذن هذه الطبقة ، بشىء من التجاوز والاصطلاح ، طبقةَ الدهاقين ولنحاول أن نتعرف كيف كان موقف كلٍّ من هاتين الطبقتين من الفتح الإسلامى ، أ كانت نظرتهم إليه نظرة رضا أم نظرة سخط ، أم لم يكن هناك رضا ولا سخط ، و إنما هى المقادير تجرى بالذى تهوى فلا يكون منهم إلا الإذعان ؟ ماذا كانوا يرون فى المسلمين وهل أصْغَوا إليهم ومالوا نحوهم ، أم كان لهم ولاء لم ينحرفوا عنه ، وعهدٌ لم يحاولوا التحلل منه ؟ . .

١ — طبقة الفلاحين : فى حديث رستم مع أهل الحيرة أنهم قالوا له حين عاتبهم على موقفهم من الفتح بعد أن ثار السواد بالمسلمين : ولعمرى لأنتم أحب إلينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعوانًا فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد لمن غلب [١].

(١) الطبرى ١/٥/٢٢٥٦

عبيد من غلب . . لعل هذه الجملة أن تكون أقرب ما قيل فى تمثيل صلة هذه الطبقة بالأرض . فهذه الصلة العميقة التى تفوق كل صلات القرابة والنسب ، لأنها هي التى تصوغ القرابة والنسب ، جعلت منهم ومن الأرض جزءاً واحداً فهم لا يكادون ينفكون عنها ولا يحبّون أن يغادروها . . وتمرّ من أرضهم هذه الجيوش ويخترقها الغزاة كما تمر السحابة فى أرجاء السماء ، قد تحجب الشمس ولكنها لا تلبث أن تضيع ، وقد تمطر ولكنها كذلك لا تلبث أن تنقشع ، وقد تبعث السقيا والرحمة أو العذاب والأذى ولكنها على كل حال لا تدوم . . كذلك هؤلاء الفاتحون والغزاة من كل لون ، يمرون بهذه الأرض فيملأونها عدلا أو جورا ، ثم يذهبون وتبقى هذه الأرواح المتصلة التى تسع هذه الأرض بقلبها : تفيض عليها الأرضُ الحياةَ وتفيض هى على الأرض الحياة ، فتكون الحياة فيهما معاً نسجاً مشتركا تختلط فيه اللحمة بالسدى و يمتزج فيه الخيط بالخيط فى انسجام رائع مكين .

هؤلاء الفلاحون لم يكن يعنيهم مَنْ غلب على الأرض . . إن حبهم للأرض بلغ مبلغ العبودية لها ، ولذلك فهم يدارون هؤلاء الذين يملكون الأرض من فوقهم ما دامت الأرض ذاتها ،تر بتها وخيرها ، فى أيديهم . . فليس يعنيهم أن يثوروا أو يرضوا ، أن يبتسموا أو يزورّوا . . فإذا ابتسموا أو ازورّوا فإنما ذلك بقدر : بقدر ما يكون هذا الامتزاج بالأرض والصلة بها قوة وضعفا ، قر باً أو بعدا . .

ولذلك امتاز موقف هؤلاء الفلاحين فى خلال حركات الفتح بما نسميه الحياد . . قد يكون شارك بعضهم فى الدفاع أو انضم إلى الجند ، ولكنه لا يفعل ذلك مالكا للأرض أو فلاحاً عليها ، و إنما يفعله جندياً مرتزقاً أو مساقاً . . أما كثرتهم الكثيرة فقد كان اعتصامها بأرضها هو موقفها ، كانت مسالمة قانعة ، واستطاعت أن تجد فى سيرة العرب بالأرض أسسَ هذه المسالمة والقناعة .

ولقد ظهر موقف الفلاحين بما امتاز به من الصلة بالأرض فى بعض حوادث الفتح . كانوا إذا أغار عليهم المسلمون نقّبوا عليهم نقيباً منهم فوجهوا إلى خالد

أو المثنى أو غير خالد والمثنى من القواد ليصالح عنهم ويضمن السلامة لهم و يعتقد على الجزية منهم[١] . وفعلوه حين غلب العرب على العرب ، وحين غلب العرب على الفرس ورفعوا الراية البيضاء لهؤلاء وهؤلاء فالأمر عندهم سواء .

٢ – طبقة الدهاقين : فى طبقة الدهاقين هذه ينطوى كل أصحاب السيطرة والنفوذ على اختلاف ألوان هذا النفوذ : سواء فى ذلك النفوذ الإدارى الذى يستبد به الدهقان ، والنفوذ الإقطاعى الذى يستبد به كبار الملاك ، والنفوذ العسكرى الذى تمثله طبقات المقاتلة من أبناء البلاد .

وقد كانت هذه الطبقة هى التى تولت مقاومة الحركة الإسلامية ، ولعل هذا النفوذ الذى كانت تستمتع به أن يفسر لنا كل هدوئها وحركتها ، إقبالها و إدبارها، وجهتها هنا أو وجهتها هناك . . فقد حارب الدهاقين المسلمين فلما أقرّهم المسلمون على بعض عملهم[٢] ارتضوا حكمهم وتعاونوا معهم . . وترك المسلمون لمُلّاك الأرض أرضهم فأسلوا لهم قيادهم ، فلما أثارهم الفرس قبل القادسية وأطمعوهم بالامارة وقالوا من سبق إلى الثورة فهو أمير ، ثاروا وانتقضوا[٣] . . إنهم كانوا يدورون مع الحفاظ على نفوذهم حركة وسكونا ، مداراة بالصداقة أو مجاهرة بالعداوة ، وهم هم الذين كانوا يعقدون العهود و ينقضونها و يؤكدون المواثيق و يفسدونها ، وهم الذين ثاروا على المثنى بعد خالد ، وعلى سعد بعد المثنى ، وعوّقوا — مع العرب النصارى — حركة الفتح هذا التعويق واضطروا المسلمين إلى هذه المعارك الكبرى قبل أن يغلبوا على السواد .

من هذه الطبقة كانت طبقة المقاتلة ، هذه التى كانت تؤلف ركناً من أركان

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٥١ فى كتاب خالد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا . وأنتم ضامنون لمن تقبتم من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط . أو وأنتم ضامنون حرب من تقبتم عليه .

(٢) الطبرى

(٣) الطبرى ١/٤/٢١٦٧ ولت حربها فارس رستم عشر سنين وملكوه . . فكاتب أهل السواد ودس إليهم الرؤساء فثاروا بالمسلمين وكان عهد إلى القوم أن الأمير عليكم أول من ثار . فثار جابان فى فرات بادقلى وثار الناس بعده وأرز المسلمون إلى المثنى بالحيرة .

الجيش الفارسى المقاوِم ، ولا يخرج دفاع هذه الطبقة المقاتلة عن أن يكون عملا مأجوراً ، وقد كان موقف المسلمين منها موقف المحارب من المحارب إذ يغلبه على أمره ، يستأسره ويسبى ذراريه . . لم تقف موقف الفلاحين المسالم ولم يكن فى وسعها أن تدور مع نفوذها ومصالحها استقتالا واستسلاماً كما كان موقف الدهاقين وكبار الملاك ، ذلك لأنه لن يكون لها مكان فى المجتمع الإسلامى الجديد : يبقى الفلاحون فى أرضهم ويقر المسلمون بعضَ الدهاقين على بعض عملهم ، ويخلّون بين كبار الملاك وأملاكهم . ولكنهم لا يستطيعون أن يستخدموا هذه الطبقة المقاتلة فى جيشهم إذ لا يقوم الجيش عندهم على الأجر ولا ينضم إليه غير الذين يشاركونه إيمانَه وعقيدتَه . . ومن هنا كان تفرد طبقة المقاتلة من بين كل السكان الأصليين بهذا الموقف ، ومن هنا كان حرجهم . . فهم بين الإسلام والجزية ، ولن يجدوا مكاناً فى الحياة الإسلامية الجديدة يلتئم مع ما كان لهم أو يعوضهم عما كانوا فيه . أفلا يفسر ذلك إصرارهم واستبسالهم ؟ .

* * *

ذلك هو موقف الطبقات الثلاث التى كانت تؤلف مجتمع العراق العربى والفارسى : طبقة العرب وطبقة الفرس وطبقة أهل السواد . . كان لكل طبقة موقفها الذى تمليه عليها ظروفها وحاجاتها ، وتطلعاتها واعتقاداتها ، ومطامحها وأهواؤها ، واطمئنانها وقلقها . . لم يكن هناك مصدر واحد تصدر عنه ، ولا عقيدة مشتركة تجمع شتاتها ، ولا مُثُلٌ موحدة ترجع إليها . . كان هناك هذا التنافر فى كل ألوان الحياة وطرائق العيش واتجاهات العقيدة ومناهج التفكير ، وكان هناك هذا التباين فى اللغة والمذهب والدين والوجهة . . ولذلك لم يستطع أصحابه أن يدافعوا عنه وأن يصمدوا فى الدفاع على شدة الجهد الذى بذلوا والحشد الذى حشدوا . . كان أمام هذا المجتمع المتخلخل مجتمعٌ جديدٌ : يغزوه ، موحّد الرأى ، موحد العقيدة ، شجاع القلب ، تستهويه غاية واحدة ويؤلف بينه نظام واحد . . ولذلك قدر لهذا المجتمع الجديد أن تكون له الغلبة والفوز وأن يتفشّى فى المجتمع القديم وأن يطويه .

الفصل الثالث

فتوح مصر وبرقة وطرابلس الغرب وبلاد النوبة

القسم الأول

البواعث والأهداف

١ – الباعث النفسى : حين خرجت الجماعة الإسلامية من الجزيرة خرجت داعيةً يملؤها هذا الحماس الذى يموج فى صدور الدعاة ويتدفق فى أعماقهم، ويزدهيها أن تشاركها الأممُ من حولها عقيدتها أو تحقق سلطانها عليها .. وتمكَّنُ لها هذه الدعوة من أن تستشرف أفقاً بعد أفق وتجاوز قطراً إلى قطر .. فهى لا تكاد تلامس الشام فى مؤتة وتبوك حتى تتجه إلى العراق ، فإذا انتشرت فى العراق العربى عادت إلى الشام تجوز سهوله وحزونه وتضرب فى شماله وجنوبه ، حتى إذا وجدت أنها استوفت حدَّ الجزيرة الرابع الذى تضفره أنهارُ الهلال الخصيب فى الشمال الشرقى والشمال الغربى ، وأنها ضربت فيما وراء ذلك – اندفعت وراء هدف آخر قد يبدو جديداً ولكنه لا يعدو فى الواقع أن يكون صلةً متصلةً لما فى نفس الجماعة ولما فى حركتها : لما فى نفسها من حق الدعوة من نحو ، ولما فى حركتها ، وقد أضحت حركةً امتداد عريضة ، من اتجاه وتطلع .

٢ – الباعث الواقعى : وكذلك كان طبيعياً أن تتجه الموجة الإسلامية نحو مصر ، فقد مُكِّن لها من الشام ، ومن جنوب الشام بوجه خاص ، والتاريخ يعلمنا أن الصلات بين مصر وبين هذه المناطق صلات لا تعرف الانقطاع ، وأنه لا تكاد تقوم دولة قوية هنا أو هناك حتى تبادر فتنشر ظلالها وتبسط سلطانها على القطر الآخر .. فثمة دائماً هذا التجاوب المتصل بين هاتين الشقتين من الأرض ، بل إن تاريخ هذا الجانب كله من البحر الأبيض المتوسط يوشك أن يكون عرضاً لتبادل هذا التأثير وتعاور هذه السيطرة .. ومنذ أدهار طويلة سلك الهكسوس ، هؤلاء الأسيويين الغرباء ، صحراء سينا فمثلوا فى تاريخ مصر الأسرة الخامسة عشرة

والسادسة عشرة . حتى إذا كانت الأسرة الثامنة عشرة بعد ذلك قويّةً نضرة ، كان أول مافعلته أنها اتجهت نحو فتح سورية ، فلم يجاوز عملها أن يكون تعبيرا عن رد الفعل لحركة الهكسوس ، واستطاعت مصر أن تبلغ هذا الفتح وأن تجعل منه درعها الذى يقيها شر الغزوات الأسيوية مرة أخرى . . بل أن تحتمس الأول مضى يسبغ هذه الدروع ضافية الذيل حتى بلغ شاطىء الفرات وجَهَر أن هـذا الشاطىء هو الحدّ الشرقى لمصر ، وسجّل ذلك فيما سجل من نقوش جدران معبد الكرنك ، وأقام نصباً لذلك على إحدى ضفتى الفرات كأنه الحارس المسلح .

ونستطيع أن نتتبع هذه الصلات التى أظلت مصر والشام فى مراحل التاريخ كلها حتى نصل بها إلى حركة محمد على فى العصر الحديث . . ولما تنته بعدُ . . ولكن حسبنا هنا أن اتجاه الحركة الإسلامية نحو مصر لم يكن بِدْعاً من الأمر : كانت أصوله النفسية فى حياة الجماعة ، وكانت أصوله الواقعية فى حياة هذه الرقعة من الأرض ، ولذلك لن نعجب أن يكون أول ما فعل عمرو بعد أن فُضّت المقاومة فى فلسطين باستسلام القدس أن يتحدث إلى الخليفة الثانى هذا الحديثَ المتطلعَ نحو الحدود الجنوبية عبر صحراء سينا .

٣ — <u>الصلات بين مصر و بلاد العرب</u> : ليس هذا فحسب ، ليس الأمر هذا التطلع النفسى الذى يثيره حق الدعوة فى نفوس أصحابها ، ولا هذه الصلات الواقعية بين مصر والشام . . و إنما هناك ما هو أبعد من ذلك ، هناك هذه الصلات بين مصر و بلاد العرب نفسها : شمالها وجنوبها . . فلم تكن هذه البلاد غريبة عن المصريين مجهولة منهم ، ولم تكن مصر غريبة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن ولا بعيدة منهم كانت دائماً هذه الصلات القائمة والمتبادلة ، ومن الخداع أن نتوهم أن صحراء مصر الشرقية أو البحر الأحمر أحاطا مصر بهذه العزلة القاسية وحالا بينها و بين جيرانها . فقد كان هناك هذان الجسران العريضان الممهدان اللذان حققا لمصر و بلاد العرب ألواناً من المشاركة والاتصال : الجسر البرى ممثلا فى صحراء سينا ، والجسر البحرى ممثلا فى البحر الأحمر والطرق التى تلاقى ما بينه و بين النيل .

ا — فأما عن الصلات البرية فقد كان تقدم الهكسوس نحو مصر من قبلُ وتمدد المصريين إلى حدود الفرات من بعدُ تعبيراً عنها ، ولكن هل كان هذا اللون من التوسع الحربى أبعد هذه الصلات إيغالاً فى الزمن ؟ من المؤكد أننا نستطيع الجواب بالنفى ، وأننا نملك القول بأنه قد سبقه دور سلمى تبادل فيه المصريون والعرب ألواناً من التأثير قبل أن تتفتح فى نفوسهم شهوة الغزو ، واشتبكت بينهم وشائج وعلائق ربما كانت التجارة أوضح مظاهرها . ويجب أن لا ننسى بعد أن المصريين تغلغلوا فى سينا منذ حين يهدفون إلى استغلال مناجم النحاس فيها وأن سينا أضحت بعد ذلك المصدر الرئيسى الأول الذى يمد مصر بالنحاس ، هذا المعدن الذى كان ذا أهمية كبرى لها ، وأقدم النقوش التى تدل على علاقة مصر وسينا فى استثمار مناجم النحاس لتعود إلى الأسرة التاسعة عشرة ، وما من شك فى أن البحث عن النحاس فى سينا يستدعى حتماً أشد الصلات وأقواها بالبلاد العربية ، فسكان سينا عرب ساميون من نحو ، والطرق التى تمتد فى سينا تنتهى دائماً فى صميم البلاد العربية ، تنتهى إلى الحجاز فى الشمال وإلى بلاد اليمن فى الجنوب ، وقد كان من مهمة هذه الطرق أن تحمل عوامل التأثر والتأثير . . فإذا ذكرنا هذه الطرق ونحن نتحدث عن تدفق الموجة الإسلامية فى مصر عبر سينا مرة أخرى ، كان إدراكنا لهذه الحركة الأخيرة أكثر وضوحاً وأقوى تمكنا

ب — وإذا كانت سينا ، هذا الجسر البرى ، قد حققت الصلات بين مصر وبلاد العرب الشمالية بوجه خاص فإن البحر الأحمر قد حقق هذه الصلات بين مصر وبلاد العرب الجنوبية ، وقد اقتصرت هذه الصلات هنا على أن تكون صلات سلمية لا تجاوز التجارة إلى شىء عداها ، فالبضائع التى كانت ترد من آسيا وتجتاز البحر الأحمر كانت تجد فى النيل تتمة طريقها إلى البحر ، وكان النقل النيلى أكثر ازدهاراً مما يبدو لنا اليوم ، وكان الطريق بين القُصَيْر على البحر الأحمر وبين قِفْط ، حيث يبلغ النيل أقصى انحناءاته إلى الشرق ، يزخر بالحركة والنشاط وينثال فيه جزء كبير من التجارة العالمية البحرية التى تجوز هذه المرحلة من البحر فى يسر واطمئنان

على أن هذه الصلات تتمثل أشدّ ما يكون التمثل من بين عروض التجارة كلها بالبخور. فمن الواضح أن بلاد العرب الجنوبية كانت هى مصدر البخور مدة طويلة أول الأمر، وكانت طريقه حين يأتى من الهند وغيرها بعد ذلك.. ومن الواضح أيضاً أن البخور كان مادة أساسية فى الحياة المصرية، لأن هذه الحياة كانت حياةً دينية كأشدّ ما تكون صلة الحياة بشعائر الدين، وكانت المراسم فى الحفلات والأعياد، والعادات فى الجنائز والتحنيط، والطقوس فى الصلوات والمعابد — تعتمد على البخور اعتماداً كبيراً، حتى ليقول «أوليرى[1]»: «إن استعمال البخور فى الشعائر الدينية كان سمة بارزة جداً من سمات الحضارة المصرية حتى إنك لا تجد هذا الاستعمال شائعاً فى أى بلد آخر وفى أى زمن من الأزمان إلاّ ويمكنك أن تردّه فى أصله إلى مصر ردًّا مباشراً أو غير مباشر».

وإذن فإن لنا أن نقطع بقيام هذه الصلات بين مصر وجنوبى بلاد العرب، وأن نتجاوز ذلك فنصف هذه الصلات بأنها قوية مكينة.. ومن يدرى فلعلّ من وثاقتها أن يكون المصريون، أو أن يكون سكان الرافدين، هم الذين تولّوا منشئات الرىّ فى اليمن، لأن هذه المنشئات تعود بطبيعتها إلى الحضارات فى أحواض الأنهار.. ومن يدرى أيضاً فلعلّ من ذلك أن نفسّر لِمَ كانت كثرةٌ من القبائل التى استقرت فى مصر عقب الفتح من القبائل العربية الجنوبية.

حـ — ولم يفت المؤرخين أن يلمحوا هذه الصلات بين مصر وبلاد العرب بوجه عام. فيحدثنا سترابون عن مدينة قفط أنها مدينة نصف عربية، ويحدثنا المؤرخون الإسلاميون عن طائفة من رجالات العرب كالمغيرة بن شعبة وعثمان بن عفان[2] زاروا مصر للتجارة فى الجاهلية... ولكنهم عبّروا عن ذلك فى هذا الشكل القصصى الذى نلمحه فى رواية ابن عبد الحكم عن معرفة عمرو بن العاص بمصر فى الجاهلية وعن رحلته إلى الإسكندرية مع أحد الشمامسة الذين لقيهم فى القدس وكان أنقذه

---

(١) أوليرى — بلاد العرب قبل الإسلام.
(٢) الكندى ٦ — ٧

من العطش مرة ومن حيّة عظيمة مرة أُخرى ، فأراد أن يكافأه فدلّه على مصر وقاده إلى الإسكندرية ، وشهد فيها عمرو عيداً عظيما من أعيادها « يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أُكْرَةٌ من ذهب مكلّلة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكامهم ، وفيما اختبروا من تلك الأكرة ، على ما وصفها مَنْ مَضى منهم ، أنها من وقعت الأكرة فى كمه واستقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم .. فلما جلس عمرو مع الناس فى ذلك المجلس أقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو[1] » .

ومهما يكن من شىء فإن اتجاه المسلمين إلى مصر لم يكن ظاهرة جديدة مجردةً عن أصولها فى أعماق الماضى القريب والبعيد .

٤ — الضرورات الحربية : وقد حتّمت الضرورات الحربية كذلك أن يتقدم المسلمون نحو مصر . ذلك أن الحركة الإسلامية تشبه أن تكون قد نفذت فى هيكل الدولة البيزنطية كما ينفذ الإسفين الضخم .. جاءتها من وراء ، من الصحراء فشطرتها حين استولت على سورية إلى شطرين : الامبراطورية الأم فى آسيا الصغرى وما وراءها — والولايات التابعة لها : مصر وما وراءها فى إفريقية . ولم يعد هناك مايصل بين أجزاء هذه الامبراطورية إلاّ البحر ، وسيلعب هذا البحر دوراً هاماً بعدُ فى محاولة استنقاذ الإمبراطورية فيما فعل البيزنطيون ، وفى محاولة تصفية هذه الامبراطورية فيما فعل المسلمون . فكلا الفريقين ركب البحر ليعلو خصمه ، وليس هنا أوان تفصيل القول فى هذه الناحية . وإنما أردت الإشارة إلى أن الدولة الإسلامية كان يجب لها ، بعد أن بلغت الحدود الجبلية فى طوروس فى الشمال وهى تطارد البيزنطيين ، أن تحاول القضاء عليهم فى هذه الولايات الجنوبية . وليست هذه الولايات الجنوبية ذات أهمية ثانوية حتى يدعها المسلمون تذوى وحدها ، ولم تكن مستعمرات فحسب ، ولكنها كانت أجزاء من جسم الامبراطورية ، وكان فيها حاميات وجاليات ، ومسالح ومراكز ، وكان كثير من المدن فيها قد اصطبغ بالصبغة

---

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٤٩ـ٥٠ .

الهيلّينية واندمج فى مظاهر حياتها . بل إن هذه الولايات لعبت فى استنقاذ الإمبراطورية من براثن الغزو الفارسى دوراً كبيراً . ولعلنا لا ننسى هنا أن حركة هرقل ، وقد كانت ازدهاراً لبيزنطة و يقظةً من يقظاتها ، بدأت فى إفريقية وأن الجيوش سارت من هنا فتجاوزت مصر ، بعضها مساحِلة و بعضها مُبْحِرة حتى بلغت القسطنطينية . فإذا أولى المسلمون مصرَ هذا الاهتمام منذ أن كتبوا عقد الصلح لأهل بيت المقدس ، و إذا كان عمرو قد استأذن عمرَ بالانسياح فيها ، فإن ذلك اتجاهٌ تقتضيه طبيعة الحركة الإسلامية منذ آل الأمر بينها وبين البلاد التى ذهبت تدعوفيها — إلى حروب ومواقع . ولمصر فى هذه المواقع دور رئيسى بما هى متصلة بالشام من نحو ، ومطلّة على الحجاز من نحو آخر ، و بما هى مفتاح لما وراءها من إفريقية الشمالية من نحو ثالث .. وقد يرتدّ الروم على سورية وقد يهاجمون الحجاز نفسه من مصر يشدون الحركة العربية فى منابعها الأولى ، وسيفيدون دون ما شك من الإسكندرية ، هذه العمارة البحرية الهائلة ، ومن الطرق النيابية ، فلاغنى للمسلمين أن يحرموا أعداءهم من كل هذه المميزات وأن يستمتعوا هم بها حتى تكون لهم المبادهة والغلبة .

لقد كان تَرْك مصر ، هذه الولاية البيزنطية التى كانت تمد بيزنطة بالميرة والخير ، ومن ورائها هذه الولايات الأخرى التى كانت تمد بيزنطة بالجيش والجند — خطراً على حياة الدولة الإسلامية الناشئة . وكان تنبه عمرو إلى لذلك والتفاته إليه ، فى جملته أو فى تفصيله ، عبقريةً رائعة ، فهذه الدولة مضطرة أن تتجنب هذا الخطر وكان لا يسعها أن تتجنبه إلا أن تواجهه . فاذا ذكرنا تسلسل حوادث الفتح فى الشام ، وأدركنا أن جموع الروم الذين هزمتهم المعارك أو حمتهم عقود الصلح لجأت كثرتهم الكثيرة إلى مصر ، سواء بعد معركة وادى عَرَبَة أو بعد صلح بيت المقدس ، كما كانت قد لجأت من قبل فى حوادث الفتح الفارسى ، مؤمّلةً أن تُنقَذ هذه المرة كما أُنقِذَت من قبل ، وأن المؤرخين ينصّون على أن ارطبون « اربطيون » قائد حامية

بيت المقدس قد لجأ[1] إلى مصر وأنه كان سيسعى للانقضاض لاشك . . إذا ذكرنا هذا كله أدركنا أن تدفق المسلمين عبر العريش فى طريق الحرب هذه « التى سار فيها قمبيز وأنطيوخس أبيفانس والإسكندر الأكبر[2] » لم يكن شيئاً إدًا ، وإنما كان تكملةً لما فعل المسلمون إذ بسطوا ظلالهم على بلاد الشام .

٥ — خيرات مصر : ولم يغب عن بال المسلمين ما كانت تنعم به مصر من غنى . فقد كانت أحد أقطار الدنيا الألِقَة ، وكانت فى صدر هذا العالم القديم كالدرّة المضيئة ، وما من شك فى أن العرب كانوا يتحدثون عنها حين تخلو بهم أسمارهم ، أو تصفو لهم مجالسهم ، وكانوا يعرفون ما تغل أرضها من الثروة ، وما تستمتع به من خصب ، وأنها كانت أهراء القسطنطينية ومصدر كثير من تموينها وامدادها . . ولذلك ليس بعيداً أن تكون قد التمعت أطيافٌ ضاحكةٌ من هذه الدنيا السحرية فى ضمائرهم ، وداعبتهم من عوالمها الخيّرة صور ، وتمثلت لهم هذه الأرض ، وقد دانت بمثل ما يدينون به وانقادت لهم ، فوجدوا فى انقيادها ما يتقَوَّوْن به على غاياتهم التى كانت تتسع أمامهم يوماً بعد يوم ، وقطراً بعد قطر . . ولذلك كان من تحريض عَمرو بن العاص عُمر على فتحها قوله : « إن فتحتها كانت قوة المسلمين وعوناً لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا[3] » .

وكذلك نرى أن جملةً كبيرة من البواعث كانت تكمن وراء انطلاق المسلمين إلى مصر وتخليفهم الشام وراء ظهورهم : كان هناك هذا الباعث النفسى فيما عمر قلوبهم من عقيدة — وهذا الباعث الواقعى من صلة ما بين مصر والشام — وهذه الصلات فيما بين الجزيرة ومصر — وكان وراء ذلك هذه الضرورات الحربية التى تريد أن تحمى

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٠٤ « ذلك أن أرطبون والتذارق لحقا بمصر مقدم عمر الجابيةَ »

(٢) بتلر فتح العرب لمصر ٦٣

(٣) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥١

ظهور المسلمين ، وتتعقب فلول الإمبراطورية — وهذه الصورة الضاحكة التى كانت تكسو معالم مصر وتجعل منها جنة من[1][2] جنان الدنيا .

القسم الثانى

حركة الفتح

لم تترك لنا الروايات التاريخية من الحديث عن فتح مصر كثرةً من التفاصيل كالتى تركت لنا من الحديث عن تحرير العراق والشام . ولعلّ لسهولة الفتح سهولةً نسبية أثراً فى ذلك ، غير أن القدر الذى بين أيدينا يشارك أقدار الأقطار الأخرى فى اضطرابه وتعقيده ، وفى تشابكه وتداخله حيناً ، وتضاربه وانقسامه حيناً آخر ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نوجز تقدم الجيوش الإسلامية فى المراحل التالية :

١ — العريش : يختلف المؤرخون بين أن يكون عمر بن الخطاب هو الذى أمر عمراً بالمسير إلى مصر وانتداب الناس إلى هذا الوجه ، و بين أن يكون عمرو هو الذى حبّب هذا الوجه إلى عمر وحرّضه عليه — ثم يختلفون بين أن يكون عمرو بن العاص

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٤ من حديث عمرو بن العاص : « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتثمر ثمارها » .

(٢) يجعل بعض المؤلفين المحدثين (فيليب حتى ص ٢١٥) من بواعث الاندفاع نحو مصر باعثاً شخصياً عند عمرو بن العاص وأنه أراد أن يبارى زميله خالداً فى تدويخ الأمصار ، وأنه كان قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف مدنها وقراها ... ولكن الارتداد بهذه الحركة الحربية البارعة إلى الباعث الشخصى فى المباراة يبدو تنبهاً تنقصه الدقة ، وتعوزه الحقيقة معاً ... هذا إلى أن فتح مصر كان فى خلافة عمر ومن البداءة الأولى أن أول ما فعل عمر أن عزل خالد بن الوليد عن قيادة جند الشام وولى أبا عبيدة بن الجرّاح مكانه ، وكان ذلك نهاية مجد خالد الحربى وآخر صفحات انتصاراته المعجزة ، إذ غادر الميادين ليموت على فراشه والألم ينهشه ... فما من سبيل إلى أن تقوم المباراة بين قائد اعتزل حياته العملية وبين قائد آخر يخوض الحياة ويمارس مهماتها ... والروايات التى نعرفها عن الحركة الإسلامية لاتدلنا على نوع من الخصومة بين خالد وبين عمرو ، لا فى الجاهلية ولافى الإسلام ... صحيح إن هنالك هذا الخلاف بين خالد وبين عمر فى النهج ، أما بين خالد وعمرو فلا . . والمؤرخ الذى ينظر نظرة جادة جدير أن يضع الأمور فى مواضعها ، وأن يستنبطها من مظانها التى تكون فيها ، فلا يبتدع البواعث ابتداعاً ولا يجعل من شىء مفقود شيئاً موجوداً ، ولا يردّ حركة خطيرة تتعاون عليها عشرات البواعث إلى باعث شخصى صغير ليس له أصل مكين .

استأذن عمر قبل أن يتقدم أو بعد تقدمه — وبعضون يختلفون فى ردّ عمر بين أن يكون تردّد وتخوّف أو جزَم وأذِن[1] أو أحال عمراً إلى كتاب سريع سيأتيه منه بعدُ ، وهى إحالة غريبة سيكون فيها : « إن أدركك كتابى آمرك بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره . . » وان الكتاب « أدرك عمراً برَفَحَ فتخوّف إن هو فتحه أن يجد فيه الانصراف ، فدافع الرسولَ حتى نزل قرية بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل إنها من أرض مصر . فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ، قالوا : بلى . قال فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر . . فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه[2] » .

وقد سار عمرو فى خطواته الأولى إلى العريش فاحتلها أواخر سنة ٦٣٩ ، فى ديسمبر « كانون الأول » ،(١٩هـ) .. ثم مضى فى هذه الطريق التى كانت لاتزال آثار أقدام الفرس فى غزاتهم لمصر سنة ٦١٦ عالقةً بها ، والتى كانت تحمل من قبلُ كلّ آثار الفاتحين والمهاجرين ، والتجار والحجاج ، وكتائب الجند وقوافل العروض ، والتى شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز وأسرة المسيح[3] » .

٢ — الفرما : واتجه عمرو من العريش إلى الفرما[4] ، فى طريق لا يخالف فى كثير عن هذه الطريق التى يعرفها العرب فى بلادهم فهو « قطعة من الصحراء تتخللها قرى وعيون[5] » حتى إذا بلغها لقى مقاومة الروم ، وامتدت المقاومة شهراً

---

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥١ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥١ — ٥٢

(٣) بتلر فتح العرب لمصر ١٨٥

(٤) الفرما (بلوزيم فى اليونانية وبرمون فى القبطية) على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر الأبيض المتوسط ، شرقى بور سعيد ، كان يصب قربها فرع النيل البلوزى ، قوية الحصون كثيرة الآثار عديدة الكنائس والأديرة بتلر ١٨٦ كاشف ١١

(٥) بتلر ١٨٥

أو شهرين فقد كان الجند يعتصمون بحصونهم ، ويبدو كأن العرب قد سبقوهم إلى هذه الحصون ذات مرة فتمّ لهم احتلال المدينة فى أواسط يناير من سنة ٦٤٠ م (١٩ هـ) . وباحتلال الفرما وضع المسلمون يدهم على رَصَد مصر ، فقد كانت هذه المدينة مفتاح مصر من الشرق ومدخلها ، كما استطاعوا أن يضمنوا لأنفسهم القاعدة التى يتقدمون منها إن أتيح لهم التقدم ، ويتراجعون إليها لو أُكرهوا على التراجع ، ويتلقون الأمداد عن طريقها حين يمدهم الخليفة .

٣ — بلبيس : واتجه المسلمون إلى بلبيس فى الشمال الشرقى من القاهرة ، وأحست القوات المدافعة أنها ليست أمام غارة كهذه الغارات البدوية التى لا تلبث أن ترتد بعد أن تغير ، وإنما هى أمام جيش منظم وحركة لها وراءها جذور بعيدة فى الشام والحجاز . فأدار القتال أريطيون — كما يظن بتلر[1] — الذى كان حاكم القدس وتمت للمسلمين الغلبة على المدينة .

٤ — بابليون : وكانت الخطوة التالية التقدّم نحو حصن بابليون حيث تعتصم قوات الروم بقيادة ثيودورس ورئاسة المقوقس ، الذى وكلت إليه بيزنطة منذ استرجعت مصرَ من الفرس أمرَ ولاية مصر كلها ، وجمعت له السلطة الدينية والمدنية معاً ، فكان بطريركاً على الإسكندرية ورأساً للإدارة المدنية .

وقد عسكر المسلمون فى هليوبوليس «عين شمس» وتلقَّوْا هنا أمداد الخليفة بقيادة الزبير بن العوّام ، والمقداد بن عمرو ، وعُبادة بن الصامت ، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد «وقال آخرون بل خارجة بن حُذافة الرابع — لا يعدون مسلمة[2] » وتضاعف جيشهم[3] ولكنهم لم يكن فى وسعهم أن يهاجموا الحصن نفسه ، كان منيعاً وكانت تنقصهم أدوات الحصار فاكتفَوْا أن يسدوا عليه المنافذ ويُحكموا الأخذ بخناقه .. « غير أن مركز الحصن لم يكن ليساعد العربَ على الحركة السريعة فقد كان فى وسع الروم أن يهبطوا

---

(١) بتلر ١٩١ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٦

(٣) فى عدد الجيش خلاف وقد سرد ابن عبد الحكم فى ٥٦ بعض الروايات . والذى يبدو أن الخلاف يرجع إلى جمع الآلاف الأربعة الأولى إلى الأمداد .

إليهم فيناوشوهم أىّ وقت شاءوا ثم يعودون إلى حصنهم آمنين وراء أسواره العظيمة[1] » ولذلك لقى المسلمون هذه المشقة التى عبّر عنها ابن عبد الحكم بقوله : « فقاتلوه بها قتالا شديداً وأبطأ عليهم الفتح[2] .. » حتى إذا كان القتال ذات مرة وقد استدرج عمرو جيش الروم إلى هذه المسافة التى تفصل بين الحصن و بين هليو بوليس ، كانت للمسلمين الغلبة ، وهرب القائد ثيودورس فلاذ بالإسكندرية ، واحتمى المقوقس ثانية بالحصن فرابط العرب حوله سبعة أشهر دارت فيها مفاوضات لم تنته إلى عقد[3] . وانتهى الحصار بعدُ إلى أن وهب الزبير نفسه لله[4] فتسوّر الحصن فيمن انتدب معه فاقتحمه أو أوشك من جانب ، وصالح أهلُه من جانب آخر ، وشمل الصلحُ الحصنَ كلّه ، فى السادس من نيسان «إبريل» سنة ٦٤١ وكتب لهم عمرو كتاب الصلح ، الذى يسميه المؤرخون صلح بابليون ، على «الجزية للقبط والخيار للروم . فمن أحبّ منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازماً له ومفترضاً عليه ، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج ، وعلى أن المقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل ، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلاّ كانوا جميعاً على ما كانوا عليه[5] » .

٥ — الفيوم: وفى خلال مدة الحصار الطويلة التى استمرت سبعة أشهر ، يذكر الأستاذ بتلر أن عمرو بن العاص غزا إقليم الفيوم على الجانب الغربى من النيل على بعد خمسين ميلا من جنوب القاهرة ، وأنه لذلك استولى على «أم دنين[6] » قبل أن يمضى فى هذا الغزو . . ولما كان أحدٌ من مؤرخى العرب لم يذكر ذلك فإن بتلر يعتمد على « حنا النقيوسى » فى هذا و يؤكد أن هذه الغزوة حدثت فى « الوقت الذى وصفناه وعلى الصورة التى أوردناها[7] » .. وإن كان يذكر بعد ذلك أن هذا الغزو « كان مَشْغَلَةً للجند وأن الروم عادوا إلى مسلحة «أم دنين» فتملكوها[8] »

---

(١) بتلر ١٩٢ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٤

(٣) اقرأ تفاصيل الرسل والوفود والمفاوضات فى ابن عبد الحكم من ٥٩ — ٦٤

(٤) نفس المصدر ٥٨ (٥) نفس المصدر ٦٤

(٦) بتلر ١٩٤ (٧) اقرأ عن أم دنين ابن عبد الحكم ٥٩

(٨) بتلر ١٩٨

فكأنّ الأمر إذن لا يعدو هذه الغارات التى تتقدم حركات الجند . ولعل هذا سر إهمال المؤرخين المسلمين لها إن صحت رواية حنا النقيوسى عنها .

٦ — مصر السفلى : ومَكَّن سقوط الحصن للمسلمين أن يجترئوا . ذلك أنه كان مفتاحَ مصر السفلى والعليا على السواء ، وكان على مجمع النهرين ، وكانت له قيمته المعنوية إذ كان قديما مكان العاصمة الأولى ممفيس . . ولذلك نرى أنهم ينساحون فى ريف مصر السفلى فى حركة متصلة ، وإن كان يحدُّ من اتصالها وسرعتها أن الأرض تملؤها القنوات وتكثر فيها الترع ، ويعلو فيها ماء النيل فترات من كل عام وما أكثر مايفيض الماء على جانبيها وما أكثر ما تعوق استفاضةُ الماء حركةَ الجيش ، ولهذا لم تنته هذه المرحلة إلّا مع فتح الإسكندرية ، ولهذا أيضاً اضطر العرب أن يطلبوا مساعدة سكان البلاد فى كثير من المرات . . ويحدثنا المؤرخون أن السكان استجابوا لهم . . ومن هذه الاستجابة ومن عون الأقباط للمسلمين فى مثل « إصلاح الطرق و إقامة الجسور والأسواق[1] » نشأت أحاديث طويلة عن موقف القبط من المسلمين سنتحدث عنها فى مكانها من هذا البحث إن شاء الله .

وأدّى تتابع فوز المسلمين فى مصر السفلى واستيلاؤهم على المراكز والأرياف إلى هجرة عريضة كانت تلتجىء إلى الاسكندرية وتحتمى بها ، فقد ملك الرعبُ قلوب السكان والروم على السواء ، ولم تكن هناك قوى منظمة ولا مقاومةٌ محكمة ، وانتشر الأمر على الروم فى مصر العليا وفى مصر السفلى فلم يجدوا من عاصم إلا الاسكندرية تحميهم من تقدم الجيش . . وللاسكندرية أسوارها الرفيعة وحصونها المنيعة ، والبحر من ورائها قد يكون سبيلا للهرب أو طريقاً للامداد . . ولهذا رافق انتشارَ المسلمين فى مصر السفلى هذه الهجرةُ المتصلة إلى الإسكندرية حيث تدور بعدُ الموقعةُ الأخيرة التى تصفّى الحساب بين الروم والعرب وتردّ لهذا القطر مكانته فى نطاق المجتمع الإسلامى .

(١) عند ابن عبد الحكم ٧٢ (تورى) : ويقيموا لهم الانزال والضيافة والأسواق والجسور مابين الفسطاط إلى الإسكندرية . . وصارت لهم القبط أعوانا . وفى ص ٧٤ رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة .

٧ — نحو الإسكندرية : وخلّف عمرو حصنَ بابليون وجعل فيه فرقةً من المسلمين . وانطلق على رأس جيشه نحو الاسكندرية ، فجاز نقيوس — وكانت لها مكانتها الحربية فى حفظ الطريق بين حصن بابليون والاسكندرية — فى ١٣ مايو سنة ٦٤١ ، ثم عبر النيل إلى الغرب حتى بلغ ترنوط ، فلقى بها فيما يحدثنا ابن عبد الحكم طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفاً فهزمهم الله تعالى[١] . . وفى ترنوط أرسل عمرو شَريك بن سُمَىٍّ فى حملة ، فلقى الروم عند الكوم الذى يقال له كَوْم شريك ، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولّى الروم أكتافهم[٢] .

وتابع عمرو تقدمه فالتقى بالروم عند سنطيس[٣] فاقتتلوا بها قتالا شديداً ثم هزمهم الله . . « والتقاهم مرة أخرى بالكريون[٤] » فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً اضطر معه عمرو أن يصلى صلاة الخوف ، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة ، ووَردان مولى عمرو حامل اللواء ، ثم فتح الله للمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون لا ترام ، حصن دون حصن .

٨ — استسلام الاسكندرية : وطالعت المسلمين معالم الاسكندرية الرائعة ولكنهم حين اقتربوا منها كانت مجانيق الروم ترميهم من عل ، ولم يكن فى وسعهم أن يضيقوا عليها الحصار فقد كان البحر يحميها من الشمال وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب ، وكان إلى غربها ترعة الثعبان ، فلم يبق إلا شرقها

---

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٦ (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) ابن عبد الحكم ٦٧ سلطيس وكذلك المقريزى .
(٤) كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون بين بابليون والإسكندرية وهى تشرف على الترعة التى عليها جل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها . . ويقول عنها ابن حوقل إنها كانت فى أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتى ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط فى وقت الصيف إذا علا النيل ، وفى المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة . بتلر ٢٥١ . قلت : وإشارة ابن حوقل (والنص الأصلى ص ٩١ ولها عامل عليها ، ومعه خيل ورجل) إلى المسلحة تضيف دليلا جديداً على أهمية الكريون الحربية .

وجنوبها الشرقى . . ولعل هذا هو الموضع الذى يذكره ابن عبد الحكم حيث يقول « إن المسلمين نزلوا ما بين حُلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك[١] » .

وحين استطال الحصار خلّف عمرو عدداً من أصحابه حول المدينة وعاد أدراجه إلى حصن بابليون الذى كان لا يزال محاصَراً . . وأغلب الظن أنه كان يُنْفِذ حينذاك جرائد الخيل هنا وهناك فى مصر السفلى أو فى مصر العليا ، ولعلّ أرض الصعيد قد دانت له فى هذه الفترة على يديه بما بعث من سرايا تولاّها هو أو قواده .

ومهما يكن من شىء فقد كان العرب مضطرين إلى أن يطاولوا حصار الإسكندرية لأنهم لا يملكون من القوة أو من العدة ما يهدّون به هذه الأسوار الضخمة التى كانت حصناً من دون حصن كما يقول ابن عبد الحكم ، وكان البحر من وراء الروم كفيلاً أن يوفر لهم أمدادهم المتصلة « فكان رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادة الروم[٢] » .

ولعبت الظروف الخارجية هنا دوراً كبيراً ، فقد رأينا أن المقوقس كان فاوض عمراً فى حصار بابليون وحمل شروط الصلح إلى القسطنطينية ، غير أن الامبراطور هرقل رفضها ورأى فى سلوك المقوقس مايساعده على أن يتهمه بالخيانة ، فعزله عن عمله واستبقاه فى القسطنطينية أونفاه لاندرى . . غير أن هرقل مات فى فبراير « شباط » من سنة ٦٤١ وخلفه ابنه قسطنطين الثانى وهو حَدَث ، وتولت الوصاية عليه أمّه وطائفة من القواد ، فساعدت هذه الظروفُ السياسيةُ الجديدة المقوقسَ على أن يستردّ مكانته ورضى عنه المشرفون على الدولة وأعادوه إلى الإسكندرية ، مفوّضين له السعى إلى الصلح فقد « كانوا مضطرين أن يتركوا أحداث الشرق تجرى فى سبيل مظنّ لحاجتهم إلى الجيش فى العاصمة نفسها للقضاء على الثورات ولأنهم كانوا فى حروب ضد اللومبارديين فى إيطاليا[٣] » .

---

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٧ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٨ — ٦٩

(٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/١١٩ — ١٢٠

ووصل المقوقس إلى الإسكندرية ومِنْ حولها جنودُ المسلمين يحاصرونها قدر ما يتيح لهم عديدهم وعُدَّتهم وموقعُ الاسكندرية من قوةٍ على الحصار ، وكان من سياسته منذ حلّ العربُ فى البلاد ، أن يصالحهم وأن يمالئهم ، وأن يتنقذ البلاد من سلطانهم المباشر بما يرتضى معهم من عقد أو جزية « ولعله كان يطمح أن يدير شؤون البلاد تحت رعاية المسلمين[1] » . ولذلك فقد أسرع منذ عاد وعادت معه ولايته على مصر ، فشق طريقه إلى حصن بابليون حيث كان عمرو بن العاص يدير حركات بعوثه فى أطراف مصر — ليفاوضه فى الصلح .

وانتهى الأمر بين المقوقس وعمرو فى بابليون إلى هذه المعاهدة التى اصطلح المحدثون على تسميتها بمعاهدة الإسكندرية « ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ » لأن أكثر شروطها يتصل بالإسكندرية من نحو ولأن هذه التسمية تميزها عن معاهدة بابليون الأولى من نحو آخر[2] .

وكان أبرز البنود فى معاهدة الاسكندرية هذه ، الجزية للذين يؤثرون البقاء فى ظلال المسلمين ، والأمن للذين يريدون الالتحاق بالروم ، والمهدنة أحد عشر شهراً « تنتهى فى سبتمبر ٦٤٢ م أواخر ٢١ هـ » يرجع فيها المسلمون عن الإسكندرية فلا يدخلونها عامهم هذا ويتيحون لجيش الروم أن يرتحل عن مصر إلى بلاده الأصلية .

وكذلك شهد المسلمون وبخاصة الصحابة الذين كانوا هنا ، ما كانوا شهدوا فى الحديبية منذ أربعة عشر عاما « ٦ هـ ٦٢٧ م » حين سار النبى صلى الله عليه وسلم فى صحابته إلى مكة ليعتمر ، ثم ارتضى مع أهل مكة صلحَه أن يرجع عنهم عامهم هذا ، غير أن الرسول لقى فى الحديبية معارضة عنيفة ولقى من عمر بوجه خاص ثورة قاسية كان يهدر فيها بقوله « كيف نرضى الدنية فى ديننا » ، أما هنا فلم يلق عمرو مقاومة المسلمين ولا ثورة عمر . . . كانت التربية الإسلامية قد آتت أكلها ، فى مدى هذه الأعوام .

---

(١) بتلر فتح العرب لمصر ٢١٩

(٢) سيدة إسماعيل كاشف مصر فى فجر الإسلام ١٤

أضحى فى وسعنا أن نقول إذن إن الإسكندرية قد استسلمت دون كبير قتال[1] وإن المسلمين وضعوا يدهم على العاصمة الأولى لمصر ، والعاصمة الثانية للإمبراطورية البيزنطية ، هذه المدينة النادرة التى يحدثنا عنها الرحالة الذين مرّوا بها فى تلك العصور أعجب الأحاديث ، ويقصون من أمر أبنيتها ومدارسها ومكاتبها وفلسفتها الشىء الكثير[2] .. وسيرث المسلمون ذلك كلّه وسيتصلون به عن قرب . كانوا يستمعون إليه من خلال أحاديث التجار أو الرحّالة ، أما اليوم فهم يواجهون هذا التراث التليد . . سيواجهون صوراً رائعة من البناء فى القباب والمسلات والقصور ، ومظاهر جميلة من الدين فى المعابد والكنائس والأديرة ، ومواد مجموعة من الثقافة فى المكتبات العامة والخاصة .. وسيرون ميناء الإسكندرية بمنارته العجيبة « الفاروس » وهذه المرآة العظيمة التى تعكس فى النهار أشعة الشمس ، وتعكس فى الليل أشعة النيران المتقدة لتهدى بها السفن . وسيتأثرون بذلك كله وسيفيدون منه علماً واقتباساً ، تجربة وتقليداً ، ولعلهم أن يبنوا مآذن الفسطاط ومساجده وقصوره على مثال ما رأوا وما شهدوا .

٩ — ردّة : وكذلك يبدو أن الأمر قد استقاد للمسلمين فى مصر ، وأنهم بدءوا يمارسون حياتهم السلمية ، ينشئون الفسطاط ويحفرون القناة التى تصل بين النيل والبحر « قناة تراجان » لتقرّب بينهم وبين أصولهم الأولى فى الجزيرة ومُنْطَلَقِهِم الأول فى المدينة بوجه خاص . . ولكننا لا نكاد نقطع سنوات ثلاثاً حتى نجد موجة من الارتداد على مثال هذه الموجات التى جابهت المسلمين فى الجزيرة والشام والعراق على السواء ، وتبدأ هذه الموجة هديرها من الإسكندرية فتنتقض المدينة وتنكث ما بينها وبين المسلمين من عهد فى سنة ٦٤٥ ، ويلتقى أهلها مع الإمبراطور قسطنطين على مؤامرة واسعة غرضها الثورة بالمسلمين واستنقاذ مصر منهم ، ويصل

---

(١) اقرأ فى ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٨ قتالا بكنيسة الذهب قُتل فيه من المسلمين اثنا عشر رجلا .

(٢) اقرأ فى بتلر ٢١٩ فصلا عنوانه : وصف الاسكندرية عند الفتح .

إلى الإسكندرية أسطول بيزنطى عظيم ضخم بقيادة « منويل » الخصىّ الأرمنى ، فيحتلها وينكّل بحاميتها المسلمة ، ويمضى بعد فى صميم الأرض المصرية .

وكان عمرو بن العاص قد عُزل من مصر ، عزله عثمان وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه ، غير أن حرج الموقف اضطر الخليفة إلى أن يستعين بالقائد القديم المحنك فقد « سأل أهلُ مصر عثمانَ أن يقرّ عمراً حتى يفرغ من قتال الروم لأنّ له معرفة بالحرب وهيبة فى أنفس العدو » ففعل[1] وعاد عمرو يستأنف عمله العظيم ، والتقى الرومَ فى نقيوس ، ودارت من جديد فى هذه المدينة معركة ضخمة عُقِر فيها فرس عمرو من تحته ، فقاتل راجلاً ، وانتهت بانتصار المسلمين ومطاردتهم الرومَ واستيلائهم على الإسكندرية ثانية فى ٦٤٦، أوائلَ السنة الخامسة والعشرين للهجرة. وأما فى هذه المرة فلم يدع عمرو أسوارها كما فعل فى المرة السابقة ، وإنما سوّاها بالتراب حتى يؤنس الروم من عودة جديدة .

ومع ذلك فإن الروم لم تؤنسهم هزيمتهم ؛ فقد حاولوا بعد تسع سنوات فى عهد الإمبراطور قسطانز أن يعاودوا هجماتهم البحرية وأعدوا لذلك ، كما أعدوا من قبل ، أسطولا جديداً[2] ، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر وعرفوه وحذقوه . فأوقعوا بالأسطول البيزنطى ، ولقيت فلوله المشتتة عاصفة هوجاء أتت عليها ، واستتبّ الأمر للمسلمين ، إلا ما كان من غارات صغيرة غادرة يقوم بها البحارة القرصان على مدن الساحل ثم يرتدون .

١٠ — النوبة : وحين استقاد للمسلمين إقليم مصر كله ، ما بين الإسكندرية وأسوان، اتجهت بعض بعوث الجيش، تأميناً للحدود أو طلباً للتوسع، نحو الجنوب إلى بلاد النوبة حيث كانت تضرب القبائل فى أرض بينها وبين أرض الجزيرة شبه من نحو ، وصلات تجارية من نحو آخر .. فأما الشبه ففى هذه الحياة القبلية فى أرض تغلب عليها الصحراء ، وأما الصلات ففى الذى كان من تسرّب التجار العرب فى الجاهلية إلى مصر والسودان معا . .

---

(١) البلاذرى الخطط ٢٢٣ (٢) بتلر ٤٢٤

ولعل هذه الصلات وما كان من غلبة المسلمين على مصر ومتاخمتهم لأرض النوبة هى التى أغرتهم بهذه البعوث ، ولعل الشبه فى طبيعة الحياة والأرض هو الذى جعل فتح هذه المناطق قاسياً عسيراً ، ويحدثنا المؤرخون أن جيش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع — فيما يروى البلاذرى[١] — اضطر أن يعود بعد معركة قاسية نسميها « موقعة الحدَق » إذ أصابت فيها سهامُ أهل النوبة أحداقَ المسلمين « فقفلوا بالجراحات وذَهابِ الحَدَقِ من جودة الرمى ، وسُمِّى أهل النوبة رماةَ الحدق[٢] » ، وظل القتال ينشب بعد ذلك حتى انتهى إلى صلح فى خلافة عثمان وولاية عبد الله ابن سعد بن أبى سرح على : « هدية عدة رؤس منهم يؤدونهم إلى المسلمين فى كل سنة ، ويهدى إليهم المسلمون فى كل سنة طعاماً مسمى وكسوة من نحو ذلك[٢] » . وهو صلح يبدو بصورته هذه المرة الأولى فى تاريخ الفتوح الإسلامية ، وقد أمضاه عثمان ومَنْ بعده من الولاة والأمراء ، وأقرّه عمر بن عبد العزيز « نظراً منه للمسلمين و إبقاء عليهم[٢] » .

ويبدو من هذا النص الذى ذيَّل به الطبرى هذا الحديث أن السودان قد استعصى على الفتح وأنه كان عسيراً على المسلمين ، حتى ليضطر الخليفة إلى إقرار هذا الصلح إبقاء منه عليهم .. ولعل المسلمين لم يجدوا فى اقتحام هذه البلاد ما يغريهم فتركوا أمر الدعوة فيها ، يحملها التجار أو الدعاة المتطوِّعون . ولعل التماسك الدينى فى هذه القبائل البدوية لم يمكِّن لهم من أن يُنفِذوا الفتح ، ولعلّهم كذلك لم يشاءوا أن يقاربوا الحبشة تقديراً لما كان من صنيعها فى إيواء أصحاب الهجرة الأولى ، أو حذراً من إثارة ما بينها و بين جنوب بلاد العرب من ثارات ، وتفادياً لما يكون من إشرافها على اليمن كما يشرف السيف المسلط . ولهذا السبب أو ذاك مضى المسلمون يجوبون البلاد فى غربى مصر ويجهزون على ما تبقى من ولايات الإمبراطورية البيزنطية فى هذا الصقع من الأرض .

---

(١) البلاذرى ٢٣٦ ـ ٢٣٧ وقد سكت الطبرى عن ذكر القائد

(٢) الطبرى ١/٥/٢٥٩٣

١١ — برقة وطرابلس : والأسباب التى حدت بالمسلمين أن يتقدموا من الشام إلى مصر توشك أن تكون هى الأسباب التى حدت بهم بعد ذلك أن يتقدموا من مصر إلى ليبيا ، وأن يضربوا بعد ذلك فيما وراءها . . فسلامة الاسكندرية تقتضى حماية ما يليها من أرض برقة ، والحدود بين برقة ومصر لا يمكن أن توصف فى أى مكان منها أنها حدود فاصلة ، بل لقد كان من صنيع جوستنيان أن يعوّض حاكم إقليم ليبيا عن فقر إقليمه بأن يضم إليه إقليم مريوط غربى الإسكندرية وهو إقليم مصرى خالص[1] . ولم تكن الطرق بين هذين المصرين طرقاً شائكة ولا عوائق قائمة ولا صحراء مجدبة كما نراها اليوم ، وإنما هى سبيل مطروقة طرقها الفرس حين ساروا إلى برقة فافتتحوها ، وطرقها نيقتاس حين شارك هرقل فى الثورة على فوكاس فمضى من برقة إلى الإسكندرية مُساحلا كما يقول الأستاذ بتلر ، وإنما هى كذلك سبيل تعمرها المدن ، وتتكاثر فيها بساتين النخل وتزدهر فيها الخصوبة ، ولذلك «لم يلق المسلمون فى فتح برقة كبير كيد ، والسيوطى يذكر أنه لم يذهب إلى الفتح إلا الخيل[2] » وهذه السهولة فى الفتح جعلت الروايات عنه مقتضبة مختصرة ، فلم تكن هناك دماء ومعارك تتيح لنا بعض التفاصيل ، وتتيح لنا هذه التفاصيل بدورها أن نكشف عن الوجه الاجتماعى لحركة الفتح . وكل ما ذكره الطبرى أن عمراً سار إلى انطابلس ، وهى برقة ، فافتتحها وصالح أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبوا فى جزيتهم ..[3] وأنه بعث عقبة بن نافع الفهرى فافتتح زَوِيلة بصلح ، وما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين[4] .

ولم يكتف عمرو ببرقة وإنما سار إلى طرابلس وكانت مسلحةً للروم، فحاصرها أسابيع ، وصبرت على الحصار لعلها تتلقى مدداً من الروم ، ثم استسلمت له بعد ذلك وخضعت هذه المنطقة للمسلمين ، ودانت لهم قبائل اللواتة ، وامتدّ المسلمون بعد ذلك

---

(١) بتلر ١٠

(٢) بتلر ٣٧٢

(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٤٥

(٤) الطبرى ١/٥/٢٦٤٦ والبلاذرى ٢٢٤

فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى سرايا صغيرة إلى إفريقية واحتلوا البلاد التى عاصمتها قرطاجنة وأخذوا منها الخراج . . وسنرى ذلك بعد إن شاء الله فى الفصل المقبل إذ نتحدث عن فتح ولاية إفريقية .

* * *

آية هذا كله أن المسلمين تقدموا نحو مصر تحت ضغط طائفة من البواعث التى تحدثنا عنها فافتتحوها وساقتهم هذه البواعث نحو الغرب ، فمضوا يغيرون على برقة وطرابلس و يصالحون أهلها ، ثم اضطرتهم حدودهم الجنوبية أن يخوضوا معارك مع النوبة انتهت إلى عقدٍ بينهم وبينهم — وأن افتتاح مصر كان قفزةً بالمسلمين نحو القارة الجديدة ، نحو إفريقية التى ستلعب فى تاريخهم بعدُ دوراً ملحوظاً والتى ستسوقهم بدورها إلى أوربا . . كانوا يحاربون حتى الآن فى آسيا ، أما بعد فقد ربطت مصر بينهم وبين القارة الجديدة ، ووسّعت من مطلاّتهم على البحر الأبيض ودفعتهم وراء إيالات الإمبراطورية البيزنطية المتفككة — ولم تكتف مصر بذلك ولكنها استقادت للإسلام والعربية ونزلت لهما عن كل ماضيها الثقافى ، وأضحت فيما بعد قلبَ العالم الإسلامى وذخيرته التى يلجأ إليها فى النوائب والملمات .

وفى هذا القرن الذى نتحدث عنه لقنت مصرُ العربَ درساً لن ينسوا أثره وفضله، إنها نقلتهم نقلة رائعة من الحياة البرية إلى الحياة البحرية ، وقتلت هذا الوهم الذى يحدثنا الرواة ، ماحِّين ، أنه كان يملأ نفوسهم خوفاً من البحر ، وربما تعاونت معهم الشام — فى خطٍ ضئيل أو جليل — على صياغة البحرية الإسلامية التى سيكون لها شأنها فيما تستقبل الدولة الإسلامية من أحداث . . ولكن مصر ، بحكم أنها كانت القاعدة البحرية الأولى ، هى التى لقنت المسلمين أبجدية هذا الدرس ، ولعل الشام أن تكون أمدته بمواده الأولى بحكم ما فى جبالها من أحراج ، وما فى أحراجها من أخشاب ، وما فى بعض سواحلها من مراكز بحرية .

وقد كان المسلمون أو قادتهم بخاصة ، على قدر كبير من الزكانة والفطنة ، إذ تنبهوا إلى ذلك وأفادوا منه ، وأقبلوا عليه ، وأدركوا أن غلبة بيزنطة لن تكون غلبة حاسمة إن لم يتهيأ لهم أن يقابلوا أسطولها بأسطول مثله ، وإلا فهى لن تتأخر

عن مناجزتهم القتال ، ولن تجبن أن تهاجم سواحلهم ، وأن تكون مصدر إزعاج دائم لهم ، وأن تحول بينهم و بين حريتهم فى التجارة ، و بينهم و بين أمنهم فى الساحل والداخل ، و بينهم و بين أن تنقاد لهم هذه الرعايا التى عاشت تحت حكم البيزنطيين قروناً طوالا .

وكان هذا هو أكبر الفروق بين فتح الفرس لمصر ، و بين فتح العرب لمصر .. فقد غفل الفرس عن هذه الثقافة البحرية ، فلم يجاوزوا حدود الحركات البريّة ، ولم يدركوا أن انتقالهم إلى ممارسة البحر ، كان يمكن أن يحجب غلبة البيزنطيين لهم ومعاودتَهم الكرّة عليهم أو يؤخرّها ، ولذلك لم يقدروا هذه الثروة التى وقعت لهم ، على حين أدرك المسلمون ذلك كله . . فلما حاول الإمبراطور قسطانز معاودة الهجوم على الإسكندرية ، سرعان ما قابله أسطولهم الصغير فردّه وحمى الإسكندرية منه .

ولن يستطيع بيانٌ مهما أوتى من قدرة ، أن يفى ما كان من تحرير مصر وغلبة المسلمين عليها من أثرٍ بالغ فى التاريخ الإسلامى ، ولعل الأحاديث الكثيرة التى قدّم بها ابن عبد الحكم كتابه عن فضائل مصر ، وعن وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يغفى إغفاءة الموت ، ويصحو صحوة اليقظة الأخيرة ، كانت بعض الانعكاس فى ضمير الجماعة الإسلامية لهذا الأثر .

وسيتقدم المسلمون بعد مصر وطرابلس و برقة إلى الغرب حتى يبلغوا المحيط .
وسنتابع فى الفصل المقبل بحول من الله وقوة هذه الحركة الجديدة .

القسم الثالث

موقف السكان من حركة الفتح

نستطيع أن نتبين موقف مصر من حركة الفتح إذا نحن تعرفنا إلى موقف الطبقات التى كان يتألف منها المجتمع المصرى غداة انتشرت فى أرضه الدعوة الإسلامية . . فما هى العناصر التى كانت تصوغ هذا المجتمع ، وكيف كان تآلفه ؟ .

١ — المجتمع المصرى (طبقتان متمايزتان) :

كانت مصر ولايةً من ولايات الدولة البيزنطية ولكنها ولاية ممتازة ، وكان غناها وموقعها فى قلب القارات الثلاث ، وتلاقى الطرق التجارية العالمية فى أرضها ووجودها فى مقدمة الولايات البيزنطية الأخرى فى شمال إفريقية ، كلّ ذلك اضطرها أن تكون مثابة لكثير من الروم يلجأون إليها يقصدون التجارة العريضة أو الحياة الواسعة و يعيشون فى أرضها يتناسلون ويتكاثرون ، تشجعهم الدولة أو تحميهم، ويمكّن لهم خصب الأرض ، و يغريهم و يساعد على تكاثرهم صناعةُ الحكم أو وظائف الإدارة أو مرافق التجارة أو قاعدة الأسطول فى الإسكندرية أو ما إلى ذلك من أمور كثيرة حبّبت بهذه الأرض الطيبة كلّ الجماعات التى كانت لها بها صلة ، أو كان بينها و بينها من سبيل .

ولهذا لم يكن كلّ من فى مصر آنذاك من المصريين أنفسهم ، وإنما كانت هناك كثرة كثيرة من البيزنطيين الذين استقر بهم المقام فى السواحل أو فى الأرياف، فى المراكز الكبرى وعلى ضفاف الفروع الكبيرة للنيل، وكانت هذه الكثرة توشك أن تحجب وجه مصر الأصيل فى بعض المدن كالإسكندرية مثلا ، وكانت تعيش إلى جانب السكان فى بعض المدن الأخرى ، وكانت تأخذ سبيلها على كل حال إلى الاندماج فى هذا المجتمع المصرى والانصياع له على تدرّج فى هذا الاندماج و بطء .

غير أن عاملا خطيراً فى الحياة آنذاك لم يكن ليسّهل هذا الاندماج . . كان يجعل بين المصريين و بين الروم حاجزاً مكيناً يحول بينهم و بين أن ينصهروا فى كتلة واحدة ، بل كان كثيراً مايثير بينهم الإحن ، و يبعث الخصومات ، و يؤجج الروح القومية أن تخبو أو تذبل ، وذلك هو العقيدة الدينية .

وقد كانت هذه العقيدة الدينية دائما مثاراً للخصومات بين المصريين والروم .. كانت كذلك فى الماضى القريب حين انتهى البيزنطيون فى مجمع خلقدونية « ٤٥١ م » إلى القول بالطبيعتين ، على حين أنف المصريون أن يعدلوا عن مذهبهم بالطبيعة الواحدة « المونوفيستية » . . وكانت كذلك فى الحاضر الذى رافق الحركة

الإسلامية حين عمد هرقل أن يصرف الناس عن الخوض فى الطبيعة والطبيعتين إلى بدعة القول بأن للمسيح مشيئة واحدة « مونوثيلية » وهى البدعة التى أوجدها له سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، يريد أن يتبع نصرَه السياسى ، فى استنقاذ الامبراطورية من الفرس وجمع أطرافها ، نصراً دينيا آخر يؤلف به بين الناس ويجمعهم على مذهب واحد ، حتى يدهم به العالم قوةً لا تناقض فيها ولا تعارض بين وجهاتها السياسية والدينية . . ولكن لم يفد من ذلك شيئا إلا أنه شقّق الخلافَ وأضاف إلى البِدَع الموجودة من قبلُ بدعةً جديدة . . ولكنه ، كذلك ، إنما خسر كثيراً فقد عجز المقوقس « قيرس » الذى وكل إليه تنفيذ هذه السياسة فى مصر وجمع له السلطة الدينية والمدنية أن يوفَّق فى ذلك عن سوء سياسة منه أو عن عناد من المصريين أو عن الأمرين جميعا ، فلم يزد عمله على أن يكون تأريثاً للخصومات وتمكينا لها فى القلوب .

وقد كانت هذه الخصومة الدينية كذلك بعيدة الجذور ترجع إلى الماضى البعيد، فنحن نعلم أن مصر من أولى الأقطار التى أقبلت عليها المسيحية فاستقبلتها وأحسنت استقبالها ، وأفسحت لها فى ضمائرها وبلادها ، فى صدرها وأرضها ، تقيم الكنائس وتبنى الأديرة وتضمّ إليها الناس. ونحن نعلم كذلك أن هذه المسيحية حوربت حربا عنيفة : حاربتها روما طوال القرون الثلاثة الأولى وحاربت كل الذين التفوا حولها من رعايا الامبراطورية وأصلتهم ناراً من الاضطهاد والعسف . . وظل الأمر كذلك فى هذا العداء القوى وما يورّث هذا العداء من كره وأحقاد حتى كان عهد الامبراطور قسطنطين الأول «٢٢٣ — ٢٣٧» حيث بدا فى سياسة روما بعضُ التسامح ، واعتبرت الديانةُ المسيحية إحدى الديانات التى اعترفت بها الامبراطورية . . فلما كان عهد تيودوسيوس الأول «٢٧٩ — ٣٩٥» كانت هذه النقلة الواسعة ، إذ اعتُبرت المسيحية الديانةَ الرسمية للامبراطورية جميعاً . . غير أن هذه الوحدة التى أضفتها الدولة على ما بينها وبين رعاياها لم يقدَّر لها أن تعيش طويلا ، فقد فُهمت المسيحية فى بعض الأقطار على غير ما فهمت فى بعض الأقطار الأخرى ، واتخذت بعضُ الأمم التى

كانت تخضع للامبراطورية من أسلوبها فى التدين وطريقتها فى العقيدة مجالاً تتنفس فيه تنفّسها القومى ، فلم تسمح الدولة أن تمد عليها ظلالا من مذهبها الخاص . فكان من ذلك هذه الفروق بين المذهب الرسمى الملكانى أو الخلقدونى و بين المذهب المونوفيسى أو الأرثوذكسى أو اليعقوبى فى مصر والشام .

وكذلك يبدو أن المجتمع المصرى كان مؤلفاً من طبقتين متباعدتين ، باعدت بينهما الفروق الجنسية ، ثم لم يستطع الدين الواحد أن يغطى هذه الفروق ، وأن يملأ هذا البعد ، و إنما زاد التعصبُ الدينى والخصوماتُ الفكرية وما يستتر وراء ذلك من عوامل قومية — هذا البعدَ اتساعاً وهذه الفروق وضوحا . . فإذا العرب فى مصر يواجهون طبقتين من الناس ، طبقة الروم وطبقة القبط . . طبقة الشعب ، وطبقة الحكام . . طبقة القائلين بالطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة وطبقة القائلين بالطبيعتين . . طبقة تنتمى إلى جنس من الناس : وطبقة تنتمى إلى جنس آخر . . طبقة تتحدث لغة ، وطبقة تتحدث لغة أخرى . . كان هنالك كل هذه الفروق الصارخة ، غير أن ازدهار الإمبراطورية وضخامة سلطانها كان يُسْكِتُ فى هذه الفروق صراحتَها وصرختها ، وكان يسبغ على ألوانها الواضحة المتميزة لوناً واحداً من النظام الإدارى ومن الوحدة السياسية ، يلفّها و يغطّيها . . فهل كشفت هجرة الإسلام عن هذه الألوان ؟ وهل كان انتشاره مثاراً لهذه الفروق أن تظهر وأن تتفتح ؟ . هل وجد السكان الأصليون فيه مُتَنَفَّسهم ، أم كانت قسوة التجارب الماضية قد علمتهم الحذر ، وأوحت إليهم بالتربص ؟ .

٢ — الروم :

ا — المقاومون : من الطبيعى أن يقف الروم فى مصر من الموجة الإسلامية الدافقة موقفاً معارضاً فهذا ما توحى به طبيعة الأشياء . فالعرب إنما ينازعون الروم سلطانهم على هذه الأرض ، ويلزمونهم الجزية إن أبوا الإسلام ، ويأخذونهم مأخذ التابع بعد أن كان موقفهم موقف الأصيل ، ويهشّمون أطراف مملكتهم فى الشمال والجنوب ، يجلونهم عن سورية و ينفونهم عن مصر ويحاولون أن يغلبوهم على كل بقعة

من الأرض لهم فيها ظل . . ولذلك لن يمتاز موقفهم بغير المقاومة القوية ، والعنف الشديد ، ولذلك أيضاً تولّوْا هم أمرَ هذه المقاومة فى كل المواقع التى دارت فى مصر ؛ فلما انهارت هذه المقاومة بالاستيلاء على الإسكندرية وانتهى الأمر إلى هدنة وصلح عاودوا ، كرة أخرى ، الثورةَ بالمسلمين ، فنقضوا ما بينهم من عهد ، واستمدّوا القسطنطينية فأمدتهم بأسطول « منويل » وانقضوا يوغلون حتى أوشكوا أن يبلغوا الفسطاط ، لولا أن ردهم المسلمون ثانية إلى ما وراء أسوار الإسكندرية .

ب — المسالمون : على أنه يبدو أننا نستطيع أن نميز فى موقف الروم موقف جماعة كانت قد اطمأنت إلى الحياة فى مصر واستقرّ أمرها فيها . . ليست هى هذه الطبقة التي بيدها أمر الجيش أو أمر الإدارة ، وليست هى هذه الطبقة التى تمارس السلطان وتقوم بالحكم ، وإنما هى طبقة خلصت إلى صميم الحياة المصرية : آلفتها وامتزجت بها ، وطبعتها وتلقت طوابعها ، وأُنسِيت ما كان بينها وبين مواطنها الأولى، أياً كانت هذه المواطن فى أرمينية أو آسيا الصغرى أو القسطنطينية ، وعادت جزءاً من الأرض التى تعيش عليها والوطن الذى تتقلب فيه . . هذه الطبقة لم تقف من الحركة الإسلامية موقف أكثر الروم ، وإنما هى انساقت فيما انساق فيه قبط مصر من حذرٍ مرة ، ومن لين مرة أخرى ، وربما استجاب بعضها للإسلام رغبةً أو زُلفى ، فآمنت به أو ساعدت أهله ، وكانت له فى موقف المناصر الودود . . وسنرى حين نرصد انتشار الإسلام[1] أمثلةً تنبىء عن هذه الجماعة وتدل عليها .

حـ — الطامعون : وجماعة ثالثة من الروم تتميز كذلك خلال حركة الفتح بموقف خاص غير موقف المقاومة وغير موقف المسالمة . . وتلك هى الجماعة التى خالطها الإيمان بأن الإمبراطورية البيزنطية لن تستطيع أن تقف طويلاً أمام هذه الدفقة المتدفقة من الجزيرة العربية . . أو هى على الأقل لن تستطيع أن تبقى على صلاتها بمصر منذ أن استطاع المسلمون أن يقطعوا ما بينها وبينها حين استولوا على سورية ففصلوا رأس الإمبراطورية عن أطرافها . . ولذلك لن تستطيع هذه الأطراف على ذلك صبراً ، ولن يستطيع البحر أن يجمع شملها . فسيجترىء العرب على البحر ، وسيقبلون عليه

(١) ت : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ١٥٢

وسيحولون بينه و بين أن يكون طريقاً للإمبراطورية ، وسيفصمون كل العرى بين الإسكندرية والقسطنطينية .. وليس فى وسع مصر وحدها أن تقاوم كذلك ، وليس فى وسعها أن تنحاز إلى هذا الدين الجديد .. فليس هناك إلا أن تدارى هذه الجماعة الإسلامية بالجزية ، وأن تدرأ عنها الحرب بالصلح ، فالصلح وحده كفيل أن يحفظ عليها بقاءها وأنفسها وأموالها وذراريها .

هذه الطبقة الثالثة الطامعة كانت قلة كذلك ، ولعل خير من يمثلها المقوقس . فقد كانت سياسته مع المسلمين تشعر المتتبع لها أنه قد نفض يديه من بيزنطة ، وأنه خيرٌ له أن يملأ يديه من هذه الدولة المقبلة وأن يدور فى فلكها . . ولعل خير ما يمثل هذه السياسة كذلك هذا الحديث الذى رَوَوْا أنه دار بين المقوقس وأصحابه حين كانوا يتشاورون فى شروط المسلمين : « أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوهم إليها طائعين لتجيبُنَّهم إلى ما هو أعظم منها كارهين . . فقالوا : وأى خصلة نجيب إليها ؟ قال إذن أخبركم : أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقوَوْا عليهم ، وإن تصبروا صبرهم ، ولابدّ من الثالثة . . قالوا فنكون لهم عبيدا أبداً ؟ قال نعم تكونون عبيداً مسلَّطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم[1] » .

وكذلك يبدو أن موقف الروم كان موقف مقاومة لا شك فى ذلك . . ولكن إلى جانب هذه الكثرة المقاومة ، قلة مسالمة من نحو ، وقلة طامعة من نحو آخر .. وما من شك فى أن هذه القلة التى كانت تحيط بالكثرة المقاومة من يمين أو يسار ، لن تعدم أن تترك أثرها ، تافهاً أو باهتاً ، فى استلاب المقاومة بعض روحها واندفاعها .

٣ — القبط :

ماذا كان موقف القبط من الحركة الإسلامية ؟

فى فتوح العراق والشام رأينا أن المحدثين من المؤرخين كانوا يتحدثون

---

(١) ابن عبد الحكم ٦٣ .

عن الترحيب الذى لقيه المسلمون من عرب الضاحية ، وأبنّا أن أسطورة الترحيب هذه لم تكن إلا استنتاجاً خاطئاً عن صلات القربى والدم بين عرب الجزيرة وعرب الشام والعراق ، دفعت إليه وتعلقت به أهواء وأغراض أرادت أن تعرّى الحركة الإسلامية من وقدتها الذاتية . . ولكنا هنا فى مصر أمام شىء آخر لا يحدّث به المتأخرون من المؤرخين ، وإنما يتحدث به المتقدمون من المؤرخين الإسلاميين أنفسهم ، فيذكرون فى مواقف كثيرة من مراحل الفتح أن الأقباط كانوا عوناً للمسلمين فى فتوحهم ، وقد يشيدون بهذه المعاونة فى أكثر الأحيان ، وقد يسكتون عنها ، ولكن الفكرة العامة التى يخرج بها المتتبع أن ميول القبط لم تكن على الأقل ميولاً معادية للحركة الإسلامية ، وأنه كان بين موقف الأقباط و بين موقف الروم هوّة هائلة لا سبيل إلى تجاوزها وإنكارها .

ذلك ما يقوله المؤرخون الإسلاميون ، وما يبدو من خلال روايات الفتح . . غير أن نفراً من المؤرخين المحدثين ، لعل الأستاذ بتلر على رأسهم ، يتصدّى لذلك فينكره و يزعزعه ويحاول أن يكفكف من أطرافه . . بل إنه ليقيم مؤلفه النفيس « فتح العرب لمصر » على[1] فكرتين أساسيتين هما محور فصول كل كتابه — أولاهما أن الإسلام لم يدخل مصر من غير حرب ، والثانية أن القبط لم يرحبوا بالفتح العربى رغم أنه جاءهم فى أعقاب اضطهاد دينى شنيع تولى قيرس أمره ، كما لم يرحبوا بالفتح الفارسى من قبل . . ويمضى فى ذلك يؤيّده ويؤكّده و يتصيّد له الأدلة والشواهد فى كل مراحل الكتاب وفى كل مواقف الفتح ، حتى ليوشك القارىء أن يؤمن أن هذا وحده كان الغرض الأصيل من إقامة هذا الكتاب .

وليس فى وسعنا فى هذا الحيز الضيق أن نتتبع كل ما قال الأستاذ بتلر فى كتابه ، وحسبنا أنه لم يستطع أن ينكر ما كان من مساعدة القبط المسلمين ، ولكنه يفسر

---

(١) بتلر ٢٠٩ « على فساد الرأيين اللذين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة ، وهما أن مصر سلمت للعرب بغير قتال وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه » .

هذه المساعدة بأنها فردية مرة — وأنهـا اضطرارية « ليست مساعدة الراغب المختار بل عمل المجبر المضطر[١] » مرة أخرى — وأنها « ضئيلة لا تعدو بعض الأمور[٢] » حيناً — وأنها مِنْ بعض مَنْ أسلم من القبط حيناً آخر — ثم هو يفسرها فى غير هذه الصفحات بأنها محدودة ومعينة لغرض خاص ولم تكن مساعدة عامة[٣] .. وأخيراً يلجأ ، حين لا يجد أن ذلك التفسير كله ينهض بالحقيقة و يقف لها ، إلى تحديد تاريخ هذه المساعدة فيجعلها تبدأ بعد فتح حصن بابليون[٤] . . وقد رأينا أن استسلام حصن بابليون كان فى ابريل من سنة ٦٤١ ، أعنى أواخر حركة الفتح ، لأن الإسكندرية استسلمت فى ١٠ نوفمبر من هذا العـام نفسه . . فـكأنما يجعل هذه المساعدة أمراً اضطرت إليه الظروف وألجأت إليه الحاجة ، حين أضحى وليس فى وسع القبط إلا أن يشاركوا المسلمين الحياةَ على هذه الأرض التى يملـكونها .

وقد اضطر الأستاذ بتلر فى سبيل ذلك كله إلى أن ينفى أو يؤول كثرة كثيرة من روايات المؤرخين المسلمين والمؤرخين الأقباط على السواء[٥] . ومن الواضح أنه ليس وراء عمل المؤرخين الإسلاميين حين يشيرون إلى مساعدة الأقباط من غرض أو باعث ، بل لو كان فى هذه الروايات مجالٌ للبواعث الخاصة لـكان الفخر يقتضيهم أن يسكتوا عن هذه المساعدات وأن يكتموا أمرها . . ومن الواضح أيضاً أن حنا النقيوسى الذى يعتمد عليه بتلر فى تاريخ هذه الفترة يشير إلى هذه المساعدة إشارة صريحة واضحة لا يخرجها عن صراحتها ووضوحها إلا تأويلُ الأستاذ بتلر لها وتصريفها فى غير وجهتها أو تضييق مداها أو تحويل تاريخها . ولم يكن حنا النقيوسى ليدارى المسلمين فى ذلك ولم يكن ليتملقهم فى هذا الحديث ، بل كان على العكس من ذلك ، فى فصوله

---

(١) فتح العرب لمصر ٢٠٧ (٢) فتح العرب لمصر ١٨٧

(٣) نفس المصدر ٢٠٧ هامش (٤) نفس المصدر ١٨٧

(٥) من ذلك مثلا أن حنا النقيوسى قال : إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها ص ١٨٧ وقد فسر هذه الغزوة أنها كانت فى أشهر الحصار الأولى ١٩٤ ولـكنه هنا عقب على مقالة حنا النقيوسى بقوله : ولا ندرى فى أى وقت كان هذا على التحقيق ولـكن من الجلى أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن بابليون .

الأخرى ، شديد القسوة عليهم شديد التعريض بولاتهم[١] .

فالمؤرخون الإسلاميون والأقباط وفريق من المحدثين الذين يشير إليهم الأستاذ بتلر كالأستاذ ويل Weil يجمعون على هذه المساعدة ويتحدثون عنها فى النماذج التالية

ا — يسوق ابن عبد الحكم فى كتابه طائفة من الروايات عن مساعدة القبط فى مراحل مختلفة من مراحل الفتح وعن طرق مختلفات من طرق الرواة : فهو يتحدث عن هذه المساعدة فى الفرما : « فيُقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا[٢] » — وهو يتحدث عنها بعد حصار بابليون: «وصارت لهم القبط أعوانا[٣] » — ثم هو يتحدث عنها حين خرج عمرو يضرب فى ريف مصر ويتجه إلى الإسكندرية « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم[٤] » — وهو يتحدث عنها أخيراً فى حصار الإسكندرية بعد الكريون : « فنزل المسلمون . . ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة[٥] »

إن ابن عبد الحكم وهو أقدم من كتب تاريخ فتوح مصر يتحدث إذن عن مساعدات القبط حديثاً واضحاً وهو يرجع بهذه المساعدات ، بنوع من الحذر دلّت عليه صيغة المجهول ، إلى أيام الفرما ولكنه يؤكدها فى حصار بابليون ، ثم هو يحدّد كذلك نوعها بأنها إصلاح الطرق وإقامة الجسور والأسواق ومدّ الجيش بما يحتاج إليه من طعام وعلوفة .

ب — ولايبعد غيرُ ابن عبد الحكم من المؤرخين الإسلاميين عن هذا النطاق. غير أن المقريزى وأبا المحاسن يذكران ما يفيد أن مساعدة القبط بدأت منذ بدأ المسلمون يدقون أبواب مصر فى الفرما وأن قبط الفرما قد ساعدوا العرب أثناء الحصار .

---

(١) يقول بتلر ٣٨٦ عن حنا النقيوسى : إنه لايتورع أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشد التهم .

(٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٤
(٣) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٥
(٤) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٦
(٥) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٧

ﺣ — أما المؤرخ حنا النقيوسى فيقول فى الصفحة ٥٥٩ من الفصل ٦٣[1] « وأخذ الناس يساعدون المسلمين » لكنه لا يحدد نوع المساعدة وإن كان يجعل تاريخها بعد الاستيلاء على إقليم الفرما .

د — أما الأستاذ وَيْل فينقل هذا الخبر عن حنا النقيوسى ويرى فيه قرينة ضد القبط .

غير أن الأستاذ بتلر يحاول أن ينقض ذلك كله فى تتبع دقيق ويحاول أن يوجّه فى هذه التفسيرات التى أشرت إليها ، فى صبر دائب وجهد متصل ، ويبلغ أن ينتقص من أقدار المؤلفين كما فعل إذ قال عن ويل إنه ليس بالباحث أو الناقد فى تاريخ ذلك العصر وأنه لم ير كتاب حنا النقيوسى الذى نقل عنه[2] . . غير أنه لا يستطيع أن ينتزع من نفوسنا هذا الأثر الواضح الذى تتركه أخبار الفتح عن مساعدةٍ ما ، مهما يكن من تاريخها وطبيعتها ، قدمها الأقباطُ للمسلمين . . بل إن الفصول البارعة التى كتبها بتلر عن اضطهاد البيزنطيين للأقباط وعن السنوات العشر التى قضاها المقوقس على رأس الإدارة المدنية والدينية يُكْرِه المصريين على مالا يودّون ، ويذيقهم ألواناً من العسف والاضطهاد . . هذه الفصول تبدو وكأنما هى تتناقض فى أعماقها مع حرصه على أن ينفى مساعدة القبط . . فما من شك أن الاضطهاد يدفع الأقباط أن يستشرفوا فى حركة الفتح العربى نوعاً من الإنقاذ ، وما من شك أيضاً فى أنهم استمعوا إلى أنباء هذه الحرية الدينية التى يتيحها المسلمون للناس وأنهم تلقّوْا ما ينعم به نصارى الشام من طمأنينة وقرءوا عن عهد عمر لأهل بيت المقدس الذى خلّى بينهم وبين عقائدهم وكنائسهم . . فلِمَ لا ينجون بأنفسهم من حكم بيزنطة القاسى ، وهم يدركون لاشك أن بيزنطة كالبرج المائل الذى تهدمت أسسه فهو لايلبث أن ينهار ، وأن الأسباب بينها وبين مصر قد تقطعت أو كادت ؟ .

قد يكون لاختلاف الدين أثره فى مثل هذه الأحوال ، غير أن أحداً لم يزعم

---

(١) عن بتلر ٢٠٧

(٢) بتلر ١٨٧ هامش .

أن الأقباط جُنِّدوا فى الحركة الإسلامية . . إنهم ، أو جماعة منهم ، قدموا هذه المساعدات التى يسّرت عملية الفتح من مثل ميرة الجيش و إقامة الجسور ، وإنهم قد يكونون قدّموها فى وقت مبكر ، ولو لم يَرِدْ عن هذه المساعدات أى خبر أو رواية لكان من الجائز أن نفترض وقوعها طوعاً أو كرهاً لأننا لم نشهد مقاومة القبط من نحو ، ولأن المسلمين هنا ، من نحو آخر ، يواجهون أرضا من طبيعة أخرى كثيرة القنوات والترع تملؤها الجسور والقناطر التى لم يعالجوا مثلها إلاّ فى العراق ، وقد تولى الدهاقين فى العراق ما تولى القبط فى مصر ، ورأينا كيف أن ابن صلوبا عقد الجسر للفريقين المتحاربين[1] . . وأن الدهاقين فى موقعة الجسر أقاموا الجسر الذى قطعه أحد الثقفيين المندفعين[2] .

مهما يكن من شىء فالذى لا شك فيه أن طبيعةَ العلائق السياسية والدينية بين بيزنطة ومصر و بخاصة فى السنوات العشر الأخيرة التى حدثنا عنها الأستاذ بتلر حديثَه المستفيض — وطبيعةَ الدعوة الإسلامية بما كانت تفيض من تسامح دينى — وطبيعة النفوس البشرية بما فُطرت عليه من تطلّع إلى الإنقاذ واستشراف إلى الخلاص ، كل ذلك يحول بيننا و بين أن ننكر أو نتأول هذه الروايات الإسلامية أو القبطية والمبكّرة منها بوجه خاص ، والتى كانت جدّ دقيقة فى الحديث عن نوع المساعدات المقدّمة .

آية هذا أن المجتمع المصرى كان ، من حيث موقفه من الفتوح ، طبقتين : فأما الروم فقد وقفوا موقف المقاومة وكانت منهم قلة مسالمة اعتصمت بالهدوء ، وطبقة طامعة أيدت المسلمين ، وأما القبط — وهم أكثر الطبقتين عددا — فقد وقفوا موقفاً مشرباً بالعطف ، ونظروا إلى المسلمين على أنهم منقذين ، ووجدوا فيهم مُتَنَفَّساً لمذاهبهم الدينية المكبوتة ، وقد عبّروا عن مشاعرهم هذه ببعض المساعدات للجيش المتقدم .

---

(١) الطبرى ٢١٧٧/٤/١   (٢) الطبرى ١/٤/ ٢١٧٩

الفصل الرابع

فتـــــــوح المغرب

القسم الأول

قبل الفتح

١ — نظرة تاريخية : كان المغرب ولايةً من الولايات البيزنطية غلب عليها الفنيقيون ثم آلت إلى الرومان ، وانتشرت فى أطرافها الساحلية بصورة خاصة مظاهرُ الحضارة اللاتينية ، وعاشت مع روما فى صلات متصلة : أسهمت فى تتويج بعض القياصرة أو عزلهم ، وكان مولودا فيها أو متزوجا منها بعضٌ آخر . ثم انهارت روما فآل أمر هذه الولاية إلى الوندال . حتى إذا كان ازدهار الإمبراطورية البيزنطية فى عهد جوستنيان ، استطاع أن يحتلها وأن يربط بينها وبين القسطنطينية ، وأن يبعث إليها بأحكامه وحكّامه .

ويلخص القولَ فى صلات هذه الولاية مع بيزنطة : أنه كان هناك حقدٌ مذهبى منشؤه ما بين المذهب الرسمى الملكانى والمذهب الشعبى اليعقوبى — ونفورٌ سياسى منشؤه خصومات وثورات متصلة — واضطهادٌ مالى يرتد إلى أن بيزنطة كانت تبتزّ خيرات هذه الولاية وتثقل عليها فى الضرائب.. وإفريقية ، فى ذلك كله ، صورة مصغرة لما كانت عليه مصر ، على بعض ما كان يورث الخلاف الحضارى من فروق .
فلما جاء الإسلام كان بين المغرب و بين بيزنطة هذا الانقطاع ، وكانت بيزنطة لاتزال تترنح تحت وطأة الهزيمة التى حلّت بها فى سورية ومصر فعجزت عن الدفاع ، ولذلك تقدم المسلمون لا يجدون مقاومة من الجيش البيزنطى ، ولكنهم عُوِّضوا عن ذلك سعةً واسعةً وطولاً طويلاً فى هذه البلاد لم يُمكِّن لهم أن يثبتوا أقدامهم فيها .. ولكنهم عوضوا عن ذلك أيضاً مقاومة عنيفة من السكان أنفسهم ومن البربر بوجه خاص على ما سنرى ذلك .

٢ — حدود إفريقية :

ا — عند البيزنطيين لم تكن ولاية إفريقية البيزنطية مستقرة الحدود ، فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حينا ، وكانت تتخلّى عنها لتكون فيما تشمل ولاية

مصرحيناً آخر. وكانت تمتد إلى الغرب تبعاً لامتداد نفو بيزنطة والمدى الذى تستطيع أن تنشر فيه سلطانها وتبسط ظلها . وعلى الجملة كانت قرطاجنة وما حولها وجهَ هذه الولاية الباسم وأبرز أجزائها ، وكان يغلب عليها أن تقتصر على السواحل وعلى الأراضى المتصلة بالسواحل بين برقة وطنجة . . فلم تكن لتمضى فى الضرب إلى الجنوب فيما وراء السهول الساحلية بل كانت تترك هذه الأقسام الداخلية إلى أبناء البلاد أنفسهم : تترك المدن والقرى إلى البربر الذين أصابوا نصيباً من التحضّر ، وتترك الواحات إلى القبائل التى لم تتأثر بالحياة المدنية البيزنطية . ونشأ عن ذلك أن أصبح فى وسعنا أن نميّز بين الأقسام الساحلية التى تبدو فيها كلّ المظاهر البيزنطية فى الإدارة والسياسة ، وفى اللغة والدين ، وفى كل مجالات الحضارة الأخرى ، وبين الأقسام الداخلية التى كانت تقف دائماً موقف النزاع والخصومة كما رأينا ، فلا يتيح ذلك للتأثيرات الحضارية أن تأخذ سبيلها إلى النمو ، إذ كانت تعصف بها الثورات ، وتدفنها القلاقل ، وتضع العداوات حدّا بينها وبين أن تنتشر أو تمتد .

ب — عند العرب : واستعمل العرب لفظ إفريقية فى مثل ما استعمله به البيزنطيون واختلفوا فى مثل ما اختلفوا [1] ، وكان أكثر الذى أرادوا منه ما وراء برقة أو ما وراء طرابلس إلى الغرب . فالبكرى فيما ينقل عنه ياقوت يقول : « حدّ إفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول بلاد السودان [2] » . ويحدثنا ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب : « إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها و يفتحها الله على يديه فعل [3] » . ومن الواضح أن مفهوم إفريقية فى خطاب عمرو هذا يوشك أن يكون متطابقاً مع مفهوم ولاية إفريقية البيزنطية الذى أشرنا إليه ، بل إن ابن عبد الحكم يفرد الحديث عن فتح برقة [4] وطرابلس [5] ثم ينتقل فيتحدث عن فتح إفريقية فى عنوان خاص [6] .

(١) المؤنس ١٥ وأما أهل السير فيجعلونه (إفريقية) إقليما مستقلا وله حدود ولهم فيها اختلاف .
(٢) ياقوت مادّة إفريقية ١/٣٢٤ والمؤنس ص١٦ (٣) ابن عبد الحكم ١٧٣
(٤) المصدر نفسه ١٠٧ (٥) المصدر نفسه ١٧١ (٦) المصدر نفسه ١٨٣

ولقد جعل المؤرخون العرب كذلك من قرطاجنّة مركز هذه الولاية ، فهم يقولون : « إنه كان مُسْتَقَرّ سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة[١] » ولكن العرب لم يستعملوا لفظ إفريقية وحده وإنما أضافوا إليه لفظ المغرب وقصدوا به إلى كل مايقابل المشرق. ولذلك كان له عند كل واحد من المؤرخين أو الجغرافيين شمول خاص فكان يدخل فيه الأندلس حينا ، وكان يستقر عند سواحل الأطلسى حينا ، وكان يبتدئ بالنيل مرة أو بطرابلس مرة أخرى ، و ينقل ياقوت عن أبى الريحان البيرونى « إن أهل مصر يسمّون ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب بلاد المغرب ولذلك سميت بلاد إفريقية وما وراءها بلاد المغرب يعنى أنها فرّقت بين مصر والمغرب[٢] » .

ومهما يكن من شيء فقد غلب لفظ المغرب فى القرون المتأخرة على لفظ إفريقية وتقهقرت هذه اللفظة لتفسح مجالا لسلطان اللفظة الأخرى ، وأضحتْ ولا تكاد تجاوز فى القرن السابع تونس الحالية إذ ينقل ياقوت : « وحدّ إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية إلى بجاية وقبل إلى مِلْيانة[٢] » و يستقر ذلك عند أهل العلم فيقول ابن أبى دينار : « وعند أهل العلم إن أطلق اسم إفريقية فإنما يعنون بلد القيروان[٣] » أعنى أن إفريقية أضحت تعنى القسم الشرقى من إفريقية الشمالية بينما تعنى كلمة المغرب القسم الغربى منها[٤] . ولكننا فى القرن الأول الهجرى، فليس من شأننا أن نعرض لما كان بعدُ . ولذلك فسنستعمل لفظ المغرب أو إفريقية على السواء ، وسنعنى بذلك امتداد الفتوح بين طرابلس وسواحل المحيط الأطلسى .

٣ — مظاهر الحضارة فيها : بقى أن نلقى ضوءاً على حقيقة هذه البلاد التى سنعرض لها وأن نجلوَ عنها هذه الظلال السوداء التى تعوّدنا أن نلقاها بها . و يوشك

(١) ابن عبد الحكم ١٨٣ واقرأ نصاً مشابها فى المؤنس ١٨

(٢) ياقوت مادة إفريقية ١/٣٢٤–٣٢٥ (٣) المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ص ١٤

(٤) فيليب حتى تاريخ العرب ١/٢٧٨

أن يكون مستقراً فى أذهان الكثرة الكثيرة منا أن هذه البلاد كانت على حال متأخرة من الحضارة وأنها كانت تحيا حياةً أقرب إلى البدائية . والواقع أننا ، إذ يساورنا هذا الفهم ، نغفل عن كثير من أحداث التاريخ وظواهره وتقدمه بالحياة الإنسانية : نغفل عن ذكر دور الحضارة الفينيقية التى جالت فى إفريقية جولتها القوية والتى نازعت روما سلطانها فى عنفوان هذا السلطان ، ونغفل كذلك عن ذكر دور الحضارة الرومانية فى هذا الصقع من الأرض ، وما كان من انتشار البيزنطيين بعدهم ، وعن تلاقى هذه الحضارات الفينيقية والرومانية والبيزنطية ، وعما ينتج هذا التلاقى من آثار وطوابع . والواقع أيضاً أن هذه الولاية مارست ألوانا من الحضارة فى مختلف الحقب المتعاقبة ، وازدهرت فى فترات متصلة ، وقد تكون أيام الوندال التى تلت حكم الرومان وسبقت حكم بيزنطة أياماً مظلمة ، ولكنها لم تلبث أن تفتحت بعد ذلك حين استردها جوستنيان فى القرن السادس، لجدّدت صلاتها بهذا العالم الحضارى الذى كان آنذاك .

ومن غلبة الوهم أن نفكر أن هذه الولاية كانت دائماً بمثابة التابع من روما وبيزنطة ، على حين أنها كانت تمثل فى كثير من المرات دورَ الشريك . وقد رأينا طائفة من أباطرة روما كانوا إفريقيين أو كانوا من إفريقية ولادةً أو زواجا ، وأن إفريقية لعبت فى حياة بيزنطة السياسية دوراً لا يمكن أن يوصف بأنه دور ضئيل ، وأن قدراً من الجيش البيزنطى أو من الحرس الإمبراطورى كان من سكان هذه الولاية ، وأنه أسهم فى الحرب فى إيطاليا ضد اللمبارديين ، وفى الحرب فى البلقان ضد الآفاريين ، وفى الحرب ضد فارس فى كثير من المواقع ، وأنه أسهم مساهمةً قوية فى إسقاط فوكاس وتولية هرقل .

وكما كان الإفريقيون يغادرون بلادهم كان الرومان والبيزنطيون يأتون إفريقية ، وكانت تمتلىء بهم المدن الساحلية والثغور الحربية : يسيّرون الإدارة ويمتهنون

التجارة ويستقرون فى الأراضى مزارعين أو مواطنين ، وكانوا يحملون معهم أنماطاً من تراثهم وحضارتهم وأفكارهم ينثرونها فيما حولهم . ويحدثنا المؤرخون عن مظاهر انتشار اللاتينية وازدهارها فيما أقام الرومان من مدارس ، وعن أخذ المثقفين والسراة أنفسهم بها ، وعما كان من تأصل ذلك ، وظهور أثره فى شعراء وكتاب نشأوا فى إفريقية ونظموا وكتبوا باللاتينية . وأوشكت هذه المنطقة أن تكون ملاذ الحضارة الرومانية حين عصفت بها ريح الموت كما كانت من قبلُ ملجأ الحضارة الفنيقية . ويحدثنا المؤرخون كذلك عن انتشار مظاهر الحضارة البيزنطية بعد ذلك ، وعن ازدهار فن المعمار منها بنوع خاص فيما بنى البيزنطيون من قصور وحصون وكنائس وملاعب ، وما زينوها به من رسوم ونقوش ومن صور وألوان ، وما كان من غنى الآثار بالقاشانى ودقة الصنع فيه .

ويتصل بذلك ويسبقه أننا لا نكاد نجتلى صورة واضحة كذلك عن الحياة الزراعية الخصبة فى الأجزاء الساحلية بوجه خاص من هذه الولاية ، ويغلب أن يكسوها فى أذهاننا — تبعاً لما نتمثل من حياة البربر القبلية — ثوب صحراوى جاف ، وما من شىء يبعدنا عن حقائق الأشياء كهذا التصور . فهذه الولاية تنعم بأرض خصبة وجو لطيف ، وتنتشر فيها السهول والمزارع ، وتترقرق فيها الينابيع والجداول وتخضر حافاتها وأطرافها ، وتكسو جبالها الأحراج والأشجار ، ويغطى أرضها الزرع والنبت ، وتحيا حياة خصبة مترعة بالخير ، مكنت لها أن تمد القسطنطينية دائماً بالسفن الموسوقة بالقمح والقوافل المحملة بالغلال .

لم تكن هذه البلاد إذن فى مثل فقر الصحارى وصفرتها ولكنها كانت خضراء مترفة ، ولم تكن قليلة الحظ من الحضارة ولكنها كانت تتلقى التأثيرات الحضارية فى مراحل الزمن المتعاقبة ، ولم يكن أهلوها فى معزل عن الحياة فى العهدين الرومانى والبيزنطى ، ولكنهم كانوا على صلة ما بهذه الحياة : مارسوا الحرب وخاضوها مع بيزنطة وضد بيزنطة ، ومارسوا الإدارة فى حدود ما أتاح لهم البيزنطيون

ذلك أيام كانت تصفو بينهم وبينهم العلائق « فاقرّ سلامون انطالاس على رأس قبائل الولاية الداخلية ، ويابداس على القبائل التى تسكن هضبة الأوراس يعاونه رئيسان صغيران ، وأقر ماسونا ماستيجاس على مرطانية بأقسامها[1] » ، وعاشوا صناعاً وزراعاً وتجارا . وكان ذلك أشد ما يكون وضوحا فى المدن وفى المناطق الساحلية . وكلما كان التقدم نحو الداخل كان خفوت هذه المظاهر جميعاً وذبولها . فكأنّ المجتمع هنا يشبه أن يكون المجتمع فى الجزيرة العربية وفيما حولها من عرب الضواحى فى العراق والشام ... كانت الأطراف الساحلية تمثّل هذه الضواحى ، وكانت الأجزاء الداخلية تقارب أن تشبه الجزيرة ، لولا أنّ الجزيرة كانت أشدّ تعرضاً لتيارات الحضارة وإحساساً بسير الحياة العالمية بحكم ما كان من مركزها الجغرافى فى سرّة العالم وعلى ملتقى طرقه التجارية وقوافله ... ولكن هناك هذه المشاركة ، فى حياة القبائل البدوية وفى حياة السكان المستقرين ، فى حياة المدن وفى حياة الواحات ، فى تعاقب مظاهر البداوة وفى تعاقب مظاهر الحضارة . ولعل ذلك أن يكون بعض ماسهل على العرب فتوحهم ، ومكّن لهم من نشر الإسلام ، وأضاف إليهم هذا الدم الجديد الذى وصلهم بجنس آخر غير جنسهم ، وأمدّهم بنفحات من العزم قدّرت لهم أن يمتدوا بعد ذلك فى أطراف أوروبا .

تلك هى الخطوط الكبرى لهذه الولاية الإفريقية فى حدودها وتاريخها ومظاهر الحضارة فيها ، وما كان من شأنها فى الفترة التى سبقت تطلّع المسلمين إليها وانسياحهم فيها ، ومدى ما كان يربطها ببيزنطة ويفصلها عنها . وهى خطوط لا بدّ منها فى استجلاء الفتح العربى وفى التعرف إلى ما كان وراء هذا الفتح من انتشار الإسلام وغلبة العربية ، وتبادل هذا التأثير بين المهاجرين الوافدين عليها والمقيمين المستقرين بها . فلنحاول أن نُجْمِل فيما يلى تطور الفتح فى خطوطه الكبرى متخلّين عن التفاصيل .

---

(١) حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ٢٢ عن Caudel .

القسم الثانى — حركة الفتح

المرحلة الأولى

ا — كان فتح برقة وطرابلس أشبه بالمقدّمة للانسياح فى إفريقية ، وكان نجاح المسلمين فى ذلك مُغرياً لهم على التقدم . وقد تمثل هذا النجاح فى استفادة هذين البلدين استفادةً يحدثنا عنها ابن عبد الحكم بقوله : « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها[١] » كما يحدثنا عنها البلاذرى بقوله : « إنّ أهل برقة كانوا يبعثون بخراجهم إلى و إلى مصر من غير أن يأتيهم حاثّ أو مُسْتَحِثٌّ فكانوا أخصب قوم فى المغرب ولم تدخلها فتنة[٢] » . والروايات التاريخية تحدّثنا أن عَمرو بن العاص استأذن عُمَر بن الخطاب فى ذلك فكتب إليه : « إن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل[٣] »...ولكن عمر لم يأذن له ولعله رأى ، بعد هذا التمدد العريض ، حاجةَ المسلمين إلى فترة من الهدوء يثبّتون فيها أقدامهم ، فتستقر بهم الأرض ، وتدين لهم الأطراف ، ويكونون على ثقة مما يستدبرون إذا أقدموا .

ب — وقد بدأ التمهيد لافتتاح إفريقية بالاستيلاء على المناطق الداخلية فى برقة وطرابلس، وتأمينِ أن يكون من نحوها كَوْنٌ أو تحدثَ غارة . فاستولى المسلمون على وَدّان وفزّان ، تولّى عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى ابن خالة عمرو بن العاص أمرَ فزّان ، وتولى بُسر بن أبى أرطأة أمر ودّان أوائل سنة ٢٣ ، وتقدم المسلمون غربى طرابلس إلى صبره[٤] أو سبرت ، فكانت سبرت كما يقول التيجانى فى رحلته

---

(١) ابن عبد الحكم ١٧٠ (٢) البلاذرى فتوح البلدان ٢٢٤ (٣) ابن عبد الحكم ١٧٣

(٤) رواية ابن عبد الحكم عن فتح صبرة ١٧٢ « وكان من بسبرت متحصنين ، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم ، أمنوا . فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا ..فدخلوها فلم ينج منهم أحد

« فاتحة دخول إفريقية »[١] . وأخذ اسم عقبة يتلألأ فى هذه المناطق تمهيداً لما يكون بعد ذلك من إنجازه حين تستحيل هذه الغزوات الضاربة فى الصحراء إلى فتح عريض .

ج — وفى مثل هذه المناطق المتسعة المجهولة لا تبدأ الحرب بسير عظم الجيش ، وإنما يحتاج الأمر أن تتقدّمه الطلائع ، وأن ترود له البعوثُ الصغيرةُ الأرضَ وتمجم المقاومة . وكذلك كان الأمر هنا . ويحدثنا ابن عبد الحكم أن عمراً « كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[٢] » ، وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يتابعه فى ذلك فكان : « يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[٣] » .

د — وقد استأذن ابن أبى سرح ، وكان وَلِيَ إفريقية فى سنة ٢٥ ، عثمانَ فى فتح إفريقية كما استأذن عمرو الخليفةَ عُمر من قبله ، « وأخبره بقربهم من حرز المسلمين[٣] » . فأما عثمان فقد أذِن « بعد المشورة فى ذلك وانتدب الناس وأمّرَ عليهم الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد ، مصرَ ، فيكون له الأمر[٣] » . ويحدثنا المالكى[٤] فى تفصيلات هذه المشورة وأنه فكّر وأطال التفكّر فى ذلك ، وأنه جمع إليه وجوه المسلمين وقادة الرأى واستشارهم حتى انتهى بعدُ إلى الإذن .

هـ — وتقدم ابن أبى سرح من مصر فيمن عنده من جند وفيما بعث إليه عثمان من مدد فى جيش يبلغ عشرين ألفاً ، ومضى يضرب فى ولاية إفريقية . ويلخص ابن عبد الحكم هذه الحلقةَ بقوله : « فلقيه جرجير فقاتلة فقتله الله ، وكان الذى وَلِيَ قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير ، وهرب جيش جرجير ، فبعث عبدُ الله بن سعد السرايا وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقية طلبوا

---

(١) رحلة التيجانى ٩٢ عن فتح العرب للمغرب ٦٤
(٢) ابن عبد الحكم ١٧٣
(٣) نفس المصدر ١٨٣
(٤) رياض النفوس ٨ — ٩

إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ولم يولّ عليهم أحداً ، ولم يتخذ بها قيرواناً[١] » .

ولا تخرج التفصيلات التى يتحدث بها المؤرخون عن هذا الأصل ، يوسعون جوانب هذه الرواية بما يذكرون من قصص ، ويضيفون طائفة من الحوادث ، ويختلفون فيمن قتل جرجير أهو عبد الله بن الزبير حقاً أم غيره ، ويقصّون بعض الأساطير عن ابنة جرجير ، ويفصّلون فى دور ابن الزبير فى طريقة القتال ، ويتخذون ذلك سبيلا إلى خلاف ما بينه وبين ابن أبى سرح ، ويتباينون تبايناً كبيراً فى تقدير المال الذى صالح عليه عبدُ الله ، ولكنهم لا يخرجون عن أن ابن أبى سرح سار إلى برقة فانضم إليه عقبة ، ثم مضى لحاصر طرابلس وانصرف عنها « وكذلك فعل عند قابس[٢] كأنه كان يقصد إلى قرطاجنة العاصمة مؤمناً أن الغلبة عليها ستفرط مقاومة الروم جميعاً ، وستؤدى إلى تساقط المعاقل والحصون » ، فلا خير فى أن تُستَنزَف قواه فى حصار هذه المدن وإثارتها . ولذلك مضى حتى التقى بجرجير قرب سبيطلة ، حيث دارت أكبر معارك هذه الحملة بعد مفاوضات غير مجدية لم ينزل فيها جرجير على الجزية أو الإسلام . فلما انتهت المعركة بالنصر كان ابن أبى سرح يبعث بالسرايا تضرب فى هذه المنطقة أو تلك مما حول سبيطلة ، حتى كانت العودة .

ولا تمتاز هذه الحملة بشىء كثير إلا بما كان من وفرة غنائمها . ويحدثنا ابن عبد الحكم : « أن سهم الفارس بعد إخراج الخمس بلغ ثلاثة آلاف دينار ؛ للفرس ألفا دينار ، ولفارسه ألف دينار ، وللراجل ألف دينار[٣] » ، وأنه « كان يوضع بين يدى عبد الله بن أبى سرح الكوْم من الوَرِق[٤] » . وفيما عدا هذه الغنائم كان رجوع سعد — ولم يولّ أحداً ولم يتخذ قيرواناً على حدّ تعبير ابن عبد الحكم — يبعث المؤرخ على أن يكثر من التساؤل .. ويبدو أن تغيّبه عن الفسطاط خمسة عشر

---

(١) ابن عبد الحكم ١٨٣
(٢) حسين مؤنس ٨٤
(٣) ابن عبد الحكم ١٨٤
(٤) ابن عبد الحكم ١٨٥

شهراً ، ووفرةَ ما حازه ، وخوفه أن يرتد الروم عن طريق البحر ، وقلةَ ما بين يديه من جند ، كل ذلك حمله على أن يجعل من هذه الحملة حملة كشف وريادة وأن يعود يؤمّل أن يستأنف غزاته فى عام مقبل . ولكن الأحداث لا تسمح له بذلك ، وتلح الفتنة على عثمان فى المدينة ، و ينصرف المسلمون أعواماً عن الفتح ، و يقع الخلاف بين على ومعاوية وتفتر حرارة الجند فى الأطراف ، وتذهب عزماتهم فيما كان من قصص القتال فى العراق والفتنة فى المدينة والتربص والحذر فى الشام ، حتى إذا انتهى الأمرعامَ الجماعة إلى معاوية ووَلِيَ مصرَ له معاويةُ بن حُديج بعد عمرو بن العاص ، بدأ المسلمون يتحركون نحو إفريقية مرة ثانية ليجدّدوا ، على آثار عبد الله بن سعد ، فتوحاتهم وليكملوا ما لم يوفقوا إلى إكماله من قبل .

آية هذا أن الخطوة الأولى فى فتوح إفريقية كانت فى خلافة عثمان ، وولاية عبد الله بن سعد ، واستمرت خمسة عشر شهراً ، ولم تكن فيها معركة فاصلة ، وكلُّ الذى كان فيها هذه الصلةُ بالأرض والتعرف لها والاستفادةُ مما كان قبلُ فيما سيكون بعدُ .

المرحلة الثانية

وحين استقر أمر المسلمين على معاوية استأنفت أطراف الدولة نشاطها الحربى ، واستأنف ولاة مصر فتوحاتهم فى إفريقية ، وأبلى فى ذلك معاوية بن حُديج السَّكونى بلاء كبيراً ، وكان جاء والياً لمصر فى أعقاب ولاية عمرو بن العاص الثانية ، وابنه عبد الله ، وعقبة بن عامر الجهنى الذى ظل حتى عام ٤٧ . و يحدثنا ابن عبد الحكم « أنه غزا إفريقية ثلاث غزوات ، أما الأولى فسنة ٣٤ قبل قتل عثمان ، وأعطى عثمانُ مروانَ الخمس فى تلك الغزوة ، وهى غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٤٠ — والثالثة سنة ٥٠[1] .

---

(١) ابن عبد الحكم ١٩٤

وليس هنالك ما يؤكد أن هذه الغزوات ثلاث حقاً [١] ، ومهما يكن من شأنها فإنها لم تزد على أن حققت للمسلمين الغنائم من نحو ، والتمرّس بقتال هؤلاء الناس من نحو آخر ، وأنها جددت صلتهم بهذه البلاد بعد انقطاع ثلاث عشرة سنة من نحو ثالث ، غير أنها لم تحقق نصراً فاصلا .. وكلُّ ما كان فيها أنْ سار معاوية على رأس عشرة آلاف « بينهم جماعة من الأنصار والمهاجرين [٢] » ، فدخل ولاية إفريقية « واتخذ قيرواناً عند القرن [٢] » ، و « بعث عبدَ الملك بن مروان إلى مدينة يقال لها جَلُولاء [٣] فى ألف رجل فحاصرها » ، ثم فتحت على يد عبد الملك أو على يد معاوية نفسه ، وبعث ابنَ الزبير ففتح سوسة [٤] ومضى هو إلى الشمال إلى بنزرت [٥] فافتتحها .

ولعل أبرز الظواهر فى هذه الغزاة أن معاوية فكر فى اتخاذ القيروان أو بدأ باتخاذه « فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر [٦] » . وذلك يعنى دون شك أن المسلمين تنبهوا إلى حقيقة كبرى كانت هى العلة فى بطء فتوحاتهم فى إفريقية ، أعنى هذا البعد بين مركز الجيش فى الفساط وبين الأرض التى يضرب فيها ، فكان لا بد من نقطة ارتكاز جديدة يجعل منها المسلمون مُنْطَلَقهم ومُتَوَثَّبهم ، أما أن ينفصِلوا من المدينة أو من الفسطاط ، وهو على هذا البعد البعيد ، فقد كان يذهب بقوامهم ويستنفد جزءاً كبيراً من جهودهم .

ولعل مما يتصل من هذا بسبب أن معاوية فى الشام أدرك ما يكون فى بقاء مصر وإفريقية ولايةً واحدة من أثرٍ فى شلّ عزائم القواد والاطمئنان إلى أن لهم خير

---

(١) ناقش الدكتور حسين مؤنس فى كتابه فتح العرب للمغرب أمر هذه الغزوات وحدد عددها ومداها « ١١٥ — ١١٩ » .

(٢) ابن عبد الحكم ١٩٣ (٣) نفس المصدر والصفحة . وجلولاء قريبة من القيروان الحالية على ٢٤ ميلا منها . واقرأ ما كتب عنها الدكتور مؤنس فى ١٢٣ « هامش » .

(٤) حسين مؤنس ١٢١ (٥) حسين مؤنس ١٢٣

(٦) ابن عبد الحكم ١٩٣ . وقد حاول بعض المحدثين من المؤرخين أن يشك فى اتخاذ معاوية القيروان ويظهر أنه بنى شكه على أن الروايات كلها فى ذلك روايات متأخرة كالباجى وابن الناجى والمالكى فى رياض النفوس فقال الدكتور مؤنس ١٢٤ : « يذهب نفر من المؤرخين إلى أن معاوية طال مكثه بناحية القرن فحفر بها آباراً لا تزال تسمى آبار حديج ، وأنه ابتنى بها دوراً سماها قيرواناً =

مصر إن لم يحققوا النصر فى إفريقية ، وركونهم إلى ذلك وحرصهم عليه ، ففصل بين الولايتين ، وكان معنى ذلك أنه فصل بين الأمارة فى مصر والقيادة فى إفريقية ، فكان ذلك مما يضمن له أن يلهب عزمات هذه القيادة لأن خيرها الدنيوى لن يكون فيما خلّفت وراءها فى مصر ، وإنما فيما تحقق أمامها فى إفريقية من نصر .

آية هذا أن الخطوة الثانية فى فتوح إفريقية كانت فى خلافة معاوية ، وعلى يد معاوية بن حُديج ، وأغلب الظن أنها كانت فى سنة ٤٥ أو ٤٦ ، وأن أبرز ما فيها اتخاذ القيروان أو البدء باتخاذه . وسيفيد الجيشُ الإسلامى من هذه البداءة بعدُ ، وسيقيم فى القيروان لا يغادرها إلى مصر ، وستكون القيروان مركز الغزوات المقبلة ومُنْطَلَقها .

المرحلة الثالثة

ويحدثنا ابن عبد الحكم فى فصل عقده عن « ذكر من كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه[١] » فيذكر بعد معاوية بن حديج ، عقبةَ بن نافع بن عبد القيس الفهرى « وخروجه سنة ٤٦[٢] ومعه بُسْر بن أبى أرطاة وشَرِيك ابن سُمَىّ المُرادى فأقبل حتى نزل بغمداش من سُرت[٣] » .

١ — ولقد لقينا عقبة قبل اليوم على رأس السرية التى بعث بها عمرو بن العاص

= فى موضع القيروان قبل أن يأتى عقبة . ولكن ذلك كله مشكوك فيه ، ويجوز أنه ابتنى بعض المساكن للجند واحتفر آباراً لسقيامهم ، أما أن يكون قد فكر فى ابتناء المدينة فغير صحيح ولا وجود له فى المراجع الأصلية الأولى كابن عبد الحكم والبكرى والبلاذرى وابن الأثير » .

والواقع أن ابن عبد الحكم يحدث عن ذلك فى إشارة واضحة ، على عادته فى تركيز أخباره فقال ١٩٣ : « واتخذ قيرواناً عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر » . ويبدو أن الدكتور مؤنس قد سها عن هذا النص .

(١) ابن عبد الحكم ١٩٢

(٢) يصحح الدكتور مؤنس هذا التاريخ ويرجح أن يكون سنة ٤٩ ويرى فى هذا الترجيح استقامة الحوادث السابقة واللاحقة . أنظر ١٢٧ فتح العرب للمغرب .

(٣) ابن عبد الحكم ١٩٤

إلى فزّان[1] ومدى ما أصابه من نجاح ، ولقيناه كذلك يستقبل فى برقة عبدَ الله بن سعد بن أبى سرح حين فَصَل من مصر[1] وكان أميراً على ما فتح من إفريقية ، ولا ندرى هل شاركه فى غزاته أم ظلّ يرابط حيث هو فى برقة . وخلاصة ما كان من أمر عقبة هنا ، أنه سار حتى نزل بغمداش من سُرْت ، فترك فيها بعض جيشه مستخلفاً عليه عمر بن علىّ القرشى وزهير بن قيس البَلَوِىّ ، ومضى هو يخضع بعض المناطق الداخلية مثل وَدان التى نقضت عهدها مع بُسْر وبعضَ مناطق فزان فاستولى على حصونها وقصورها . ويقص علينا ابن عبد الحكم عن هذا الاتجاه فى سير عقبة حديثاً مفصلا[2] .

ب — فإذا استقادت له هذه المناطق الداخلية « ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمّت خيولهم وظهورهم ، فسار متوجهاً إلى المغرب وجانَبَ الطريقَ الأعظم ، وأخذ إلى أرض مُزاتة فافتتح كل قصر بها ثم مضى إلى . . فافتتح قلاعها وقصورها ثم بعث خيلا إلى غُدامس فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيلُه سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قَصْطِيلية ثم انصرف إلى القيروان[3] » .

ح — ولم يمارس عقبة فى القيروان حرباً ، ويبدو أن القسطنطينية لم تكن تستطيع أن تمد إفريقية بشىء لأنها كانت آنذاك هدفاً لحصار معاوية لها « ٤٩ — ٥١ هـ » ، ولم يكن فى وسع الروم أن ينقذوا بلادهم ، وكان عقبة يدرك أهمية الخطوة التى بدأها معاوية بن حُديج فى تأسيس القيروان حتى يكون ملاذاً للمسلمين ومستقراً لهم ، فلا يكون كل شأنهم فى حروب إفريقية الانتصار عليها والارتداد عنها .. ولهذا نجد أنه ينصرف عن الحرب إلى السلم ، وعن تخريب الحصون إلى بناء الحصون ، وعن هدم المدن إلى بناء المدن ، «ولم يعجب بالقيروان الذى كان معاوية بن حديج بناه قبله ولذلك ركب والناس معه حتى يأتى موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير

(١) اقرأ المراحل السابقة الأولى والثانية (٢) ابن عبد الحكم الصفحات ١٩٤ ـ ١٩٦
(٣) ابن عبد الحكم ١٩٦

الشجر كثير القطف[1] » فيختط هذه المدينة ويضع بذلك أسس إفريقية الإسلامية . أترى كان يجول فى ذهن عقبة آنذاك وهو يركز رمحه يختط المسجد ودار الأمارة أنه إنما يفتح أمام الإسلام أفقاً واسعاً جديداً من آفاق النفوذ العالمى سيصل به بعدُ إلى مجاز أوربا ، وسيطوى هذا المجاز ليتوقف عند « البيرنيه » ثم يطوى « البيرنيه » لتكون « بواتيه » آخر الأرض التى يبلغها ؟ .

مهما يكن من شىء فقد قضى عقبة السنوات التالية فى تخطيط القيروان ، وكان هذا أبرز اعماله ، ولكنه كان لا يفتأ يبعث بالسرايا فى الغزوات هنا وهناك ، لايلقى كبيرَ كيد ولا يلقى كذلك كبير غنم .

فى وسعنا أن نقول إن هذه المرحلة من فتح إفريقية كانت تخالف عن المراحل السابقة عليها من نحو عسكرى ومن نحو إدارى . . فأما من النحو العسكرى فهى قد تشبه الخطوات السابقة فى أنها لم تكن إلا انسياحاً ليس فيه هذه المعركة الفاصلة التى تثبّت إقدام المسلمين فى هذه الولاية ، ولكنها تختلف عنها فى أن عقبة لم يمض فى الطريق الساحلى الذى مضى فيه ابنُ سرح ومعاويةُ من قبله ، وإنما أخضع الأجزاء الداخلية أولاً ، التى كان أخضعها هو وبُسْر من قبل ، والتى انتقضت فى هذه الفترة . . ثم عاد إلى جيشه فجانب به الطريق الأعظم ، على حد تعبير ابن عبدالحكم ، وأخضع بعض المدن فى طريقه إلى القيروان .

وأما من النحو الإدارى فقد كان عمل عقبة العظيم تأسيسه للقيروان، أعنى تأسيسه لولاية إفريقية الإسلامية التى ستقطع ما بين الجند وبين مصر ، والتى ستثير الجندَ أن يندفعوا فى فتوحاتهم حتى يكون لهم ما لإخوانهم فى الإقطار الأخرى من مدن وولايات يغلب عليها الإسلام .

---

(٣) ابن عبد الحكم ١٩٦ .

المرحلة الرابعة

فإذا انتهى ابن عبد الحكم من حديث عقبة بدأ حديثَ أبى المهاجر دينار . . وهو يُجْمِل ذلك ، فيما عدا حديثه عن إساءته لعقبة ، بالجمل التالية : « . . فلما قدم أبو المهاجر إفريقية كره أن ينزل فى الموضع الذى اختطّه عقبةُ بن نافع ومضى حتى خلّفه بميلين فابتنى ونزل . وكان الناس قبل أبى المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط . وأول من أقام بها حين غزاها ، أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا(١) » .

فابن عبد الحكم لا يحدثنا عن غزوات دينار وإنما يكتفى بأن يلاحظ هذه الظاهرة الواضحة فى غزواته ، وهى إقامته بالمسلمين فى إفريقية واتخاذُها منزلا لا يغادرونه إلى الفسطاط . وذلك ، لاشك ، تعبيرٌ عن اتجاههم إلى إخضاعها وعزمهم عليه . . ويكون دينار قد حقّق حلقةً جديدة فى سلسلة هذا التطور الذى بدأه معاوية بن حُديج ، ثم أنفذَه عقبة وكان أكبر همّه ، ثم جاء دينار فمضى فى إثرهما وإن كان قد أهمل قيروان عقبة وابتنى قريباً منه فيما حدثنا به ابن عبد الحكم .

والخلاف فى أعمال دينار الحربية وتحديد مداها وتاريخها وتتابعها شديدٌ بين المؤرخين الشرقيين والمغربيين والمستشرقين ، والذى نستطيع استخلاصه من هذا الركام المتداخل أنه كان هناك غزوتان لدينار :

الغزوة الأولى .. التى بلغ فيها تلمسان فى المغرب الأوسط ولقى فيها البربر بقيادة كسيلة ، وكان آل إليه مُلكُ البربر ، فهزمهم وانتهى الأمر بكسيلة إلى الإسلام . ودينار فى هذه الغزوة يبلغ المغرب الأوسط أو أقاصيه ، ويضرب فى أرض هى أبعدُ مما ضرب مَنْ قبله ، ويفتح أمام المسلمين أرضاً جديدة ويضم إلى الإسلام كثيراً من القبائل التى نفترض أنها تابعت كسيلة فى إسلامه .

والغزوة الثانية ... هى التى توجّه بها إلى قرطاجنة فحارب أهلها حرباً كثر فيها

---

(١) ابن عبد الحكم ١٩٧

القتلى بين الفريقين ثم صالحهم على أن يُخلُوا له الجزيرة[1] . . ويبدو دينار فى هذا الصلح قائداً بعيد النظر لا تلفته الغنيمة قَدْرَ ما يلفته الاستيلاء على الأرض والتمكين للمسلمين منها ، وهى بعدُ أرضٌ لها فى مجال العمل الحربى أثر كبير لأنها تبرز من أمام ، كنتوء كبير فى البحر ، يستطيع أن يحمى ما وراءه من أقطار ، ويردّ غارات الروم البحرية المفاجئة .

المرحلة الخامسة

وينتهى دور أبى المهاجر دينار ليبدأ دور عُقبةَ بن نافع من جديد ، فقد ردّه يزيدُ بن معاوية إلى ولاية حرب إفريقية بعد أن مات مَسْلمة بن مخلد الذى كان جمع له معاويةُ مصرَ والمغرب وعزل عقبةَ . . ويستأنف عقبةُ عمله من حيث عُزل عنه فقد تابع بناء القيروان من نحو ومضى فى غزواته من نحو آخر ، ويبدأ فى تاريخ فتوح المغرب عهدٌ جديدٌ يمتاز بالغزوات الكبرى من جهة كما يمتاز بمقاومة البربر العنيفة من جهة أخرى ، ويواكبه فى حياة بيزنطة نوع من التساهل الدينى كان صاحبه قسطنطين الرابع « ٦٦٨ — ٦٨٥ م » وبهذا التسامح ، الذى أورث لوناً من التعاون بين البربر والبيزنطيين، يفسّر بعضُ المؤرخين وجهاً من وجوه مقاومة البربر واستعصاء أمرهم واعتراضهم كلّ خطوة يخطوها المسلمون وتغلّبهم بعدُ على عُقبةَ وارتداد المسلمين إلى برقة .

ويبدو أن عقبة لم يُفِدْ من عمل دينار ولم يتابع خطاه . وقد رأينا أن ديناراً وُفّق إلى أن يضمن ولاء البربر بما كان من إسلام كسيلة ، أو بما كان من حِلفه له على الأقل ، إن لم نُصدّق رواية إسلامه ، وأن يفرغ الروم فينزلون له عن جزيرة شريك أما عقبة فقد فَصَل من القيروان وخلّف عليها زهير بن قيس البلَوىّ ومضى ، ومعه أبو المهاجر فى وثاقٍ من حديد[2] ومعه كسيلة فى مثل هذا الوثاق ، كأنما كان يخشى

(١) الجزيرة هى ما يسمونه جزيرة ابن شريك وهى هذا النتوء الأرضى الذى يمتد فى البحر كاللسان العريض ويؤلف شبه جزيرة ويكون مفتاح قرطاجنة وما وراءها من ولاية إفريقية . ويقول عنها صاحب المؤنس ٢٦ هى الجزيرة المعلومة فى زماننا هذا وكانت عامرة فى ذلك الوقت وبها مدن وقصور كثيرة وخيرات ومزارع حسنة ، وهى بين مدينة سوسة ومدينة تونس . وسميت جزيرة شريك نسبة إلى شريك العبسى الذى كان والياً عليها . (٢) ابن عبد الحكم ١٩٨ والمالكى ٢٢

من كسيلة أن يثير قبائل البربر انتقاماً لصديقه أو لحليفه أبي المهاجر ، أو كأنما كان يريد أن يستهين بالقبائل البربرية التي تعنو له . ولم يأبه لنصيحة دينار إذ قال له : « ما هذا الذي صنعت ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعُيَيْنَة بن حصن ، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه؟ تَوَثَّقْ من الرجل فإني أخاف فتكه[1] » .
وما من شك في أن تحدّي البربر هذا سيثير في طريق عقبة كثيراً من الصعوبات ، وسينتهي به إلى موقعة تهودة ، حيث يُسْتَشْهَد بكل من معه من المسلمين .

ومهما يكن من شأن التفاصيل الكثيرة فإن عقبة بلغ في غزاته هذه طنجةَ ودخل السوس الأدنى « وجوّل لا يعرض له أحد ولا يقاتله[2] . . » وأوطأ فرسَه الماء حتى بلغ الماء صدرَه وقال قولته المشهورة : « اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضَيْتُ في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعْبَد أحدٌ من دونك[3] » .

« .. ثم انصرف إلى إفريقية — يقصد القيروان — فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه ، وأذِن لهم حتى بقي في قلة ، فأخذ على مكان يقال له تهودة[4] » وفي خلال هذه الغزوة الطويلة كان عقبة ، كما يظهر ، قد أهمل أمر كسيلة ، وكان كسيلة يتغافل عقبة ليراسل أهله[5] ، ولعله أن يكون قد هرب بعد ذلك لأن الروايات التاريخية — على ما بينها من خلاف في المقدمة في سير عقبة إلى طنجة ورجوعه إلى إفريقية — تتفق على أنه « حين أخذ على مكان يقال له تهودة[6] عرض له كُسَيْلَة في جمع كثير من الروم والبربر ، وقد كان بلغه افتراق الناس عنه ، فاقتتلوا

---

(١) المالكي في رياض النفوس ٢٦ (٢) ابن عبد الحكم ١٩٨
(٣) المالكي رياض النفوس ٢٥ (٤) ابن عبد الحكم ١٩٨
(٥) يستنتج الدكتور مؤنس ذلك من قول ابن خلدون ١٨٦/٤ فانتهز فيه الفرصة وارسل للبربر فاعترضوا عليه في تهودة . حسين مؤنس ١٩٦ « هامش »
(٦) تهودة في المنطقة التي تسمى اليوم سيدي عقبة جنوبي بسكرة في الجزائر حيث يقوم مسجد يضم ضريح عقبة الذي أضحى مزاراً وطنياً . واقرأ ما كتب عنها ابن عذارى ١٧/١ .

قتالا شديداً فقُتل عقبة ومن كان معه وقُتل أبو المهاجر وهو موثَق بالحديد. ثم سار كُسَيْلَة بن لَمْزَم ومن معه حتى نزلوا الموضع الذى كان عقبة اختطه فأقام به وقهر مَنْ قَرُبَ منه من باب قابِسَ وما يليه وجعل يبعث أصحابه فى كل وجه[١] » .

واستثمر كسيلة نصرَه « فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية ، وقصد إفريقية وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فآمنهم ، ودخل القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قَوِيَ أمر عبد الملك[٢] » . ولم ينفع زهيراً بن قيس البلوى — وقد كان خلف عقبة على القيروان حين فَصَل — أن يحاول المقاومة ، فقد فتّ استشهادُ عقبة فى عزم الجند ، واجتمع عليهم الأسى والخلاف ، وأصرّ جيش « أو حنش » الصنعانى على أن يعود بمن معه متخلياً عن تراث مهاجر فى جزيرة شريك ، وكان معه أكثر الناس ، فاضطر زهير أن يعود معهم ، فمضى إلى برقة حيث رابط فيها . وسنرى أنه سيظل فى برقة «حتى يقوى أمر عبد الملك بن مروان فيستعمله على إفريقية[٢] » .

لم يعد هنالك إذن بعد هذه الهزيمة العاتية مكان للجيوش الإسلامية فى إفريقية وعاد الأمر كما بدأ أيام عمرو . . كان هنالك مسلمون من البربر آمنهم كسيلةُ كما يبدو من نص ابن الأثير المتقدم ، ولكن الموقف الحربى انقلب رأساً على عقب . والنصرُ الذى حققه المسلمون فى خلال هذه السنوات منذ كانت جرائد الخيل التى كان يبعثها عمرو ، والانسياحُ الذى مضوا فيه حتى أوطأ عقبةُ فرسَه من شاطىء المحيط ، آل إلى هذه الهزيمة الأليمة . . فغلب البربر والروم على هذه الأرض التى سقاها المسلمون بدمائهم « ودخل كسيلة القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها[٢] » .

وكانت مأساة تهوذة هى أقسى ما لقى المسلمون فى فتوح المغرب وقد تكون أقسى ما لقوا فى الفتوح الأخرى ، فلم نشهد إلا مرة واحدة[٣] أن الجيش قد فنى

---

(١) ابن عبد الحكم ١٩٨ (٢) ابن الأثير ٤/٩١

(٣) كان ذلك فى فتوح طبرستان إذ هلك جيش مصقلة فضرب الناس به المثل فقالوا : « حتى يرجع مصقلة من طبرستان » البلاذرى ٣٣٥

كله ، ولم نشهد مرةً أن حركة ارتداد شملت الأقطار المفتوحة بمثل هذه السعة الواسعة من طنجة إلى القيروان أو برقة .

لقد خرجت إفريقية من يد الجيش الإسلامي ولكنها لم تخرج من يد المسلمين ... فقد كانت أسلمت قبائل من البربر ، وكانت بقية الجيش الباقية فى برقة تنتظر ساعة الثأر ، وكان لابد من جولة جديدة بقيادة رجل حازم وفى عهد خليفة حصيف تدين له الأمور حتى يُولِيَ فتح إفريقية اهتمامه . . هذه الجولة كانت هى المرحلة التالية للفتوح وكانت بقيادة قيس بن زهير البلوى وفى عهد عبد الملك بن مروان .

المرحلة السادسة

وينتقل ابن عبد الحكم من حديث عقبة إلى حديث حسان بن النعمان ، لا يفرد قيسَ بن زهير ، وإنما هو يجمله مع ما أجمل من حديث عقبة فيقول : « ويقال إن عبد العزيز بن مروان لما وَلِيَ مصر كتب إلى زهير بن قيس ، وزهير يومئذ ببرقة ، يأمره بغزو إفريقية، فخرج فى جمع كثير فلما دنا من قُونية ، وبها عسكر كسيلة بن لمزم ، عبأ زهير لقتاله ، وخرج إليه فاقتتلا ، فقُتل كسيلة ومن معه ، ثم انصرف زهير قافلا إلى برقة[1] » . فغزوة زهير لم تكن إذن إلا قتالا لكسيلة وهزيمة له وعودة إلى برقة . ولكن لم يكن عبد العزيز بن مروان هو الذى ابتعثها وإنما كان ذلك عبد الملك وقد شقّ عليه ما آل إليه أمر المسلمين فى إفريقية « واجتمع أكابر المسلمين عليه يسألونه تخليصها ومَنْ بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين[2] » فندب الناس إليها على شدة حاجته إلى الجند فى تهدئة الثورات التى كانت تقوم بين يديه ومن خلفه فى الشام والعراق والمدينة « وأمدّ زهيراً بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرّع الناس معه إلى إفريقية[2] » . وإنما اختار عبد الملك زهيراً لقيادة هذا البعث لأنه كان « مثله ديناً وعقلاً »[2] ولأنه كان من رؤساء العابدين

---

(١) ابن عبد الحكم ٢٠٠ (٢) ابن عذارى البيان المغرب ١٨ ـ ١٩

وأشراف المجاهدين[١] . وقد عرفنا محبة زهير لعقبة إذ خلفه على القيروان حين سار فى غزاته الطويلة إلى طنجة[٢] .

وسار زهير فيمن معه من العرب وفيمن انضم إليه من البربر ، واتخذ الطريقَ الساحليّ الذى سلكه القواد من قبله حتى انتهى إلى القيروان فعسكر بجوارها ، وكان كسيلة قد نَذِرَ به ، فتخلى عن القيروان وتحصّن فى ممش قريباً منها إلى المغرب ، فانطلق إليه زهير ، وكانت بينهما معركة عنيفة « نزل فيها الضرّ وكثر القتل فى الفريقين حتى يئس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقُتل . ومضى الناس فى طلب البربر والروم فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم، وجدُّوا فى طلبهم إلى وادى ملوية بالمغرب . ففى تلك الوقعة ذهب رجال الروم والمشركون ، وقتِل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم . ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها[٣] » .

وكذلك انتقم المسلمون لاستشهاد عقبة ومقتلة جيشه بمعركة ممش هذه ، وكان لها من الأثر الكبير فى نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسلمين ، مثل الذى كان لمعركة تهوذة فى نفوس المسلمين من أثرٍ قبلُ ، فتّاً فى العضد وإثارة للرعب .

وعاد زهير أدراجه إلى برقة مكتفياً بما حقّق من نصر ، ولقى فى برقة وجهَ ربه مستشهداً فى معركةٍ مع الروم الذين كانوا نزلوا برقة مستفيدين من غيابه عنها ، على ما يحدثنا ابن الأثير : « وكان قد بلَغ الرومَ بالقسطنطينية مسيرُ زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كُسَيلة فاغتنموا خلوَّها فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة عظيمة من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ... ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجدّ فى قتالهم[٤] »

وهكذا يبدو أن زهيراً استطاع أن يردّ إلى الإسلام فى إفريقية شيئاً مما فقده بمقتل عقبة . . وكان استشهاده فى برقة سبباً جديداً فى استثارة المسلمين كما كان استشهاد عقبة من قبل . وسنلاحظ فيما يلى أن الدولة الأموية ستدرك ما كان لنزول

---

(١) المالكى فى رياض النفوس ٢٩
(٢) اقرأ المرحلة السابقة الخامسة
(٣) ابن عذارى المراكشى ٦٠
(٤) ابن الأثير ٤/٩٢

الروم فى برقة من معنى ضخم يتهدّد حياةَ الدولة الإسلامية وما يكون لمقتل زهير من اجترائهم وتقدمهم ، ولذلك ستولى هذا الوجهَ همّها ، وستولّى على المغرب والياً هو حسان بن النعمان ، يتمّ خطى زهير و يثبّت للمسلمين أقدامهم فى هذه البلاد التى نزلوا عنها ، و يحاول القضاء على كل مقاومة للروم فيها .

المرحلة السابعة

نستطيع أن نلخص عمل حسان فى فترتين اثنتين :

فى الفترة الأولى — دخل القيروان وسقطت بين يديه قرطاجنة[1] وهرب أهلها وعاود هو الكرة عليها وألحق بها أذى شديداً « حتى صارت كأمس الغابر[2] » وحقق للمسلمين نصراً كبيراً . فلما سار يطلب الكاهنة بعد كل هذه المواقع التى خاضتها ، استطاعت الكاهنة أن تُلحِق به هزيمةً شديدة فى معركة على نهر « نينى » وأن تتبع فُلُولَه حتى اضطر أن يرتد إلى طرابلس خارجاً عن إفريقية كلها مخلّفاً عليها أبا صالح مولاه ، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم : « ثم قدم حسان بن النعمان والياً على المغرب ، أمّره عليها عبد الملك بن مروان فى سنة ثلاث وسبعين ، ومضى فى جيش كبير حتى نزل طرابلس واجتمع إليه بها مَنْ كان خرج من إفريقية وطرابلس ، فوجَّه على مقدمته محمد بن أبى بكير وهلال بن ثَرْوان اللَّواتى وزهير بن قيس ، ففتح البلاد وأصاب غنائم كبيرة وخرج إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم ، فلم يصب فيها إلا قليلا من ضعفائهم فانصرف ، وغزا الكاهنة وهى إذ ذاك ملكةَ البربر ، وقد غلبت على جُلّ أفريقية فلقيها على نهر يسمّى اليوم نهرَ البلاء ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزمته وقتَلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانية رجال ، وأفلَت حسان ونفذ من مكانه إلى إنطابلس فنزل قصوراً من حيّز برقة فسميت قصور حسان واستخلف عَلَى إفريقية أباصالح[3] » .

---

(١) يقول ابن عذارى ٢٣ ويسميها أهل تونس اليوم المعلقة . . وهى من مدينة تونس على اثنى عشر ميلا وكان بينهما قرى متصلة عامرة . ويقول عنها صاحب المؤنس ص ٣١ : مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها وبينها وبين تونس ١٢ ميلا وبين تونس والقيروان مائة ميل .

(٢) ابن عذارى ٢٤ (٣) ابن عبد الحكم ٢٠٠

وأضحى موقف المسلمين حرجاً شديد الحرج : والى المغرب وقائدُ الجند يقيم فى برقة ، وقلةٌ من ضعفاء المسلمين فى القيروان كان فى وسع الكاهنة أن تقضى عليهم ساعة تشاء ، ولكن الكاهنة لم تستثمر نصرها فى مهاجمة القيروان ، وإنما جاء القيروانَ الخطرُ من البحر فى هذه المرة أيضاً ، فقد شقّ على الروم أن تسقط قرطاجنة بين يدى حسان ، فأعدّوا أسطولاً كبيراً على رأسه البطريق يوحنا . . « وظهر هذا الأسطول فى قرطاجنة سنة ٦٩٧ م ٧٨ هـ ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يُسْر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها ، وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتى انه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفور[1] » .

وهكذا يبدو أن المسلمين خسروا كل شىء فى إفريقية : تعاوَنَ البربر والروم على تجريدهم من كل الأراضى التى نزلوها ، واحتلّ البربر الأقسام الجنوبية الصحراوية ، وعادت الرّوم هذه الأقسامُ الشمالية الساحلية ؛ غير أن طبيعة الحرب فى إفريقية لا تساعد على اليأس ، فما أكثر ما دخل المسلمون هذه البلاد وما أكثر ما خرجوا عنها ، ولكنهم كانوا فى كل مرة يزدادون جرأةً عليها وتمكناً منها . . وسنرى أن الفترة الثانية فى عمل حسان ستمكّن له من ذلك ، وسترد إليه النصر الذى افتقده فى حركة يوحنا وفى حركة الكاهنة ، وسيكون لطائفة من الأسرى[2] الذين اختطفتهم الكاهنة وعلى رأسهم خالد بن يزيد دورٌ كبير فى خدمة المسلمين وفى تمهيد الطريق لهم[3] ، كما سيكون لسيرة الكاهنة بالبربر وتخريبها للأرض[4] أثره فى استقبال المسلمين استقبالاً لا قسوة فيه .

---

(١) الدكتور مؤنس فتح العرب للمغرب ٢٥٤ عن ديل .

(٢) ابن عبد الحكم ٢٠٠ فأحسنت الكاهنة إسار من أسرته من أصحابه ، وأرسلته إلا رجلا منهم من بنى عبس يقال له خالد بن يزيد فتبنته وأقام معها . واقرأ ابن عذارى ٢٧ . وقد كان خالد هذا عيناً للعرب .

(٣) اقرأ تفصيل ذلك عند ابن عبد الحكم ٢٠١ وابن عذارى ٢٨

(٤) ابن عذارى ٢٦ وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين . فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما =

الفترة الثانية — أقام حسان في برقة ، وكتب إلى عبد الملك يستمدّه ، فأمدّه في سنة ٨١ وأمره بالسير إلى إفريقية ، فسار يطوى الأرض حتى وصل قابس ، ويحدثنا النويرى[1] أنه « لما قرب حسان من البلاد ولقيه جمعٌ من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة ، فسرّه ذلك ، وسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانو قبل ذلك يتحصنون من الأمراء » ، وهى رواية لا تعنى الروم أنفسهم ، ولكنها تدل على أن أهل البلاد أحسنوا استقبال العرب بعد الذى لقوا من الكاهنة ، ثم جاز حسان قابس ، والتقى بالكاهنة فهزمها .

ويلخص ابن عبد الحكم ذلك ، بعد أن يبين عن دور أسرى المسلمين ، وخالد بن يزيد بخاصة ،فى جيش الكاهنة فيقول : « فمضى حسان ومن معه ولقى الكاهنة فى أصل جبل ، فقُتلت وعامة من معها ، وسميت بئر الكاهنة[2] » .

وكذلك خلصت لحسان هذه الأرض ، ونفى عنها مقاومة البربر ، ويبدو أنه استطاع كذلك أن ينفى الروم عن قرطاجنة فاستقادت له البلاد كلها .

وسيشهد المسلمون فى إفريقية بعد مقتل الكاهنة وجلاء الروم أول فترات الاستقرار المتصلة .. لن يغادروا هذه الأرض بعد اليوم ، ولكنهم سينطلقون منها منها لإخضاع ما تبقى من المغرب الأوسط والأقصى ، وسينفذون من هناك إلى الأندلس ، وسيكون لهم فى هذا الجزء من العالم تاريخ حىّ .

وأحسّ حسان أن الأمر قد صفا له ، وأنه لن يلقى مثل مصيره فى الفترة الأولى ، ولن يلقى كذلك مثل مصير القادة الذين سبقوه ، ولن يقوم كسيلة آخر أو كاهنة جديدة ، فأولى الناحية الإدارية جُلّ اهتمامه...ألقى عن كتفيه عدة الحرب

= تريد المزارع والمراعى فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر . فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون .. فخربت الكاهنة ، لعنها الله ، ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة تتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية .

(١) نهاية الأرب الجزء الثانى والعشرون «غرناطة» (٢) ابن عبد الحكم ٢٠٠ــ٢٠١

ونفا عنه الدرع ولبس ثوب الولاية » . . فبنى مسجد الجماعة فى القيروان ، ودوّن الدواوين ، ووضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر[١] . . » وذلك يعنى أن كثيرين من البربر دخلوا فى الإسلام وأنهم انخرطوا فى نطاق هذه الجماعة الجديدة

ولم يكن هذا كلّ ما فعل حسان ، ولكنه خطا خطوة واسعة فى إقرار الأمر للمسلمين فبنى مدينة تونس[٢] إلى جنوب قرطاجنة القديمة[٣] ، وأراد أن تقوم للمسلمين مقام قرطاجنة للروم : عيناً تحرس الشواطىء ، وداراً للصناعة تبنى فيها السفن ، وميناء تجارياً يصل بين الساحل والداخل[٤] .

كان هنالك للمسلمين قبل حسان مدينة واحدة داخلية ، أما الآن فقد أضحى لهم مدينة أخرى جديدة تطل على البحر وتفتح أمامهم آفاقاً فسيحة سيخوضونها فى المستقبل إلى صقلية وسردينية و إيطاليا .

المرحلة الثامنة

وتخلّى حسان عن ولاية إفريقية وقفل إلى دمشق و يبدو أنه كان بينه و بين عبد العزيز بن مروان والى مصر جفاء ، وكان عبد العزيز بحكم مركزه المتوسط بين دمشق و إفريقية ، وقرابته من الخليفة — قادراً أن ينال العمال بالأذى إن قصد إلى ذلك ، وكان يطمح أن تكون ولاية إفريقية ملحقةً بمصر ، ولم يكن العمال الذين يقودون كل هذه المعارك العاتية ليرضَوْا إمرة عبد العزيز واستعلاءه عليهم ، ولذلك نجد فى حوادث هذه الفترة كثرة من الخصومات بين والى مصر و بين قواد إفريقية : كان ذلك بين عبد العزيز وزهير بن قيس ، وكان كذلك بين عبد العزيز و بين حسان[٥] . .

---

(١) ابن عبد الحكم ٢٠١ وابن عذارى ٢٩ـ٣٠ وفى المؤنس ٣٢ وكتب الخراج على النصارى وعلى من تمسك بدين النصارى من البربر (٢) المؤنس ١٣ فى موضعين

(٣) المؤنس ١٠ تونس من بلاد إفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل ، وهى مما بناه بنو أمية . والمدينة القديمة الرومية اسمها قرطاجنة . (٤) المؤنس ١٢ .

(٥) ابن عذارى ٣١ وذكر ابن القطان أن عزل حسان وولاية موسى كان من قبل عبد العزيز ابن مروان دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته .

وانتهى الأمر إلى أن آل أمر إفريقية إلى رجل من أتباع عبد العزيز هو موسى ابن نصير .

وقد جاء موسى بن نصير إفريقية بعد هذه الحروب التى استمرت خمسين عاماً كانت خمدت فيها المعارك وخبت الثورات وملّ البربر والروم وسكان المدن هذه القصةَ التى لا تهدأ.. قصة الدماء والقتال والقلاع والحصون والخوف والجلاء . وكان أسلم كثيرون من البربر ، ولذلك بدأ موسى عمله يسيراً سهلاً . ويحدثنا ابن عبد الحكم أنه افتتح عامة المغرب وواتر فتوحه وشاركه جهوده أخوه وأبناؤه فلما استقاد له المغرب كان لا بد له أن يتقدم نحو العدوة الأخرى من الشاطىء ، نحو الأندلس .

* * *

تلك هى حركة الفتح الإسلامى فى هذه المنطقة . . سلسلةٌ متصلة مشتبكة من الغارات والغزوات ، ومقاومة عنيفة من البربر والروم — وإقبالٌ حتى ليوشك أن يشعر المرء أن أمر هذا المغرب قد آل كله إلى العرب — وإدبارٌ حتى ليبدو كأنما قطعت بين المسلمين وبين هذه الأرض الأسباب — واستسلامٌ تظن معه أن البربر أصبحوا فى مثل وداعة الشاة وطاعتها — وتنكرٌ حتى كأنهم نمور مفترسة — وحركات هى مزيج عجيب من الغايات والوسائل، غايات لا تدرى أهى نشر الدين أم حب السيطرة أم شهوة الفتح أم الحرص على الغنائم ، ووسائل فيها استعطاف وتحبب ، وفيها إكراه وتعسف ، وفيها تحدّ وعناد — وعقود من السنين تبلغ نصف قرن فى ساحة من الأرض لم تكن فى حاجة إلى كل هذه السنين — وعناصر هى خليط متشابك من أقوام شتى ، من السكان الأصليين ومن الرومان ، ومن الوندال ومن البيزنطيين ، بينهم هذا التباين الذى نلمحه بين برابرة الساحل وبرابرة الداخل — وبيئاتٌ فيها المثقف الذى وصلته الحضارة بالرومان والبيزنطيين ، وفيها المتبدّى الذى لا يزال يعيش فى أجوائه الخاصة وتقاليده القديمة — وتوحيدٌ تمثله النصرانية — ووثنياتٌ تنتشر بين القبائل الداخلية — وأرضٌ يتعاقب عليها السهل والجبل والبحر والبر ،

والمزارع والشطوط ، والهضاب والجبال الشاهقة والمنخفضات والوديان العميقة — وعالمٌ تتداخل فيه كل هذه المظاهر الطبيعية والحضارية والبشرية ثم يزيده المسلمون من العرب وغير العرب تداخلاً وتشابكاً ، ويعمل فيه الدين الذى يحملونه واللغة التى يتكلمونها عملها ، فتحاول أن تتمثله ، تستسيغ ما يسعها أن تستسيغه وتغالب ما تستطيع أن تغالبه ، فتغلب بعضه وتتغلب أمام بعضه ، وتنتشر هذه الجماعة المسلمة المهاجرة على هـذه القطعة من الأرض كما تنتشر الخميرة الصغيرة فى وعاء العجين الكبير تحيله إلى مثل طبيعتها .

وسنحاول أن نتبيّن فى الفصول الخاصة بنشأة المجتمعات الإسلامية الجديدة حركة الفتح هذه من وجهتها الاجتماعية[1] . . كيف دخل العرب هذه البلاد وكيف استقرّوا فيها وما مظاهر هذا الاستقرار ، كيف استعربت وكيف دانت بالإسلام ، ولكننا فى حاجة إلى أن نتبين هنا ، قبلُ ، موقف السكان من حركة الفتح الإسلامى .

القسم الثالث

موقف السكان من الفتح

مقدمة — تعريف وتوضيح : من هم سكان المغرب غداةَ الفتح العربى ؟ ما الطبقات التى كانت تنتظمهم وكيف كان لقاء هذه الطبقات للجماعات الوافدة عليها من المشرق .

كان فى إفريقية كما يبدو ثلاث طبقات من الناس :

١ — الروم البيزنطيون وهم الذين غلبوا على البلاد وحكموها ، هاجروا إليها وسكنوها ... كان منهم من امتهن التجارة وانقطع لها ، ومنهم من اقتطع الأرض وانصرف إلى استثمارها ، ومنهم من اصطنع الإدارة أو الحكم أو أقام فى المحارس أو فى الأربطة على الموانى والسواحل[2] . وعلى الجملة كان هؤلاء الناس هم الطبقة المسيطرة أو التى تتصل بالسيطرة بسبب ، تحميها وتدفع عنها وتمكّن لها مما تشتهى وتريد .

(١) اقرأ كتابنا المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ٦٣ : وما بعد ذلك .

(٢) المؤنس ١٩٥ : فتغلبت الروم على سواحل البلاد

ب — وإلى جانب الروم البيزنطيين كان الأفارقة أو سكان المدن . ونعنى بالأفارقة هؤلاء الذين كانوا من أصحاب البلاد ، ولكنهم لايرجعون فى هذه البلاد إلى أصول بعيدة . إنهم، بوجه عام ، سكان المدن والمراكز القريبة من المدن .. كانوا مزيجاً من السكان الأصليين ومن متحضرة البربر ومن بقايا المستعمرين الرومان ومما خلفت قرطاجنة من ناس صهرتهم فى حكمها أيام الفينيقيين . فليس يجمع هذا الخليط أصول دموية واحدة ، ولاجدّ أعلى تنحدر منه ، وإنما تجمعهم هذه الحياة المشتركة وهذا الاستقرار فى الأرض ، وهذا الارتباط فى المعيشة ، أعنى تجمعهم حياة المدينة ومايتصل بالمدينة من أرباض ومزارع هى ، على الأغلب ، جزء منها .

حـ — ووراء ذلك كان البربر ، السكان الأصليون لهذه المناطق . ولكن البربر لم يكونوا كما رأينا ، هؤلاء المتبدّين الذين يعيشون عيش الظعن ويحيون حياة القبيلة فحسب ، وإنما كانوا أشبه بالعرب فى تباين نظمهم الاجتماعية واختلاف طبيعة الأرض التى يعيشون عليها ، وفى صلتهم بالحضارة ، قوةً فى هذه الصلة أو ضعفاً ، إحكاماً أو تخلخلا . ولذلك كانوا يمازون فى فريقين : فريق البربر الذين عظم نصيبهم من الحياة الحضرية وتعددت بينهم وبين البيزنطيين الأسباب ، فاشتبكت لذلك بينهم وبين الحضارة البيزنطية الصلات ، قدر ما يكون من تقبّل قومٍ لحضارةٍ غريبة عنهم . وكان أكثر هؤلاء يسكن قريباً من منازل البيزنطيين ويجاورهم ويعيش فى سواحلهم .. وفريق البربر الآخر الذين كانوا يمارسون ألواناً من الحياة أقرب إلى البداوة وأدنى إلى القبلية، ولكنهم لم يكونوا فى عزلة مطلقة ، فقدكان يتسرب إليهم دون شك أقباس من الحضارة أوكانت تنعكس عليهم ألوان من التأثير قد تكون ضئيلة أو نحيلة ولكنها كائنة على كل حال .

ويبدو أن هذين الفريقين من البربر لم يكونا على وفاقٍ فى العيش ولم يكن يلف علاقاتهم يُسْرٌ أو إسماح .. وليس يهمنا أن نصدق أو نكذب مايقال فى اختلاف الأب الذى يرجعون إليه أوفى اختلاف الدماء التى ينثالون منها ولا أن نصدق

أو تكذب ما يزعمه « جوتييه » من أن البربر الحضر البرانس يرجعون إلى جنس يخالف الجنس الذى يرجع إليه البربر البدو والبتر . فحسبنا أن اختلاف النظام الاجتماعى الذى كان يخضع له الفريقان ، وتباين أساليب الحياة ، وتغاير البيئة التى كانوا يتقلبون فيها — كان كفيلا أن يوجد بينهما هذه الفجوة العميقة التى يرجع بها النسابة ، حقاً أو باطلا ، إلى الآباء أو الأجناس .

وفى الوسع أن نقول إن انتشار هذه الطبقات الثلاث فى أرض المغرب كلها كان ينسكب فى علاقتين اثنتين : علاقة الامتداد من الشرق إلى الغرب ، وعلاقة الامتداد من الشمال إلى الجنوب . وفى كلتا العلاقتين يمكننا أن نقول إن كثرة الروم والأفارقة والبربر كانت تتناسب طرداً مع هذين الاتجاهين : كلما تضاءلت كثرة الروم تضخمت قلة البربر . وأنه مع الاتجاه من الشمال إلى الجنوب ، أعنى من الساحل إلى الداخل ، تخفت المعالم البيزنطية ومعالم الأفارقة لتبدو معالم الحياة البربرية ولتتضخم . وفى إطار من هاتين العلاقتين نستطيع أن نتبين كيف كان موقف هذه الطبقات من حركة الفتح العربى .

ولا بدَّ بعدُ من هذه الملاحظة التالية : فقد رأينا أن ولاية إفريقية لم تكن ذات حدود ثابتة دائماً . كانت تمتد على الساحل على أكثر الأحايين وتتوغل فى الداخل حيناً ، وكانت فى إفريقية نفسها أكثر منها توغلاً فى المغرب الأوسط وفى المغرب الأقصى . . ولذلك فإن الحديث عن ألوان الناس فى هذه المنطقة وموقفهم من الفتح لا يمكن إلا أن يكون محوطاً بكثير من الاحتراز وبكثير من النسبية . وما نقوله قد ينطبق أكثر الأحيان على تونس ولكنه قد لا يطابق فى كثير من التفاصيل الأجزاء الأخرى . . هذا فضلا عن أن الفتح العربى فى هذه المنطقة يختلف عن كل الفتوحات الأخرى فقد امتدَّ خمسين سنة أو تزيد ، على حين امتد الفتح فى سورية سبع سنوات ، ولم تحتج مصر إلى أكثر من سنتين اثنتين حتى يمسك المسلمون بزمامها ، فيما عدا ما كان من ثورة الروم فى الإسكندرية . . أما هنا فنحن

أمام لون آخر من الفتوح له طبيعته التي تخالف كل طبائع الفتوح الأخرى سواء تلك التي سبقته في العراق والشام ومصر أو التي جاءت بعده في الأندلس . . وعن اختلاف هذه الطبيعة ، وعن هذا المدى المتطاول من السنين الذي استُنفِدت فيه ، وعن أشياء متكاثرة متعقدة ، كان اختلاف موقف الروم والأفارقة والبربر على السواء . . في ساعات العسرة حين كانت تعصف ببيزنطة الشدائد ، سواء في ذلك على حدودها مع المسلمين أو على حدودها مع الأوربيين من الآفار واللومبارديين والبلقانيين ، فينقطع كل أمل في قدرتها على مدّ القوم في إفريقية — كان الروم أنفسهم يرحبون بالعرب كما تطلعنا على ذلك هذه الرواية التي حدثنا بها النويري عن استقبال حسّان ودعوته .. وحين كان الولاة يحسنون السيرة بالبربر ويأخذونهم باليُسْر كما فعل أبو المهاجر ، كان البربر يقبلون على الإسلام أو يقبلون على نصرة المسلمين . . فإذا آل الأمر إلى لون من التحدّي بين البربر والعرب كالذي حدث لعقبة وكسيلة ، غضب البربر لأنفسهم فدقّوا المسلمين دقات عنيفة تحرمهم هناءة العيش وتسلبهم ثمرات الفتوح الماضية . . فلم يكن هنالك إذن موقف واحد على مدار الفتح .. وقد لعبت السياسة الخارجية لكلٍّ من القسطنطينية ودمشق من نحو — والسياسة الداخلية للولاة والقواد من نحو آخر — وصلة هؤلاء القواد بوالي مصر واعتزالهم له من نحو ثالث — وبُعْدُ المغرب عن مركز الخلافة وامتداد أرضه من نحو أخير — لعبت هذه كلها أدواراً كبرى في تكوين مواقف السكان في هذه البلاد . . ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتبين بوجه عام ما يلي :

١ — موقف الروم :

كان موقف الروم موقف مقاومة متصلة ، ظاهرٌ بعضها وخفيٌّ أكثرها . كانوا كلّما توفرت لهم أمداد من الجند أو قطعٌ من الأسطول ثاروا بالمسلمين وانتقضوا عليهم ، فإذا عاد إليهم المسلمون في الغزوات القوية استكانوا ليتنفلوا من جديد وليصلوا ما بينهم وبين بيزنطة من أسباب ، قدر ما تسعفهم بيزنطة وقدر ما يسعفهم سكوت العرب . ولذلك لم تهدأ مقاومة الروم كلّ

سنوات الفتح الطويلة ، وإنما استمرت منذ أوطأ المسلمون خيلهم هذه الأرضَ حتى كانت لهم الغلبة عليها فى ولاية حسان بن النعمان وموسى مِنْ بعده . ولم تكن محاولة حسان بناء تونس قريباً من قرطاجنة إلا تعبيراً عن قلق المسلمين من هذه المقاومة ومعالجتهم المُثلى لها . . فقد وجدوا أن قرطاجنة — هذه النافذة العريضة التى تطل على البحر والتى تصل بين بيزنطة والروم — يجب أن يسكنها المسلمون أنفسهم حتى يأمنوا هذا البيات المتكرر والبغتات المتصلة .

ولسنا بعدُ فى حاجة إلى أن نقف وقفات مفصلة عند موقف الروم من كل غزاة من غزوات العرب ، فقد تبيَّنا ذلك فى خلال العرض لحركة الفتح فى صورتها المادية وفى تعاقب الغزوات .

٢ — الأفارقة :

الحياة الاجتماعية لهؤلاء الناس ، زراعاً كانوا أو تجاراً أو أصحاب مهن ، توحى لهم بالمسالمة والإخلاد ، فهم ليسوا أرباب الحكم ولا أصحاب السلطان ولذلك لن يسلبهم المسلمون شيئاً ، وسواء عليهم أكان الذين يشرفون على الأمر هؤلاء أو أولئك . . وصحيح أن الروم أحبُّ إليهم لما يقوم بينهم و بينهم من روابط الدين . . فأما من غلب عليه الدين فقد كان إلباً للروم وعوناً لهم إن لم يمنعه من ذلك خلافه المذهبى .. وأما من غلبت عليه حياته نفسها ، فى مجالها من الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، فقد كان لا يبالى ، لأنه لا ينافح كما ينافح الروم أنفسهم عن مادة حياتهم فى السلطان والحكم ، وإنما ينافح عن ولائه للحياة التى يحياها ، فمقاومته إذن رهين بهذه الحياة : كلما تعرضت الحياة للخطر اشتدت المقاومة ، وكلما أحيطت بالضمانات خفتت هذه المقاومة .. ولقد عرفنا المسلمين فى فتوحاتهم يحيطون، غالب الأمر ، حياة هذه المدن بالضمانات ، ولذلك فإن لنا أن نؤكد أن موقف هؤلاء الناس كان موقفاً تحدُّه مصالحهم ، مالم يغلب على هذه المصالح أمرُ الشعور الدينى.

على أن هذا الدين لم يكن كذلك متحدَ الأطراف بين سكان المدن و بين

البيزنطيين.. كان هنالك هذا الاختلاف المذهبى على مثل ما كان فى الشام ومصر ؛ فالبيزنطيون ملكانيون ولكن أكثر النصارى فى إفريقية من أتباع المذهب الدوناتى ، ولهذا الخلاف دون ما شك آثاره فى توهين العصبية الدينية توهيناً لا يذهب بها ، ولكنه يعرضها إلى شىء من التخلخل .. فإذا آل الخلاف أن يكون اضطهاداً أحياناً من بعض الحكام البيزنطيين ، فإن لنا أن نرى فيه سبباً جديداً يدعو سكان المدن هؤلاء إلى أن يقفوا موقف الحذر وأن يستبدلوا بالمعارضة المفاوضة وبالمقاومة المسالمة .

٣ — البربر :

أما موقف البربر فالذى يبدو أنه كان ، أول الأمر ، موقفاً مسالماً لا عنف فيه . كان هؤلاء البربر يدينون للبيزنطيين بالطاعة ، وكان هؤلاء البيزنطيون يقيمون بينهم وبين المدن المحارس والرباطات ، كانوا يخضعونهم لما يحبون أن يخضعوهم له وكانوا يفرضون عليهم ما شاءوا من ضرائب ومكوس حين يقدمون المدن أو يقاربونها .. ولم تكن بينهم و بينهم هذه الصلات ، لا من الدين ولا من الجنس ، ولم تستطع حياة الرومان الطويلة أو البيزنطيين من بعدهم أن تغطّىْ هذه الفروق ولا أن تملأ هذه الفجوات الحضارية أو الدموية ، فلم يجاوزوا السواحل فى كثير ولم يوغلوا بعيداً وراءها ، ولذلك كان فى وسع الجماعة الإسلامية كجماعة عربية فى أكثرها ، لا تزال للمثل البدوية الكريمة فيها رونقُها ونضارتها، أن تنزل من نفوس البربر منزلا أقوى وأوثق من هذا الذى نزله البيزنطيون .

غير أن العلاقة بين هذين القبيلين من الناس لم تكن وقفاً على التماثل فحسب وإنما كانت تخضع لعشرات من العوامل الأخرى : كان هنالك إثارات الروم ، وكان هنالك نزق بعض القادة المسلمين وسوء سياستهم .. كان هنالك شعور القبائل البربرية بسيادتها كذلك و إحساسها بمصالحها . ولهذا لم يعد موقف البربر ذا لون واحد : أسلم بعضهم ، كما سنرى ذلك فى نشأة المجتمع ، منذ الأيام الأولى و بقى على إسلامه ، وارتدّ بعضٌ عن هذا الإسلام ، وأسهم فريق فى حركة الفتح وتأخر

فريق عنها ، وقاومها فريق ثالث ، وآلت بعض المدن إسلامية تذود عن المسلمين وتحميهم حروب البربر من قومهم ، وبقيت بعض المدن والمواقع على مثل طبيعتها الأولى . . وحفلت هذه السنوات بألوان من الأحداث والحوادث من الصعب أن يلفّها إطار واحد دون أن تلتوى أطرافه أو تتكسر أو تتداخل . وشواهد ذلك كله فى حركة الفتح التى مررنا بها جلية لا تحتاج أن نعيد القول فيها .

ومهما يكن من شىء فقد لقى المسلمون فى فتح المغرب ما لم يلقَوْا فى بلد آخر . لقوا ذلك من أنفسهم فى فتنة الخلافة ، واضطرابات الأطراف ، وخصومات القواد وتوزّع الجهود التى كان الزمن يبتلعها . . ولقوا ذلك من أعدائهم ، روماً كانوا أم سكانَ مدن أم قبائلَ بربر . . وتناوب الإخلاصُ لهم والمكرُ بهم هؤلاء جميعاً . . والذين أخلصوا لهم مرة انتقضوا عليهم مرة ، والذين استجابوا لهم حيناً ارتدوا عنهم حيناً ، وكانت يقظة بيزنطة أو غفلتها تبعث اليقظة أو الغفلة فى موقف هذه الطبقات . ومن هنا كان تلون هذه المواقف واختلاف شياتها .

الفصل الخامس

الفتوحات فى الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية

الجناح الشرقى من الدولة الإسلامية

١ — الحيز الزمانى للفتوح

كان بين سقوط المدائن سنة ٦٣٧ و بين تعيين قتيبة بن مسلم أميراً على خراسان سنة ٧٠٤ م ، أو بين سقوط المدائن وغزو محمد بن القاسم للسند سنة ٧١١م سبعةُ عقود من السنين . وفى خلال هذه الفترة الطويلة حقق المسلمون كل هذا الاتساع المتسع : اقتحموا على الهنود معابد الأصنام ، وأفسدوا على الصين استغراقات التأمل[1] ، ولكننا يجب أن نذكر أن هذه السنين لم تُسْتَغْرَق كلّها فى عمل حربى مستمر ، فقد انعكست الحياة الداخلية للدولة الإسلامية على حياتها الخارجية وتأثرت حركة الفتوح بما كان من فتن واضطراب فى المدينة أو فى الشام . . فإذا استثنينا عهد عمر وأوائل عهد عثمان وجدنا أن كل ما كان بعدُ ، حتى عهد استقرار الحجاج فى العراق وعبد الملك فى الشام ، إنما كان فترة هدوء نسبى فى هذه الجبهات الشرقية ؛ بل ربما كان فى بعضها ارتداد النفر الذين صالحوا عمّا صالحوا عليه . ولقد كان لنا أن ننتظر فى عهد معاوية خطوات واسعةً فى تقدم الفتوح واستقرارها ، وكان معاوية جديراً أن يستأنف النشاط الذى خبا بعد عهد عثمان ، ولكننا نجد أننا أمام سبب جديد من الأسباب التى أدت إلى الفتور النسبى فى هذا الجناح الشرقى : ذلك أن معاوية أَوْلَى حروب الروم ، والحروب البحرية منها بخاصة ، عنايةً فائقة ، وكان عمله سلسلةً رائعةً متصلة من الهجمات البحرية حتى لا يكاد يخلو عام من الأعوام عند الطبرى من الحديث عن غزوات البحر ، يُنْهِى بذلك حديث السنة التى يعرض لها أو يبدؤه ليقول : وفيها كان كذا . . ومما كان فيها انصراف فلان أو إقبال فلان .

---

(١) وجه الجراح ابن عبد الله الحكمى عامل خراسان لعمر بن عبدالعزيز ، عبدَ الله بن معمر اليشكرى إلى ما وراء النهر فأوغل فى بلاد العدو وهمّ بدخول الصين فأحاطت به الترك حتى افتدى نفسه . البلاذرى ٤٢٦

والذى يبدو أن المسلمين نظروا فوجدوا أن الروم يتربصون بهم وراء جبال طوروس أو فى ولاية إفريقية ، وأن الفرس يتربصون بهم فيما وراء المدائن وجلولاء فى منطقة الجبال وما وراءها وفى منطقة فارس قبالة الشاطىء الغربى العربى للخليج الفارسى، وتوزّعت هذه المناطق قواهم واستبدت بجهودهم تبعاً لما يكون من مقاومتها وأهميتها . وكانت عناية معاوية ويزيد من بعده بأمر الروم أكثر مما كانت عنايتهم بأمر الامبراطورية الساسانية لسببين اثنين :

أولهما : أن العراق ، وهو مركز الحركات الحربية الشرقية ، لم يَنْقَدْ لمعاوية ولا ليزيد من بعده ، وإنما كان ناراً ملتهبة تخبو لتشتعل وتهدأ لتتوقد ، فلم يُتَح للولاة لذلك ، أن ينصرفوا إلى الفتوح وأن يسيّروا البعوث وهم لا يملكون سلطانهم على الكوفة والبصرة ، ولهذا لم يكد يتم الأمر للحجاج وتُجمع له ولاية البصرة والكوفة وينكّل بأعداء الدولة ، فيخمد حسهم ويتعقب ثوراتهم ، حتى بدأ يولى هذا الجناح الشرقى اهتمامه .

والثانى : أن الروم أقرب إلى مركز الخلافة فى دمشق ، وأدنى من الأمبراطورية الفارسية ، وقد قُضِى على الأسرة الساسانية وعلى سلالتها الحاكمة منذ قُتِل يزدجر فى مرو سنة ٦٥١ أو ٦٥٢ فى خلافة عثمان ، وبقى أمام العرب أن يصفّوا موقفهم مع حكام المقاطعات الذين كانت تستبد بهم الخصومات من نحو والمطامع من نحو آخر ، فلم يكن فى الجناح الشرقى ما يخيف دمشق أو يرعبها ، ولو قُدِّر للمقاومة أن تنبعث فيه من جديد لكان هـذا المدى المكانى المتسع كفيلاً أن يمتصّها . لأن إطاراً دفاعياً مصطنعاً كان يقوم فى البصرة والكوفة ، ولأن إطاراً دفاعياً طبيعياً كان يقوم فى بادية الشام والعراق . . وإنما كان الخطر كل الخطر فى الإمبراطورية البيزنطية التى كانت لا تزال تنبض بكل مقومات الحياة ، والتى لا تزال أرضها الأمُّ سليمةً لم يَمَسّ العربُ منها إلا بعض الدروب والثغور . وكان فى تعاقب بعض الأباطرة الأقوياء على الحكم (قسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥

ليو الأيسورى ٧١٧ — ٧٤٠ [1]) ، ومحاولاتهم أن يجبروا هذا الكسر الذى لقيته القسطنطينية فى الشام ومصر، وسكوتِ المسلمين عنهم فى فترات الفتن — كان فى ذلك كله ما يجعل من خطر الروم خطراً مُحَققاً جديراً أن يُدفع ، وأن يُقضى عليه قبل أن يستفحل ويستأسد .

ولقد حاول المسلمون ذلك عن طريق البرّ فوقفت جبال طوروس كالمارد الجبار فى طريقهم ، فكان لا بدّ أن يتعاون البر والبحر جميعاً على ذلك ، وكان لا بدّ أن يزدهر الأسطول ، وأن تسير صوائفه وشواتيه لا تملّ ، سواء لقيت الهزيمة أو لقيت النصر .

ولهذا كله كان أبرز ما أصاب الفتوح فى الشرق من انتقاضات وتمدّدٍ مرسوم إنما تمّ حين استقر الأمر للمروانيين ، فاستُخلِف عبد الملك بعد مروان هذه السنين الطوال بين « ٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥م » .

٢ — الحيز المكانى للفتوح

شملت الفتوح كل هذا الجانب الشرقى من المملكة الإسلامية كما شملت جانباً من الشمال الشرقى تمثّل فى فتح أرمينية وأذربيجان .

ا — وقد تناولت فى جملتها هذه المنطقة التى توشك أن تكون جزيرةً ، حدّها الشرقى حوض نهر السند ونهر جيحون ، وحدها الشمالى بحر الخزر وبحيرة خوارزم ، ثم تنحدر نحو الجنوب حتى تصافح الخليج الفارسى وبحر عمان من المحيط الهندى [2]. وفى هذه الجزيرة كانت تتلاقى الجيوش الإسلامية وتتشعب فى مقاطعات خوزستان وفارس وكرمان ومكران ، وفى مقاطعات طبرستان وخراسان وطخارستان .

---

(١) فى عهد قسطنطين كان حصار القسطنطينية الذى اصطلع عليه جيش برىّ يقوده فضالة بن عبيد الأنصارى وأسطول بحرى كان يقوده يزيد بن معاوية ولى العهد . أما ليو فهو الذى أنقذ القسطنطينية من حصارها عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ـ٩٩/٧١٥ـ٧١٧) بقيادة أخيه مسلمة ، وقد كاد هذا الحصار أن يؤتى ثمرته .

(٢) أنظر الخرائط الملحقة بآخر الكتاب

ب — ثم جازت بعد ذلك نهر جيحون إلى ما يسمونه ما وراء النهر ، أعنى أنها جاوزت المناطق الإيرانية الصرفة إلى المناطق التى يختلط فيها الإيرانيون بالأتراك فحققت بذلك اتصالاً جديداً بدم جديد ولغاتٍ وقبائلَ جديدة . وقد كان نهر جيحون هو بعض الحدود بين الشعوب التى تتكلّم الفارسية والشعوب التى تتكلم التركية(١) ، واستطاع المسلمون أن يبلغوا نهر سيحون ، وأن يجوزوه كذلك ، وأن يواجهوا إذ جاوزوه المناطق الأصيلة للقبائل التركية ، لأن هذه المنطقة فيما بين النهرين كانت يتناوبها نفوذ الفرس كما يتناوبها نفوذ الأتراك ، تبعاً لما يكون من قوة الفريقين .

حـ — وإلى جانب هذا الامتداد فى المناطق الايرانية والتركية كان جيشٌ آخر يقوده محمد بن القاسم صهر الحجاج ينطلق من البصرة فيحقق للمسلمين الانسياح فى الهند، ويدخلها من جنوبى بلاد فارس ، مستفيداً من الفتوحات السابقة لكرمان فى عهد عمر وعثمان وعلى ، ويحتل الديبل الميناء الكبير . . وينشر السيطرة الإسلامية على إقليم السند كله ، ويضع لذلك الأسس الأولى لفتوحات السلطان محمود الغزنوى فى القرن العاشر بعد ذلك .

الفتوحات فى الجانب الشرقى من المملكة الإسلامية شملت إذن فى حيّزها المكانى ثلاث مناطق كبرى : المناطق الإيرانية الصرفة — والمناطق الفارسية التركية فيما وراء النهر — والمناطق الهندية فى منطقة السند — وعن اختلاف هذه المناطق وتنوعها ستكون آثار كبرى فى حياة الدولة وغنى الفكر الإسلامى .

٣ — منابع الفتوح ومصادرها

ولم تنطلق هذه الفتوحات من وجه واحد ، ولم يكن لها كما رأينا حيّز صغير . صحيح أنها كانت تنطلق جميعاً من العراق ، لأن العراق كان مركز العمليات الحربية الكبرى وكان مقرّ الجند، ما كان منهم من قبائل العراق وما كان يمدّهم من عرب

---

(١) كان الشعبان الإيرانى والتركى هنا على احتكاك متواصل منذ قرون . بروكلمان ١٦٤/١

الشام أو الحجاز ، غير أنها كانت تصدر فى العراق عن منبعين اثنين : البصرة والكوفة. ولقد رأينا حين تحدثنا عن تمصير هاتين المدينتين كيف تغلبت النزعة المدنية فيهما على النزعة القبلية وكيف أن البصرة والكوفة أفنتا القبائلَ التى سكنتها بهذا الرباط المدنى ، فأصبحنا نقول أهل البصرة وأهل الكوفة ، وأصبحنا نتحدث عن مغازى الكوفة فنقول مثلا إن منها « الرىّ واذربيجان[1] » وعن مغازى البصرة فنقول إن منها « الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجنديسابور[2] » وأصبح أهل البصرة يفدون على عمر فى وفدٍ يشكون منازلهم التى تضيق بهم[3] و يطلبون لذلك أن يوسع عليهم . وأخذنا بعد ذلك نستمع مرة وراء مرة إلى حديث تعديل الفتوح بين أهل الكوفة وأهل البصرة ، وخصومتهم فى ضم هذه المنطقة إلى أولئك أو هؤلاء ، وتنازعهم هل تلاحقوا عليها وهل أعان بعضهم على بعض فيها[4] إلى كثير من المظاهر الأخرى[5] التى تجيز لنا أن نقول إن الفتوحات فى الجانب الشرقى كانت تنطلق من وجهين اثنين : الكوفة والبصرة ، ومن وجه ثالث لاقى الامبراطورية الساسانية من طرفها الجنوبى على الشاطىء الشرقى للخليج الفارسى وهو البحرين .

فأما البصرة[6] فقد تولت فتح مايحيط بها من أرض الفرس ومايقار بها ، فكان على يديها فتح الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجنديَسابور ، وتضرب بعيداً حتى يكون لها فى فتح خراسان نصيب أى نصيب ، فيكون فى مرو سنة توفى سليمان

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٨٠٥ (٢) الطبرى ١/٥/٢٥٣٤ وما بعد ذلك

(٣) الطبرى ١/٥/٢٥٣٨–٣٩

(٤) كتب عمر بن سراقة وهو يومئذ على البصرة إلى عمر يذكر له كثرة أهل البصرة وعجز خراجهم عنهم ويسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو ماسبذان . وبلغ ذلك أهل الكوفة فقالوا لعمار اكتب لنا إلى عمر أن رامهرمز وايذج لنا دونهم لم يعينونا عليهما بشىء ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناها . الطبرى ١/٥/٢٦٧٢ – ٧٣

(٥) من هذه المظاهر تقسيم الثغور بين البصرة والكوفة . ويروى الطبرى : فكانت الثغور ثغور الكوفة أربعة : حلوان . . وماسبذان . . وقرقيسيا . . والموصل ١/٥/٢٤٩٧

(٦) اقرأ فى الطبرى ١/٥/٢٨٨٤ والبلاذرى ٤٠٤ – ٤٠٥ و٤٠٧ – ٤٠٨ مغازى عبد الله بن عامر وهو والى البصرة ابن شهر وطوس وابيورد ونسا حتى بلغ سرخس ومرو الروذ و الطالقان والفارياب والجوزجان .

ابن عبد الملك أربعون ألف مقاتل على حين لايكون فيها من الكوفة إلا سبعة آلاف .

وأما الكوفة فقد تولت المناطق الشمالية منها والمناطق الشمالية الشرقية ، فكان من مغازيها أيام عثمان الرىّ وأذربيجان وأرمينية ، وكان بهذين الثغرين الأولين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة : ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى . وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة . . فغزا الوليد بن عقبة فى إمارته على الكوفة فى سلطان عثمان أذربيجان وأرمينية[1] « لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر[2] » وكان من ثغورها حلوان وماسبذان وقرقيسيا والموصل[3] وكان من مغازيها طبرستان وجرجان[4] .

وأما البحرين فقد انطلق منها المسلمون لغزو مقاطعة فارس ومقاطعة كرمان ، وقد كان من أول ذلك عمل العلاء الحضرمى ومغامرته الجريئة التى يسميها المؤرخون موقعة طاووس والتى تَنَقَّذَهُ فيها أمداد أهل البصرة[5] . ولم تفتّ هذه الهزيمة فى عضد المسلمين ؛ وظلت البحرين منبع هجمات متتالية كان منها موقعة اصطخر التى تولاها الحكم ابن أبى العاص ، أرسله أخوه عثمان وكان والى البحرين أواخر أيام عمر[6] وكان منها كذلك فتوح كرمان وتدويخها[7] ، ولعل الامتداد نحو سجستان إنما كان مصدره القوى التى كانت تتجمع فى البحرين .

ومن الطبيعى أن هذا التقسيم الذى نتحدث عنه ليس تقسيماً حاداً يستعصى على المشاركة . . فما أكثر ما كان أهل الكوفة يسعفون أهل البصرة ، وما أكثر ما كان أهل البصرة ينصرون الجيوش التى تنطلق من البحرين[8] . ويقص علينا

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٨٠٥
(٢) الطبرى ١/٥/ ٢٨٠٤
(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٧٢
(٤) الطبرى ١/٥/٢٨٣٦
(٥) الطبرى ١/٥/٢٥٤٥
(٦) الطبرى ١/٥/٢٦٩٨
(٧) الطبرى ١/٥/ ٢٧٠٣
(٨) فى البلاذرى ٣٨٧ وكتب عمر إلى أبى موسى وهو بالبصرة يأمره أن يكاتف عثمان =

الطبرى فى صفحات كثيرة انطلاق الجيش الأول من البحرين فى مغامرة العلاء الحضرمى إذ اتجه إلى اصطخر[١] وكيف أوشك أن يلقى على يدى الفرس هزيمة ماحقة لولا أن أمدّه عمر وكتب إلى عُتبة بن غَزْوان أن العلاء حمل جنداً من المسلمين . . فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجْتاحوا . فندب عتبة الناس وخرجوا فى اثنى عشر ألفاً .

بل إن اشتراك أهل الكوفة والبصرة وتعاونهم على فتوح بعض ما كان يستعصى عليهم من المدن والمقاطعات كان السببَ الأصيل فى خصوماتهم عند اقتسام الفىء أو عند تحديد مناطق النفوذ إنْ جاز لنا هذا التعبير . . ومن يدرى فلعله أن يكون مثاراً لخصوماتهم الأدبية والفقهية واللغوية بعد ذلك . وفى الطبرى حديث طريف تحت عنوان تعديل عمر فتوح أهل البصرة وأهل الكوفة يقص فيه ما كان من خصومة أهل الكوفة لأهل البصرة فى رامَهُرْمُز وإيذَج ، وما كان من خصومة أهل البصرة لأهل الكوفة فى قريات من أصبهان . . ثم ما كان من تعديل عمر ذلك بينهم ، وما كان من تعديل معاوية بعد ذلك حين نقل جنداً من الكوفة والبصرة إلى قنسرين فمصّرها بهم وجنّدها منهم وأخذ لهم بنصيبهم من فتوح العراق أذربيجان والموصل والباب[٢] . ولو توفرت دراسة جدية للنظم الإدارية والمالية فى صدر الدولة الأموية لأفادت من هذه الأخبار أعظم الفائدة .

وأيّا ما كان الأمر فإن هذه المنابع التى كانت تتدفق منها الجيوش على الشرق كانت تتشارك وكان ينتدب بعضها لبعض ، والحادثات فى ذلك أكثر من أن تحتاج إلى شواهد ، وتكاد تكون فتوحات المشرق كلها هذه المشاركة التى سنرى أنها أشد ما تكون حين يجتمع العراق كله ، بصرته وكوفته ، لوالٍ واحد ، وحين يجتمع

= بن أبى العاص ويعاونه فكان يغزو فارس من البصرة ثم يعود إليها . وفى البلاذرى ٣٨٨ اجتمع أبو موسى الأشعرى « وهو والى البصرة سنة مقتل عمر » وعثمان بن أبى العاص وكان على البحرين وما والاها فى آخر خلافة عمر ففتحا أرّجان صلحا على الجزية والخراج وهى من أرض أردشير خرّه وفتحا سينير .

(١) الطبرى ١/٥/٢٥٤٦ والصفحات التى تليها . (٢) الطبرى ١/٥/٢٦٧٢–٧٣

له مع الكوفة والبصرة المشرق ، فتكون هذه المنطقة كلها : المصدرُ والموردُ ، المنبعُ والهدف ، فى يد واحدة تتصرف فيها كما تشاء .

آية هذا كله أن فتوحات الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية كانت تصدر عن منابع ثلاثة : كان منها منبعان أصيلان هما الكوفة والبصرة ، ولعب المنبع الثالث وهو البحرين دوره فى فتح جنوبى فارس ، وتطويقِ العناصر المقاومة فى منطقة الجبال — وأن هذه المنابع تميزت بنوع من الاستقلال الذى كانت تشوبه المشاركة ويخالطه التساند أولَ الأمر — أما بعد ذلك حين جمع المصران لزياد أو للحجاج مثلاً أو حين فُصلت خراسان عنهما وأضحت ولايةً مستقلة ، فقد كانت هذه المشاركة أشد وضوحاً حتى لتوشك أن تطوى التميز الذى كان من قبل .. وسنرى بعدُ كيف كان اندماج البصريين والكوفيين فى جيوش قتيبة أو فى غيرها ، بل سنرى أن الحجاج عقد لمحمد بن القاسم على فتح السند ، وضم إليه ستة آلاف من جند الشام ، وخلقاً من غيرهم[1] .

٤ — طبيعة الفتوح الشرقية

وفى طبيعة الفتوح نستطيع أن نتبين ظاهرتين اثنتين : الأولى التداخل والتعقيد والثانية كثرة الارتداد والانتقاض .

١ — التداخل والتعقيد :

إن تتبع أخبار الفتح يضعنا أمام كثير من التداخل ، ويكشف لنا فى الوقت نفسه عن أسبابه . وفى وسعنا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

السبب الأول : أن هذه الفتوحات مرّت فى أدوار مختلفة . . لم تكن هذا الفتح الذى بدأ الخطى إلى غايته ثم لم يرجع عنها كما كان الحال فى فتح الشام أو فتح مصر مثلاً . وإنما هى فتوح أدركتها الفتن الداخلية فكان لابد لهذا المدّ المتقدم

---

(١) البلاذرى ٤٣٦

من أن يناله الجزر فيتراجع منحسراً ، فإذا رمّ نشاطه على يد خليفة أو والٍ آخر ثم ولّى الخليفة أو الوالى أدركه الفتورُ من جديد ونقضت المقاطعات أو المدن عهودَها.

السبب الثانى : أن هذه الفتوحات فى هذا الانسياح كانت كالموجة ، تكون لُجّتها فى موضع حيث يكون عظم الماء ، وتكون ذيولها وأطرافها فى موضع آخر بعيد ، فلم تتركز دائماً فى مكان واحد ، ولكنها كانت تنساب فى أكثر من مكان . . يستولى المسلمون على المدن أو المقاطعات ، ثم تتقدم كتائبهم فى المدن أو المقاطعات التى حولها ، ولكن لا يُمَكّن لها من الفتح أو الاستقرار فى هذه المرة الأولى ، وإنما يكون ذلك فى مرات مقبلة متعاقبة . ومن أجل هذا نتبين فى تتبع أنباء الفتح هذه الروايات المختلفة عن أول من عبر النهر ، مثلاً ، فهناك هذه الرواية التى يحدثنا بها البلاذرى : أن ابن أبى عاصم عبر النهر وأحرم لله شكراً[1] . . وهذه الرواية التى يحدثنا بها البلاذرى نفسه : أن الحكم بن عَمرو الغِفارى ، وكان والياً على خراسان ، وكانت له صحبة ، هو أول من صلى وراء النهر[2] . . وهذه الرواية الثالثة التى نجدها كذلك عند البلاذرى ، إذ ينقل لنا أن سعيد بن عثمان — وقد ولاّه معاوية — أول من قطعه[3] . . وأخيراً فلن نعدم رواية رابعة تقول لنا : إن يزيد بن معاوية ولّى سَلْم بن زياد ، فصالحه أهل خوارزم على أربعمائة ألف وحملوها إليه ، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله ابن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وكانت أول عربية عُبر بها النهر[4] .

إن كثرة الروايات لترجع إلى اختلاف الرواة ، وإنها لترجع كذلك إلى اختلاف العهود واختلاف الولاة ، ثم هى ترجع فوق ذلك إلى أن المسلمين لم يعبروا النهر من جهة واحدة ، ولذلك كان كلٌّ من جازه من نحوٍ هو أول من عبره من هذا النحو . . وإنها ، هذه الروايات ، لتُمَثّل لنا فى وضوح صريح كيف أن هذين السببين اللذين قدمنا الحديث عنهما أضفيا على الفتوح هنا هذا

(١) البلاذرى ٤٠٨
(٢) المصدر نفسه ٤١٠
(٣) البلاذرى ٤١١
(٤) المصدر نفسه ٤١٣

التداخل فقد تقدم المسلمون فى فترات متعاقبة وتراجعوا بحكم ما كان من فتور حركة الفتح.. وتقدموا فى وثبات جريئة ، ولكنهم كانوا مضطرين أن يعاودوا هذه الوثبات لتثبيت أقدامهم . وذلك كله يهب الفتح طبيعة خاصة وصفها « فلهاوزن » فى كتابه عن الدولة الأموية : « لقد كانت منطقة لا يتم لها سلام ، وليس لها حد محدود[1] » .

السبب الثالث : والسبب الثالث الذى كان يكمن وراء تعقد هذه الفتوح وتداخلها ، يرجع إلى هذا البعد البعيد الذى انساق إليه المسلمون ؛ فما من شك أن خطوط ما بينهم و بين مراكزهم التى انطلقوا منها استطالت وامتدت ، وأنهم كانوا يوغلون وينحرفون فى اتجاهات مختلفة فى هذا الإيغال . والشىء الثابت أنهم كانوا قلة — كما سنرى بعد فى دراسة الفتح من وجهته الاجتماعية[2] — وكانت قلتهم تهب إيغالهم هذا لوناً من المغامرة الأسطورية الجريئة ، ولهذا كانوا يصالحون على أنواع من الصلح طريفة حيناً ، وغريبة حيناً آخر مما سنتبينه بعد . . فإذا حانت للمُعَاقَدِين الفرصة وثبوا بهم . . وكان لا بد قبل أن تستقر الفتوح من سلسلة من الانتقاضات ، وكان لا بد من أن تقصر الخطوط بين ميادين القتال و بين مراكز الانطلاق . . والأمر هنا يشبه بعض الشبه ما كان فى فتح إفريقية وبُعْد ما بينها و بين مصر ، ولهذا لجأ المسلمون هنا ، كما رأينا أنهم لجأوا هناك ، إلى أن يجعلوا من خراسان ولاية مستقلة ، وأن يجعلوا لها كذلك والياً مستقلاً يعيّنه والى العراق أو يعيّنه الخليفة ، على أن يكون تابعاً والى العراق وفق ما كانت تقضى به ظروف الخلافة وضرورات السياسة .

ومنذ أن فعل المسلمون ذلك ، منذ أن أخذت هذه المدن نيسابور ومرو ومروالروذ وهراة فى خراسان وسمرقند وخوارزم و بخارى وراء النهر تصبح أجناد المسلمين ومجال قرارهم ، تصطبغ بصبغتهم ، وتتنفس فى ظلالهم . . منذ ذلك بدأت الفتوح

(١) فلهاوزن ٣٩٩ (٢) انظر كتاب المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول .

تتضح وقد أينعت وحان قطافها ، وكان أصحابها هؤلاء الولاة الذين أفادوا من الحملات السابقة تدويخَ هذه المناطق ، فلما جلموا هم مُكِّن لهم منها ، وتساقطت شهيّةً فى أيديهم . . ولعل زياداً ابن أبيه أن يكون أشدّ ولاة المشرق إحساساً بحاجة العرب إلى التمركز فى غير الكوفة والبصرة إذا أرادوا أن يحققوا انطلاقهم فيما وراء النهر واستقرارهم فى خراسان فيما دون النهر ، ولذلك فلعلّه « لم يتمّ تقدمٌ منظم فى حركات الجيوش العربية إلا حين أصبحت خراسان تحت حكم زياد ، فجعل من مرو — بعد أن تحقق من خطر الروح القومية الفارسية — مركزَ الحكومة ، ونظّم حملاتٍ دفاعية تنبىء عن خطة مرسومة اتفق عليها فيما بينه وبين ولاته . . وقد كَفِلت سياسة زياد هذه ، وسياسة ابنه من بعده ، لخراسان الهدوء وجعلت التوسع فى الفتح أمراً ممكناً عبر النهر[1] » .

٢ — كثرة الانتقاض والارتداد :

ومن أجل هذه الأسباب المتقدمة جميعاً كان من طبيعة الفتوح الإسلامية هنا أنها خضعت لكثير من حركات الارتداد والانتقاض والكفر . . ونحن نقرأ روايات الفتوح جميعاً فنوشك أن نذهب إلى القول بأنه ما من بلدٍ فى هذا النحو من الدولة الإسلامية لم ينتقض على الفاتحين مرة أو مرات[2] . . ولعل البلاد التى انتقضت مرة واحدة كانت قلة فى عددها . . وكان يوشك أن يكون عمل الولاة أو عمل بعض الخلفاء أن يستردّوا ما كان قبل . ويحدثنا صاحب فتوح البلدان أن ابن أبى عامر وَلِىَ البصرة فولّى عبد الرحمن بن سمرة سجستان فأتاها ، وعلى شرطته عبّادُ بنُ الحُصَيْن الحبطى ومعه من الأشراف فلان وفلان ، وأشخاص سمّاهم ،

(١) جب ١٦—١٨ Gibb: The Arab Conquest in Asia (1923)

(٢) الأخبار فى ذلك مستفيضة فى حوادث الفتح واقرا نماذج منها فى الطبرى ١/٥/٢٦٢٥ « وقد كان أهل همذان كفروا بعد الصلح » و٢٦٨٢ « ثار أهل فارس والهرمزان وكفروا وثار أهل الجبال والفيرزان فنكثوا » و٢٦٨٩ « كفر أهل خراسان زمان عثمان » ومن الواضح أن صاحب الرواية لا يعنى المعنى الاصطلاحى للكفر وإنما يعنى الانتقاض » و٢٨٠٤ « غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر » وفى مواضع كثيرة من أخبار الفتح .

فكان يغزو البلد قد كفر أهلها فيفتحه عنوة أو يصالح أهلها حتى بلغ كابل[١] » .

ولم تكن هذه الانتقاضات شراً على المسلمين دائماً ، ولكنها كانت خيراً لهم فى بعض الأحايين ، وكانوا يفيدون منها أن يجترئوا على فتح ما كانوا صالحوا عليه أو على فتح ما لم يتقدموا فى فتحه ، و يحدثنا الطبرى فى صفحات متعاقبة[٢] أنه كان بين المسلمين و بين الهرمزان فى الأهواز صلح ، ثم انتقض الصلح فأتاح ذلك للمسلمين أن يتقدموا وأن يفتتحوا ما لم يفتحوا من قبل « فلما نزل الهرمزان رامهرمز وضاقت عليه الأهواز ، والمسلمون حُلّال فيها ، فيما بين يديه ، طلب الصلح وراسل حُرقوصاً وجَزءاً فى ذلك ، فكتب فيه حرقوص إلى عمر وكتب عمر إليه و إلى عتبة يأمره أن يقبل منه على ما لم يفتحوا منها على رامهرمز وتستر و . . . فأجابهم إلى ذلك فأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم ، وأقام الهرمزان على صلحه[٣] » . . وفى ذلك يقول « فلهاوزن » إذ يتحدث كيف ترك العرب الإدارة للسلطات المحلية : « و إذا توقفت الجزية ، وكان هذا أمراً يحدث بسهولة ، تجددت العداوة . ولم يكن مما يؤسف العرب أن تسنح لهم فرصة غزو جديد[٤] » .

٥ — سَيْر الفتوح

أضحى من اليسير أن نتابع حركة الفتح بعد الذى تبيّنا من مداها الزمانى وحيِّزها المكانى ومنابعها التى صدرت عنها وما كان من طبيعتها وظواهرها . وسنحاول فيما يلى أن نجمل هذه الحركة وأن نصل بينها و بين ما انقطع من حديث العراق .

ا — فتح إيران

تقدم المسلمون بعد انتصار القادسية سنة ٦٣٥ نحو المدائن ، وقد احتلوها فى حزيران « يونية » سنة ٦٣٧ بعد أن خاضوا فى الطريق إليها عدداً من المعارك كانت تهدف

---

(١) البلاذرى ٣٩٦ (٢) الطبرى ١/٥/ ٢٠ ـ ٢٥٤٣

(٣) الطبرى ١/٥/٢٥٤٣ (٤) فلهاوزن ص ٣٤

إلى استنقاذ العاصمة من أيدى الجيوش التى كانت تضرب نحوها . . وقد أعقب ذلك أن الجيوش الفارسية انسحبت إلى حلوان « وكانت حلوان مركزاً حصيناً على حافة المرتفعات الفارسية فى سفح سلسلة جبال الصقر[1] » وأخذت تنظم حركة مقاومة مضادّة ترمى إلى إجلاء العرب عن المنطقة التى احتلّوها . ولذلك نرى أن يزدجرد يجمع فلوله وينظم جيشه ويعزّز قواه بما انضم إليه ويتقدم إلى الجنوب نحو المدائن ، ولكنّ سعداً يُدرك ما يكون من خطر هذا التقدم فيعاجله فى معركة جَلُولاء « على الضفة اليمنى من نهر ديالى[2] » أواخر عام ٦٣٧[3] وعلى الجيش ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص[4] ، فهزم الله الفرس وأصاب المسلمون بها من الفىء أفضل مما أصابوا بالقادسية[5] .

وكان سقوط جلولاء[6] إيذاناً بانهيار الخطوط الأولى للمقاومة الفارسية واستعادة هذه المنطقة للمسلمين .

وسنرى بعدُ أن هذه المقاومة تظل تتركز فى شخص يزدجرد وتتجمع من حوله ويدرك المسلمون ذلك فيتحدث الأحنف إلى عمر يقول له : « وإنّ مَلِكَ فارس حَىّ بين أظهرهم وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرِج أحدُهما صاحبَه ، وقد رأيتُ أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزّ أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضرِبوا جأشاً[7] ، ولهذا مضت الجيوش تتعقب يزدجرد فى تنقّله تريد أن تنال منه .

---

(١) فيليب حتى ٢١٢ (٢) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١١٦
(٣) الطبرى ١/٥/٢٠٧٨ سنة ١٩ هـ .
(٤) الطبرى ١/٥/٢٣٥٨ (٥) الطبرى ١/٥/٢٣٥٩
(٦) التفاصيل عن جلولاء فى الطبرى ١/٥/٢٣٥٩
(٧) الطبرى ١/٥/٢٥٦١ واقرأ نصاً مشابهاً آخر فى ١/٥/٢٦٣٤

ويغادر يزدجرد حلوان بعد هزيمة جلولاء وسقوط ما حولها من البلاد إلى إقليم فارس — وهو الإقليم الجنوبى من إيران — ويتابع المسلمون تقدمهم فيحتلون حلوان ثم يحتلون بعدها قرميسين فى سنة ٦٤٢ فى الشمال الشرقى منها ، ثم تكون الموقعة الكبرى التى يطلق عليها العرب فتح الفتوح فى نهاوند جنوبى همذان[١] ويُهزَم الفرس بقيادة الفيرزان ويظهر عليهم المسلمون ، ويموت النعمان بن مقرّن وكان على قيادة الجيش ، ويأخذ الرايةَ من يده حُذيفة بن اليمان، ويتمّ للمسلمين هذا النصر الهائل وتنفتح من أمامهم المسالك إلى مناطق إيران الداخلية التى لم يكن لها بالعرب شديد اتصال من قبلُ ولم يكن بينهم و بينها جوارٌ مباشر .

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بهذه الموقعة أن كاد يخرج إليها عمر بنفسه . ويقص علينا الطبرى[٢] تفاصيل عن مؤتمر عقده الخليفة ، ونودى فى الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فعرض لهم ماهمّ به وسألهم « أفمن الرأى أن أسير فيمن قِبَلِي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا وسطاً بين هذين المصرين فاستنفرهم ثم أكون رِدءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب فإن فتح . . . » ولكن المسلمين : عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ، رأوْا له غير ما رآه لنفسه ، وأجابوه هذه الإجابات الطريفة التى تدل على ما كان من إحساس المسلمين بما حولهم وتقديرهم لما هم مقبلون عليه .

وكذلك كان اهتمام الفرس بهذه الموقعة ، فقد كتب يزدجرد إلى عماله ووجهاء مملكته فتوافَوْا إلى نهاوند ، توافى إليها مَنْ بين خراسان إلى حلوان ومَنْ بين الباب إلى حلوان ومن بين سجستان إلى حلوان ، فاجتمعت حلبة الفرس والفَهْلوج أهل الجبال مَنْ بين الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل ، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألف مقاتل واجتمعوا على الفيرزان وإليه كانوا توافَوْا[٣] .

---

(١) التفاصيل عن نهاوند فى الطبرى ١/٥/٢٥٩٦ والصفحات التى تليها .

(٢) الطبرى ١/٥/٢٦١٠ — ١١ (٣) الطبرى ١/٥/٢٦٠٨

وأياً ما كان الأمر فقد كانت معركة نهاوند من المعارك الفاصلة فى حركة الفتح الإسلامية . و إذا كانت جلولاء إيذاناً بانهيار الخط الأول من المقاومة فإن سقوط نهاوند بعد كلّ الحفل الذى حفله الفرس والإمداد الذى أمدّوا به يزدجرد ، كان إيذاناً بسقوط المقاومة المنظمة كلها وتشتّتِ القوى الفارسية فى جهودٍ فردية يقوم بها حكام المقاطعات على غير تساند وعون .

ولجأ يزدجرد إلى أصفهان[١] وتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا على أصفهان نفسها[٢] . . وتحدّر هو إلى اصطخر[٣] ، ولكن اصطخر لم تكن الملجأ الأمين إذ كان المسلمون يتقدمون من البصرة إلى الأهواز ومنطقة خوزستان[٤] يقفزون من البحرين إلى الشاطىء الشرقى المقابل للخليج الفارسى . . ولذلك يغادر يزدجرد اصطخر إلى المقاطعات العليا إلى طبرستان[٥] يلبى دعوة جاءته من مرزبانها[٦] . . ثم لا يطول به الأمر لأن المسلمين يحتلون اصطخر ، هذه المدينة التى كانت وليدة برسبولس عاصمة قدماء الفرس ، وينساحون عن إذن عمر فى اتجاهات مختلفة ومواطن متفرقة[٧] .

ويوهن ذلك روحَ المقاومة عند الفرس ، وتساقط مدن خراسان ، هذا الإقليم الواسع فى يدى الأحنف[٨] ، وتبدو هذه المنطقة « التى تصل ما بين إيران والبوادى التركية[٥] » والتى كان الترك يباغون أطرافها الشرقية حين يغلبون الإيرانيين — تبدو لا تنزع إلى ولاء يزدجرد ولاء مكيناً متيناً . . ولعلّ أرباب المقاطعات فيها كانوا يفكرون فى مطامحهم ومصالحهم وفى حفظ نفوذهم وسلطانهم . . ولذلك

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٦٨٢، ٢٥٦١ــ٢٥٦٢

(٢) الطبرى ١/٥/٢٦٣٥ و ٢٦٣٧ وما بعد ذلك (٣) الطبرى ١/٥/٢٥٦٢

(٤) عيلام القديمة وهى شوش من بعد وعربستان اليوم . فيليب حتى تاريخ العرب ٢١٢

(٥) المنطقة الجبلية الواقعة عند الطرف الجنوبى من بحر قزوين . بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٢٤

(٦) بروكلمان ١٢٦

(٧) اقرأ عن إذن عمر للمسلمين بالانسياح فى الطبرى المواطن المتفرقة التالية : ٢٥٦١ و ٢٦٣٤ فى موضعين من الصفحة و ٢٦٨٢

(٨) اقرأ عن سير الأحنف بالجيش والمدن التى احتلها : الطبرى ١/٥/٢٦٨٢ وماوراء ذلك

نرى أن يزدجرد يُقتل ، بعد سلسلة من التنقلات والإثارات ، فى مرو سنة ٦٥١ أو ٦٥٢ — و يقتل كما يقول بروكلمان[١] لأن عامله فى خراسان تنكّر له ، ولأنه لم يكتف بهذا التنكّر و إنما أغرى به الأمير التركى . ولا نعرف فيما بين أيدينا من المصادر العربية قصة هذا الإغراء ، وكل الذى نعرفه أن يزدجرد فيما يروى الطبرى[٢] كتب إلى ملك الصغد و إلى ملك الترك و إلى ملك الصين ، وأن جيشاً تركياً أقبل ينصره[٣] .

ومهما يكن من شىء فقد كان مقتل يزدجرد إعلاناً واضحاً لانهيار المقاومة الفارسية واختفاء الأسرة الساسانية من عرش إيران اختفاء لا رجعة فيه .

وكذلك بلغ المسلمون فى تتبّع يزدجرد وفى انسياح الفتوح ، حدودَ النهر ، وكتب عمر فيما يروى الطبرى إلى الأحنف الذى كان بطل هذه الوثبة الهائلة ، و « سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » : أما بعد فلا تجوزنّ النهر ، واقتصر على مادونه[٤] . ولكن طبيعة الفتح فى هذه المنطقة كما رأينا إنما تمتاز بالانتقاض ، وسيكفر أهل خراسان زمان عثمان[٥] ، وسيكفرون فيما يلى زمان عثمان من أزمان.. ولكن الأمر سيؤول إلى استقرار الإسلام والمسلمين .

و بينما كان المسلمون يستشرفون نهر جيحون ، كانت جيوشٌ أخرى تجوز الخليج الفارسى ، فتنساح فى منطقة فارس وفى سواحل كرمان ، ثم تتقدم بعد ذلك إلى مكران حتى تبلغ قريباً من بلاد السند . . فلنلخّص حركة الفتح فيما وراء النهر وفى السند .

ب — فتح ما وراء النهر

١ — كيف كانت ما وراء النهر حين دخلها المسلمون :

انتهى الصراع بين المسلمين و بين الفرس بالاستيلاء على خراسان ، و بدأ مع

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٢٤

(٢) الطبرى ١/٥/٢٦٨٣

(٣) و (٤) الطبرى ١/٥/٢٦٨٥

(٥) الطبرى ١/٥/٢٦٨٩

عبور النهر مرحلة جديدة من مراحل الفتح ، لم يكن خصومها الفرس وحدهم ، وإنما كان يشاركهم هذه الخصومةَ التركُ .. وليس سكان حوض النهر وسكان الصغد تركاً فى الأصل فهم « إيرانيون فى طابعهم يتكلمون لغة إيرانية ويمارسون أنظمة إيرانية[١] » ولكن هذه المنطقة كانت موضع نزاع متصل بين الشعبين الإيرانى والتركى . وفى فترة الفتوح هذه « كان الأتراك وسمّوا مملكتهم فى اتجاه الغرب على عهد قابغان قاغان « الذى يدعوه الصينيون منشوى » بعد أن حرّروها من السيطرة الصينية ، واستقرّ واحدٌ منهم من أتباعهم بوصفه « طرخانا » فى سمرقند عاصمة بلاد الصغد فيما وراء النهر ، على الضفة الجنوبية من نهر الزرفشان « نهر الصغد ونهر الصغانيان » ، وعلى الضفاف السفلى من هذا النهر تقع بخارى حيث كانت إحدى الأسر التركية الحاكمة تبسط سلطانها على رعية مختلطة ، فارسية وتركية[٢] » .

ولعل هذا أن يفسر لنا ما ذكره جب من « أن الأحوال السياسية عند الفتح العربى كانت معقّدة جداً وأن هجرات القبائل المتبدّية إلى تلك المنطقة كانت مستمرة من القرن الثانى قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعده ، وفى القرن الخامس هاجرت إليها القبائل التى كانت تسمى فى العربية الهيطل[٣] » .

ومن الممكن أن نلخص الأحوال السياسية والاجتماعية السائدة مستعيرين رأى الأستاذ جب فيما يلى :

« كانت الولايات فى هذه المنطقة تعترف بـ « الخان » سيداً لها وتدفع له الجزية وكانت أمارة صغديان مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاهدات مرنة ، وكان أقوى ما يصل بينها من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصين ، وأهم مراكزها سمرقند وبيكند وكش ، وكانت سمرقند أوفرها حظاً من النجاح فى عالم التجارة ، ومنها

---

(١) جب ص ١ (٢) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٦٤-١٦٦

(٣) جب ص ١

كانت ترسل البعوث التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين . أما المشتغلون بالزراعة فكانوا كلهم من الجنس الإيرانى .

وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان هو سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى ولكنه لم يكن رباطاً وثيقاً .

وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه .

أما الأراضى الخاضعة للترك والتى كانت تجتاحها القبائل البدوية فلم تنشأ فيها حكومة مركزية ، ومن ثمّ كانت الحروب والمنازعات ظاهرةً ملازمة لها، والمصادر العربية تحدثنا أن بخارى ووردانه كانتا على عداء ، ولما جاء العرب بالفتح هدّدوا العلاقات التجارية مع الصين .

ولا بد لنا من أن نذكر أن حوض الزرفشان « نهر الصغد » ومنطقة جيحون لم تكونا مختلفتين فى الحكم فحسب بل فى اللغة وإلى حدٍّ ما فى الدم .

وكل شىء فى هذه الأوضاع الاجتماعية ، والتفكك السياسى فى حياة هذه الولايات كان فى صالح الفتح العربى[1] » .

٢ — حركة الفتح :

قبل أن نتقدم فى الحديث عن حركة الفتح نجد أننا مضطرون إلى هذه الملاحظات التمهيدية الثلاث :

الملاحظة الأولى : أن فتح ما وراء النهر كان يعتمد على فتح طخارستان ، وقد أشق أمرُ طخارستان المسلمين حيناً من الدهر ، وكانت بلخ عاصمتها وأكبر مراكزها وفيما يقص البلاذرى من أنباء الفتح تتضح لنا هذه الصلة فيما بين طخارستان وما وراء النهر ، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة الأستاذ جب فذكر فى كتابه « أن فتح هذه المنطقة مقترن بمقدرات طخارستان الدنيا ، ولم يصبح الفتح ممكناً إلاّ بعد إخضاع

---

(١) جب ص ٤ـ٩ باختصار .

تلك المنطقة إخضاعاً تاماً ، ولهذا نجد أن إخضاعها استبد بكثير من قوى المسلمين واستنفد كثيراً من جهودهم وحملاتهم .

الملاحظة الثانية : أن فتح ما وراء النهر كان يرتبط بما كان عليه المسلمون فى خراسان من تقدم وتأخر وبما كان يحيط حياتهم السياسية والحربية فيها من ذبول وتفتح . ويوشك أن يكون ما بين هاتين المنطقتين تجاوباً كاملا . فالفتور الذى يصيب الفاتحين فى خراسان، والخلافات القبلية التى كانت تلهوبهم أحياناً ،وعصيانهم على الأمراء وقسوة الأمراء عليهم ، وتأثرهم بما كان فى العراق من أحداث أوأشخاص أو ولاة ، كل ذلك كان يترك أثره واضحاً شديد الوضوح فى حركة الفتح فيما وراء النهر .. فولاية رجل مثل زياد أو عبيد الله ، وحزمه وانقياد الأمور له ، كانت كفيلة أن تتيح للحملات مجالات من السعة والتقدم . . وولاية رجل حصيف مثل قتيبة ودَعْم الحجاج له واُستشعار العرب أنه من ورائه يدعمه ويؤيده ، كان جديراً أن يمكّن لفتوحات ما وراء النهر أن تعطى أطايب ثمرها . . على حين أن غياب مثل هؤلاء عن هذه الساحة أدى بعد قتيبة ، إلى أن تخرج هذه المنطقة كلها من أيدى المسلمين وأن يُقْصَوْا عنها .

الملاحظة الثالثة : والملاحظة الثالثة التى لابد منها قبل المضىّ فى دراسة تطور الفتح أن هناك كثيراً من التعقيد والتداخل فى الروايات التى نقلها إلينا المؤرخون المسلمون على ما رأينا من هذا الحديث من قبل . غير أن التعقيد لم يكن كل شىء ، وإنما كانت هناك ألوان من الروايات تخضع لألوان من أهواء الرواة وتتأثر ميولهم وتتلون فيها الحقائق بشىء أقرب أن يكون هو لون هذه الميول . وقد رأى الأستاذ جب فى هذه الروايات أنها تنشعب فى الأقسام التالية (١) :

ا — روايات قيسية تدور حول ابن خازم .

ب — روايات أزدية رَبَعِيّة تدور حول المهلب وعداء الحجاج له ، وهى أشد الروايات شيوعاً بين العرب ، وبها يأخذ البلاذرى ، ويحمل عليها اليعقوبى .

---

(١) جب ١٢-١٣

جـ — روايات باهلية محورها قتيبة بن مسلم بطل باهلة . . ولم تجد هذه الروايات قبولا كثيراً من المؤرخين ، ولكن الطبرى يوردها عرضاً فى شىء من التهكم المرير .

د — روايات بخارية محلية يأخذ بها اليعقوبى والبلاذرى والنرشخى[1] وهى تصور الفتوحات الأولى تصويرها لقصة تاريخية تدور حول الملكة خاتون على أنها بطلة قومية ، وبعض الروايات المحلية التى استفاد منها الطبرى تبدو بريئة بعض الشىء من المبالغة .

هـ — ملاحظات قليلة عند الدينورى فيها خايط من مصادر لا نعرف ، ومن الممكن إغفالها .

و — مقتبسات يوردها البلاذرى عن أبى عبيدة تدل على إعادة النظر فى الروايات بروح معادية للعرب موجّهة وجهة شعوبية ، كان أبو عبيدة من أنصارها .

ز — روايات ونتفٌ فى الفترة الأخيرة بطلها نصر بن سيار .

ومن الممكن أن نقسم حركة الفتح فى المراحل الكبرى الثلاث :

١ — مرحلة ما قبل قتيبة .

٢ — مرحلة قتيبة .

٣ — مرحلة ما بعد قتيبة .

المرحلة الأولى : لم يكن اجتياز ما وراء النهر أول الأمر إلا هذه الغزوات التى تُمَثِّل الاندفاع واستثمار النصر والضربَ وراء أبعد الآماد ، أكثرَ مما تمثل الفتح المنظم الذى يقصد إليه أصحابه قصداً ويعنون ما يكون له وما يكون منه . . كانت تقدماً ذاتياً حيناً ، وكانت تعبيراً عن مدى الانطلاق حيناً آخر ، وكانت فى كل حين أطرافاً من الموجات الأخرى التى كانت تقصد إلى استصفاء خراسان والقضاء على المقاومات والانتقاضات فيها . ولقد رأينا طائفة من الروايات حول الذين وصلوا

---

(١) النرشخى Mohammed Nerchakhy صاحب كتاب Description topogra-phique et Historique de Boukkara ed. C. schefer paris 1892 وهو أحد مصادر الأستاذ جب فى كتابه الذى تقتبس منه هذه الفقرة .

النهر وحول الذين عبروه : عبدالله بن عامر الذى عبر النهر وأحرم لله شكراً ، والحكم ابن عمرو الغفارى الذى كان أول من صلى وراء النهر ، وسعيد بن عثمان بن عفان وكان أول من قطعه ، وسَلْم بن زياد وكانت امرأته أول عربية عبر بها النهر[١] . .

ومهما يكن من تفسير هذه الروايات ومحاولة التوفيق بينها فإن الحقيقة التى تستقرّ وراءها واحدة لا تتغير . تلك هى أن خطوات العرب الأولى إلى ما وراء النهر كانت خطوات مندفعة أو أنها كانت خطوات تمهيدية لم تتميز بالاستقرار ولم تتّسم بكل ما يجب لها من وضوح وتألّق .

ولقد عقّب على هذه الخطوات زيادٌ وابنه عبدُ الله حين جُمع لهما الكوفة والبصرة ، وآل إليهما مع البصرة والكوفة خراسان ، فقد وجد كلاهما أن الأمر لا يستقر فيما وراء النهر إن لم يستقر فى خراسان من قبل . ولذلك كان من أمر زياد خطوتان بارزتان :

الأولى : أن جعل من مرو مركز ولاية خراسان .

والثانية : هذه الخطوة الواسعة البعيدة المرمى حين حمل خمسين ألف أسرة على أن تهاجر من البصرة والكوفة وأن تستقر فى خراسان ، وفى ذلك يروى البلاذرى « أن زياداً ولّى الربيع بن زياد الحارثى خراسان وحوّل معه من أهل المِصْرين ، زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم وأسكنهم دون النهر[٢] » .

وكذلك نرى أن فتح ما وراء النهر فتحاً منظماً واضح الهدف نيّر الخطى إنما وُضعت أسسه هنا فى مثل هذه السياسة التى انتهجها زياد ، وسينتهجها من بعده عبيد الله ابنه ، والتى أدركت أن فتوح ما وراء النهر إنما يكون فيما دون النهر قبل أن تكون هذه الوثبات من البصرة أو الكوفة ، أو هذه الانسياحات التى تنساح فيها بعض الفرق أو بعض الجنود من بلخ أو من مرو أو من نحوها، على غير سندٍ لها مكين وتبصّرٍ حَذِر .

---

(١) البلاذرى ٤٠٨ و ٤١٣ وارجع إلى ص١٥٢ من هذا الكتاب (٢) البلاذرى ٤١٠

وقد وُفق عبيد الله بن زياد أن يدخل بخارى ، ولكنه وُفق فوق ذلك إلى أن يستعين برُماةٍ من أهل بخارى أنفسهم فى تقدّمه العسكرى . وما من شك فى أن الاستعانة بألفى رام من مهرة رُماة بخارى واتخاذهم حرساً على ما يروى الطبرى معناه أن أمر المسلمين فى هذا الجزء من الأرض قد آل إلى شيء من الاستقرار والتمركز ، فلم يعد هذا المدّ الذى يجتذبه الجزرُ دائماً ، وإنما هو مدٌ تدفعه من ورائه قوى وأمداد ، وتمـكّن له من الأرض التى يبلغها ومن المدى الذى يحققه .

وصحيح أن العرب لم يستطيعوا أن يحتفظوا بثمرات هذا الفتح وبما كان من فتوحات سعيد بن عثمان بن عفان وهزيمته الصغد ، وصحيح أن العرب « لو واصلوا ضغطهم على البلاد لما احتاجوا إلا لعشر التكاليف والخسائر التى بذلوها فى استعادتها حين انتقضت عليهم ، ولكنهم أفلتوا الفرصة من أيديهم باختلافاتهم القبلية ، واقنوا الأمراء المحليين دروساً لم ينسوها فى مقاومتهم لجهود العرب حين أعادوا حملاتهم[1] » . غير أنه ما من شك فى أن المرحلة الأولى أصابت مع عبيد الله ابن زياد ومع سعيد بن عثمان بن عفان حظاً من التنظيم والرعاية ، وحسن الإشراف وإدراك الأهداف .

المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية فهى فى هذا العمل العظيم الذى أتمه قتيبة فى حوض النهر . وفى الحق أن فتوحات ما وراء النهر مدينة لقتيبة بكثيرٍ من ألقها وازدهارها وكثير من سعتها وامتدادها ، ولقد أفاد قتيبة من هذه الغزوات المتصلة التى قام بها المهلب بن أبى صفرة « وقد مات سنة ٨٣ لِيَليَه قتيبة » كما أفاد مِنْ غزوات مَنْ قبله . . غير أنه كان نسيجاً خاصاً من الرجال وكان عمله فى الفتوح ونجاحه فيها عملا فريداً حاول المؤرخون أن يتعرفوا أسبابه وأن يحصروا هذه الأسباب ، وقد عدّ منها الأستاذ جب ما يلى[2] :

---

(١) جب ٢٣ (٢) جب ٢٩

١ — كان قتيبة ، وكان الحجاج يسانده ، وكان عرب خراسان يحسّون ذلك فلا يجدون السبيل إلى مخاصمته أو الانشقاق عنه .

٢ — ان قتيبة أدرك ما للخلافات العربية من الأثر فى توهين الفتوح ، ولذلك وجّه همه إلى أن يوحّد ما بين العرب ، وأن يستثير هممهم ، وأن يرسم لحياتهم فى الدنيا والآخرة صورةً زاهية الألوان فتحت من نفوسهم ما أغلقت الخلافات[1] .

٣ — وقع قتيبةُ على ما ينبغى للجماعات العربية أن تعتمده من معاونة الشعب الفارسى ليسود الهدوء والأمن فى البلاد ، ولذلك تقرب إلى الفرس « واكتسب ثقتهم وقابلهم بمثل هذه الثقة وعهد بالوظائف إلى حكام إيرانيين ، كأنما كان يرى فيهم عشيرته إذ كانت تنقصه العشيرة القوية بين العرب . . ومع أن هذا غيّر عليه النفسيات العربية ولعب دوراً هاماً فى إسقاطه فإنه فى الواقع كان مبعث الخفقة الأولى فى حياة الروح القومية الإيرانية بين سكان خراسان[2] » .

ولـكن الأستاذ جب لم يذكر كل ما كان من أسباب أخرى فى نجاح قتيبة ، ويبدو أنه أغفل الحديث عن براعة قتيبة الحربية ، وعن أثر القواد من قبله فى التمهيد له وتدويخ الأرض بين يديه ، وعن براعته السياسية التى تجلّتْ فى استثماره للخلاف بين السكان فى الصغد وتأميره رجلاً فى مقتبل العمر منصبَ الإمارة هناك واعتناق هذا الشاب الإسلام بعدُ[3] . . وكأنه لا يريد الاستقصاء وإنما يقصد إلى التمثيل .

« ومن الممكن تلخيص أعمال قتيبة الحربية فى هذه المراحل التالية :

من ٨٣ — ٨٤ / ٧٠٥ استعادة طخارستان الدنيا .

من ٨٧ — ٩٠ / ٧٠٦ — ٧٠٩ فتح بخارى .

---

(١) اقرأ فى الطبرى ٢/٢/١١٧٩ خطبة له يذكر فيها بالآخرة ويتحدث عن الجنة ونعيمها ، بسبيل من ندب الناس وحثهم على الجهاد .

(٢) جب ٣٠ (٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٦٦ .

من ٩٠ — ٩٣ / ٧١٠ — ٧١٢ تثبيت السيادة العربية فى حوض جيحون ومدّها إلى الصغد .

من ٩٤ — ٩٦ / ٧١٢ — ٧١٥ حملات فى ولايات سيحون[1] » .

وقد دخل قتيبة بخارى وبيكند وسمرقند عاصمة الصغد وكش وفرغان والشاش ، وصادف ثورات عنيفة كانتقاض سمرقند وثورة نيزك وقضى عليها بعد أن آمنه . . وسيكون لهذا الحادث أثره الكبير فى حياة الجماعة الإسلامية نفسها ، لأنه سيثير معارضةً عنيفة وسيئ ، مع طائفة من الحوادث الأخرى ، إلى سمعة قتيبة رغم ما حاوله الشعراء من مديحه وقرن فَعْلَته هذه بما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود يثرب .

واستمر قتيبة فى فتوحاته هذه حتى استُخلِف سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ وكان بين سليمان وقتيبة وَحْشَةٌ مصدرها ولاية العهد ، فلم يسع قتيبة إلا أن يثور بالخليفة الجديد ، ولم يصادف فى ثورته توفيقاً فقتل واجتمع على قتله كل الذين أحسن إليهم من العرب والعجم . . ويغيب هذا البطل الذى فُتح له مالم يُفْتَح لأحد من قبله ، فى هذه النهاية الأليمة .

على أن الأستاذ جب يلاحظ فى حياة قتيبة شيئاً آخر أَوْهَنَ من عزمه وشلّ من قوته ذلك هو موت الحجاج ، فيذكر لنا أنه « حوالى نهاية الصيف من عام ٩٥هـ توقفت الحملات إلى سيحون حين وصلت الأنباء بموت الحجاج ، فقد تأثر قتيبة لموت هذا الرجل الذى كان يحميه ويؤيده فسرح جيشه وبعث بحاميات منه إلى بخارى وكش ونسف ، ثم عاد إلى مرو وكتب إليه الوليد يهدىء مخاوفه وجعل ولايته مستقلةً عن العراق ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً[2] » .

لقد كان أبرز ما فى فتوح قتيبة فتح بخارى وسمرقند وتثبيت الإسلام فيهما

---

(١) جب ٣١ (٢) جب ٥١

واتجاهه فى بعض الروايات[1] إلى أن يقارب حدود الصين . ولقد دانت بخارى بأ كثر مما دانت سمرقند وما حولها ، ذلك أن بخارى كما يقول الأستاذ جب « استسلمت بعد سلسلة من المعارك والحملات استنفدت موارد المنطقة فاضطرت أن تلقى بزمامها إلى العرب . أما فتح سمرقند فقد تمّ بضربة واحدة وظلت منطقة الصغد بعدها غير مفتوحة إلا أنها تعترف بالسيادة العربية . . بل إن السنوات التى تلت لتدلُّ على أن علائق حسنةً قامت بين قادة الحامية وبين القواد المحليين والسكان[2] » .

ولا شك أن الأستاذ جب يخالف هنا ما يذهب إليه المؤرخون العرب من أن فتح سمرقند كان فتحاً لكل بلاد الصغد « فلم يتم فتح الصغد باحتلال سمرقند ، وكل الذى حدث أن فتح سمرقند استدعى وجود حامية فى المدينة وكان من واجب قواد هذه الحامية أن يوسعوا فتوحهم فى منطقة الصغد التى تضمر لهم العداء بتوجيه الحملات إليها[3] » .

تلك هى الخطوط الكبرى فى المرحلة الثانية من مراحل فتوح ما وراء النهر وهى مرحلة رأينا أن قتيبة كان فيها القائدَ والبطل السياسى ، وكان الرجلَ الذى استطاع أن « يوجه بخارى وسمرقند وخوارزم لتكون مراكز للثقافة العربية ومنابت لغرس الإسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ونيسابور فى خراسان[4] » .

المرحلة الثالثة : أما المرحلة الثالثة فتقع فيما وراء القرن الأول ، وليس من اطار الموضوع أن يمتد إليها ، ولو أنه كان له ذلك لرأينا كيف أن كلّ المجد الذى حققه قتيبة لم يلبث أن تضاءل بعد وفاته ، فلم يرزق الأمويون بخليفة كالوليد ولا بحاكم للعراق كالحجاج ولا بقائد كالمهلب وقتيبة ، وشُغل سليمان عن ذلك كله بحصار

---

(١) اقرأ الطبرى ٢/٢/١٢٧٧ ــ ١٢٨٠ حين يتحدث عن غزواته فى حدود الصين .

(٢) جب ٤٧ ــ ٤٨

(٣) جب ٤٧

(٤) فيليب حتى تاريخ العرب ٢٧٥

القسطنطينية الذى أرّقه واستنفد قواه ، كما شُغِل عنه بالانتقام من قواد أخيه الوليد الثلاثة الذين ارتضَوْا بيعة عبد العزيز بن الوليد من دون سليمان . . والتوتّرُ الذى كان يدفع القبائلَ العربيــة فى انطلاق طَلْق استرخى وضعف ، وشُدّات العزمات بعد أن كانت قد انقدت ، ودفعت سياسة اللين التى لجأ إليهـا عمرُ الثانى سكانَ هذه المناطق بعضَهم إلى الإسلام وبعضهم إلى الثورة والاعتصام ، وكان موت قتيبة كما يقول جب « لا توقفاً للفتوحات العربية فى آســيا الوسطى مدى ربع قرن ولــكن كان بدء انحسارٍ وتراجع ، وكانت أوامر عمر بن عبد العزيز لا لتجديد الفتح بل للتخلّى عما وراء النهر جملةً ، وإن كان العرب فى بخارى وسمرقند قد رفضوا الامتثال لأوامره[1] » ، حتى جاء بعد ذلك دور نصر بن سيار .

ومن الممكن أن نقتبس تلخيص الأستاذ جب للحالة فى هذه المنطقة بعد موت قتيبة مباشرة :

ا — كانت طخارستان الدنيا قسماً من الإمبراطورية الإسلامية .

ب — اعتبرت بخارى مفتوحة أبدا واستُعمِرت تدريجيًّا ، أما الصغد فظلّت تعتبر معاديةً تقوم فيها حاميات قوية فى سمرقند وكش

حـ — أهملت خوارزم كقوة عسكرية واتخذت معسكراً .

د — بقيت الممالك وراء سيحون مستقلة ، وقوية نسبياً ، تؤيدها القوى التركية فى الشمال الشرقى منها كما يؤيدها بعض التدخل من الصين .

هـ — لم تخضع أشروسنة ، ولــكنها لم تــكن فيما يظهر عقبةً فى وجه الجيوش الإسلامية .

و — احتفظت البلاد بالأسر الحاكمة فى كل مكان مُمَثِّلَةً للشعب المحكوم وأداة للادارة المدنية . وأما الإدارة الفعلية فقد تسربت من أيديهم إلى يدى الوالى أو وكيل الحاكم العربى فى خراسان[2] » .

---

(١) جب ٥٤ (٢) جب ٥٦ باختصار

حـ - فتوح السند

الرواية التاريخية المجملة على أن محمد بن القاسم صهر الحجاج تولى أمر الفتوح فى السند . غير أن البلاذرى[١] ، من بين أكثر المؤلفين ، يخصنا بحديث الحملات الأولى التى سبقت غزوَ محمد بن القاسم ، منذ أيام عمر ، وفيما بعد ذلك فى خلافة عثمان وفى الفترة القصيرة التى استُخلِف فيها علىّ ، وفى غزوة المهلب الثغر أيام معاوية ؛ ويقص علينا تحت عنوان فتوح السند كيف كان تقدم المسلمين فى هذه الوجهة منذ كانت ولاية عثمان بن أبى العاص الثقفى على البحرين وعمان . ونحن فى غنى عن تفصيل القول فى هذه الخطى الممهدة ، وحسبنا أن هذا الفتح لم يستتم للمسلمين قبل أن استقام لهم الطريق إليه من جنوبى بلاد فارس وسواحل مكران « أى مناطق الساحل من بلوخستان اليوم[٢] » فلما مُكِّن لهم من تدويخ هذه المناطق على حد تعبير البلاذرى[٢] ، وكانت خلافةُ الوليد بكل ما امتازت به من استقرار ، وسياسةُ الحجاج بما طبعها من حزم وجدّ وسعى إلى الفتوح — كانت حملة محمد ابن القاسم فى ستة آلاف جندى من أهل الشام سنة ٨٩ هـ / ٧١٠م ، وقد « أخضع هذا القائد الشاب مكران فى طريقه إلى الهند ، وقطع ما يعرف اليوم باسم بلوخستان وظفر على السند وفتح الديبل « كراتشى اليوم » وهو المرفأ الذى تنتهى عنده دلتا نهر السند ، ثم فتح النيرون ، وامتدت فتوحاته بعدُ إلى الملتان فى الشمال جنوبى البنجاب ، ونجم عن ذلك احتلال السند وجنوبى البنجاب احتلالا دائماً[٣] » .

* * *

تلك هى الفتوحات فى الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية فى إيران وما وراء النهر وثغر السند ، فلنحاول بعد أن تبيّنا حيزها الزمانى والمكانى وطبيعتها ومنابعها ووجهتها ، وبعد أن عرفنا تطورها وحركتها أن ندرس هذه الفتوح من الوجهة الاجتماعية واستقرار الإسلام فيها ، وانتشار العربية فى بعض أجزائها .

---

(١) البلاذرى ٤٣١

(٢) البلاذرى ٣٩٢ وجه أبو موسى الربيعَ بن زياد فسار فى كرمان فدوخها

(٣) فيليب حتى تاريخ العرب ٢٧٧

٦ — موقف السكان من هذه الفتوح

١ — لم يلق المسلمون من العنف والمقاومة مثل الذى لقُوا فى هذا الجناح من الدولة الإسلامية . . كان كل شىء غريباً عنهم منذ أن جاوزوا القادسية والحيرة وقاربوا المدائن . كان الدم غير الدم ، وكانت اللغة غير اللغة ، وكانت العادات والأعراف غير العادات والأعراف . . كانت اللغة الإيرانية لغة هذه المناطق فيما دون النهر ، وكانت الإيرانية والتركية فيما وراء النهر ، وكانت لغاتٌ آرية أخرى فى منطقة السند ، فليس ثمة من هذا النحو ما يعطفهم على الحركة الإسلامية ويقرّبهم منها . . فى العراق وسورية وفى مصر أحياناً كان ثمة هذا التشابك والتواصل بين الدماء ، أما هنا فقد كان الدم غريباً حقاً . . وإذا نحن استثنينا بعض ألوان التقارب بين العراق العربى والعراق العجمى حيث كانت مملكة الحيرة وبعض التقارب فيما بين شاطئى الخليج الفارسى ، لم نجد إلا هذه الأثارات التى خلّفها حكم الفرس اليمن فى بعض الفترة السابقة على الهجرة . أما فى المناطق الإيرانية الأصلية ، فيما دون النهر وفيما وراء النهر ، فليس ثمة شىء يصل بين العرب الوافدين وبين الإيرانيين المستوطنين ، وبخاصة فى المناطق الداخلية والجبلية مثل طبرستان وجرجان وإقليم فارس . . فكان على العرب أن ينسجوا هذه الصلات خيطاً بعد خيط وعروة بعد عروة .

٢ — هذا إلى شىء آخر أصيلٍ فى حياة هذه المناطق . فالمسلمون هنا يواجهون إمبراطورية ضخمة عاصرت التاريخ أحقاباً طويلة ومارست سلطانها على رقعة كبيرة من العالم وكان لها فى الحكم والسياسة وفى الإدارة والثقافة جذورٌ بعيدة ، وكانت هذه الجذور تُمَكِّن للشعور الإيرانى القومى ، مع الزمن المتصل ، أن يزكوَ وأن يستعلى . ولذلك لم يكن يسيراً على هذه الجيوش الإسلامية المتقدمة عبر دجلة أو عبر الخليج الفارسى أن تطوى ذلك كله فى حركة سريعة . كان لابد من هذا النضال الطويل الذى لم يخمد ساعة من زمن . كان مقاومةً سافرة فى أول الأمر ، وكان انتقاضاً

بعد ذلك ، وكان سلسلةً من هذه الارتدادات المتلاحقة ، وأخيراً كان ، بعد أن دخل الكثيرون فى الإسلام ، نزاعاً على السيطرة بين الفرس والعرب لم تُطْوَ صفحاته .

٣ — والشيء الثالث الذى يجب أن نشير إليه أن المسلمين هنا لا يحاربون كما حاربوا فى الشام ومصر والعراق وإفريقية . كانوا فى العراق يحاربون مناطق ليست من صميم الوطن الإيرانى فى شيء ، وكذلك كانوا فى سورية ومصر وإفريقية يحاربون ولاياتٍ بيزنطية ، فلا يفعلون أكثر من أن يخلعوا عنها هذا الرداء الذى يكسوها من حكم الفرس أوحكم الروم . وأما هنا فى هذا الجناح الشرقى فهم يحاربون فى صميم الوطن الفارسى وخارجه ، هذا الوطن الذى يرجع إلى آلاف السنين والذى شهد حضارات وخاض حروباً واقتسم العالم القديم أو أكثره فيما بينه وبين اليونان أو بينه وبين بيزنطة . ولذلك فإن المسلمين هنا يغالبون هؤلاء الناس على أنفسهم ، وهم ينازعونهم سلطانهم ، فما من عجب أن يكون كلُّ مايلقون مقاومةً وثورات وخروجاً ، وأن يمتد الفتح وأن ينكمش حتى يأذن الله للاسلام بالانتشار فيكون لثورات الفرس غير هذه الصفات والشيات .

٤ — ولقد كان لبُعْدِ مابين الدين الإسلامى وبين الأديان والمذاهب التى كانت تسود إيران أثرٌ كبيرٌ فى المباعدة بين حركة الفتح وبين غاياتها ، وفى عمق الهوة التى كانت بين المسلمين وبين الاستقرار فى هذه المناطق والدورُ الذى يلعبه الدين فى حياة الجماعات أظهر من أن نعاود الحديث فيه الآن . وطبقات رجال الدين ، هذه التى كانت تقاسم الإمبراطور حكمه ، كانت آخر الطبقات التى استسلمت للمسلمين بعد هذا الصراع الطويل ، فقد ظلّت تدير حركة المقاومة فى براعة ودقة ، وكان سلطانها على النفوس ومشاركتها العميقة من قبلُ فى الحكم وسيطرتُها على المجتمع الفارسى كفيلةً أن تُمكّن لها من غاياتها ، واستخدمت فى ذلك العنفَ والدهاء معاً ، وكانت هى التى تعاقد فى كثير من الأحيان والمدن عن أهل البلاد ، وكانت تتولّى مفاوضة العرب وتتولّى للعرب كذلك أمر الجزية ومايتصل بها . فاذا أقبل السكان

على الإسلام كتبوا إلى الولاة « إن الناس استعربوا ، يريدون أسلموا ، فليس يسعنا أن نفى لكم بما عاقدنا كم عليه[1] » ويضطر الولاة لذلك ، أو بعضهم ، أن لا يرفع الجزية عن الذين أسلموا وفاء لما يقتضى الملك العضوض من أموال .

٥ — فاذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الأرض واختلاف الإقليم لم نبعد عن التعرف إلى سبب من أسباب المقاومة العنيفة التى لقيها الفتح الإسلامى . فالعرب المسلمون هنا لا يحاربون فى مثل طبيعة الأرض التى حاربوا فيها من قبل ، ولا يألفون هذه الأجواء الباردة التى أخذوا ينساحون فيها . إنهم يواجهون هنا مناطق جبلية وعرة منذ خرجوا من المدائن ، وتستقبلهم أجواء قاسية فيها الثلج والمطر والصقيع والشتاء المستطيل . وما أشدّ مالقى المسلمون مثلا فى طبرستان وسجستان ، وستظل ذكرى جيش مصقلة بن هبيرة الذى بعثه معاوية على رأس جيش من عشرة آلاف إلى طبرستان وتوغّله حتى أخذ عليه العدوُّ المضائقَ ورمَوْا جنده بالصخور من أعالى الجبل ومات مصقلة وجنده جميعاً لم ينج منهم أحد[2] — مثالا حيّاً على مدى ما أسهمت الطبيعةُ الإيرانيين فى مقاومتهم وأسهمت فى إمدادهم وكيدهم المسلمين

ومن أجل ذلك كله ، من أجل هذا الصراع الجنسى والصراع اللغوى والصراع الدينى . . ومن أجل هذا التقاتل على السيادة والغلبة على الوطن الأم والتنازع بين قوم لهم حضارة وماض وقوم ينشئون هذه الحضارة أو يجدّدونها ، من أجل هذا كله كان موقف السكان فى هذه المناطق ، بوجه عام ، موقفاً مقاوماً عنيفاً فى المقاومة ويزيد من عنفه أن الذين ينازعونه كانوا من قبلُ يحالفونه أو يتابعونه .

ومن هنا كان التفانى فى حروب الإيرانيين . . ومن هنا كان هذا التاريخ الطويل للفتح[3] . . وإذا كان فى وسعنا أن نقول إن هذه الفتوحات بدأت بعد المدائن أو بعد نهاوند سنة ٣٧ أو ٤١ فإنه ليس فى وسعنا أن نقول متى انتهت ،

---

(١) الطبرى (٢) البلاذرى ٣٤٢ — ٣١٤

(٣) اقرأ من الأمثلة على ذلك فتح كابل عند البلاذرى ٤٠٠

لأنها استغرقت فى الواقع كل صفحات التاريخ الإسلامى .. فى هذه الصورة أو تلك من صور الخلاف السياسى أو الخلاف الدينى . ولكن من المؤكد أن الأحنف فى خلافة عمر شارف جيحون ، وأن المسلمين تقدموا بعد ذلك فى خلافة عثمان ثم كان تاريخهم وتاريخ الفرس معهم حلقة متصلة من المدّ والجزر والانسياح والانحسار على ما رأينا من العرض لحركة الفتح حتى مُكّن لقتيبة أواخر القرن الأول ما مُكّن له ، وحتى مُكّن لنصر بن سيار بعده أن يمضى فى خطاه .. واستمر أمر بعض المناطق مثل كابل حتى أيام المأمون حيث « أظهر ماسكها الإسلام وأدخلها عامله واتصل إليها البريد[1] » .

٧ — على أن ذلك لا يعنى أن موقف المقاومة كان موقف كل الطبقات التى تؤلف المجتمع الإيرانى . ومن المؤكد أنه كان هنالك هذه الطبقة المستضعفة التى وجدت فى الإسلام مُتَنفّساً لها ، غير أنها لم تستطع أن تقوم بنصرته إلا فى قليل من الحالات .. ومن المؤكد أيضاً أنه كان هنالك هذه الطبقة الحاكمة التى كانت تصانع المسلمين حيث تستشعر منهم القوة وتجد عندهم العزم ، ولكنها كانت تقصد بذلك لمنفعتها الخاصة وتاريخ الفتوح يظهرنا دائماً على نماذج متصلة من حياة هذه الطبقة التى كان أول ما تهدف إليه أن تحفظ عليها كيانها وسلطانها .

***

وآية هذا كله أن المسلمين هنا منذ جاوزوا المدائن بدأوا يقاسون أهوالا شديدة فى حركة الفتح ، ويلقَوْن مقاومةً متجدّدة فى كل شبر من الأرض .. وقد اصطلح على إذكاء هذه المقاومة طائفة من الأسباب فى حياة إيران نفسها وفى تاريخها وفى بيئتها الطبيعية — وطائفة من الأسباب فى حياة الجماعة الإسلامية نفسها وخصوماتها فى العراق والشام — وكان ذلك كفيلاً أن ينتهى بأمر الفتوح إلى هذا الطول والعنف والتفانى .

---

(١) البلاذرى ٤٠٢

ثبت المصادر

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن أبى الكرم) ٥٥٥ — ٦٣٠ هـ

— الكامل فى التاريخ ١٢ جزءاً نشرة تورنبرغ « ليدن — بريل » ١٨٦٧

أوليرى O,Leary (De Lacy)

— بلاد العرب قبل الإسلام — Arabia before Mohamad "London 1927"

بتلر (الدكتور الفريد ج) Butler (Alfred J)

— The Arab conquest of Egypt "Oxford 1902"

— فتح العرب لمصر : الترجمة العربية (الأستاذ محمد فريد أبو حديد)

« نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة — مطبعة دار الكتب » ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣م

بلاو (دكتور) O. Blau (Dr.)

— خريطة لجزيرة العرب ملحقة بكتاب الأصنام لابن الكلبى « ليبزيك » ١٩٤١

بروكلمان (كارل)

— تاريخ الشعوب الإسلامية : ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكى

« بيروت — دار العلم للملايين » ١٩٤٨ — ١٩٤٩

البلاذرى (أبو بكر) «أو جعفر ، أو الحسن» أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى الشهير بالبلاذرى

« أواخر القرن الثانى — ٢٧٩ »

— فتوح البلدان نشرة دى غويه « بريل — ليدن » ١٨٦٦

التغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن بردى الأتابكى) ٨١٣ — ٨٧٤

— النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة

الأجزاء السبعة « القاهرة — دار الكتب المصرية » من ١٣٤٨ — ١٣٥٧ هـ ١٩٣٩ — ١٩٣٨م

جب Gibb (H. A. R.)

— الفتوح العربية فى آسيا الوسطى —The Arab Conquest in Central Asia

(London 1923 The Royal asiatic Society)

جروهمان (آدولف — الدكتور)

— أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية . تعريب توفيق اسكاروس

« القاهرة — دار الكتب المصرية » ١٩٣٠ م

الجزنائى (أبو الحسن على)

— زهرة الآس فى بناء مدينة فاس نشرة الفريد بل « الجزائر » ١٩٢٣

حتى (فيليب — الدكتور)

— تاريخ العرب «مطول» الدكتور فيليب حتى والدكتور ادورد جرجى والدكتور جبرائيل جبور

٣ أجزاء « بيروت — دار الكشاف » ١٩٤٨ — ١٩٥١

ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن على ... الحافظ العسقلانى) ٧٧٣ — ٨٥٢هـ

— تهذيب التهذيب « حيدر آباد الدكن » ١٣٢٥ — ١٣٢٧هـ

حمزة (فؤاد)

— قلب جزيرة العرب « القاهرة — المطبعة السلفية » ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى) ... ـ أواخر القرن الرابع الهجرى
ـ المسالك والممالك « ليدن ـ بريل » ١٨٧٣
ابن خلدون « الفقيه » (أبو زكريا يحي بن أبى بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون)
ـ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد « الجزائر » ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م
ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى المصرى) ٧٥٠ - ٨٠٩ هـ
ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار الجزء الرابع والخامس « القاهرة ـ بولاق » ١٣٠٩ — ١٣١٤ هـ
ابن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار)
ـ المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس « تونس ـ مطبعة الدولة التونسية » ١٢٨٦
ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر بن رسته) ... ـ أوائل القرن الرابع
ـ الأعلاق النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبى) المجلد السابع من المكتبة الجغرافية «ليدن ـ بريل » ١٨٩١ ـ ١٨٩٢
ساويرس (ابن المقفع — أسقف الأشمونين) ....ـ أواخر القرن الرابع
ـ سير الآباء البطاركة الاسكندرانيين المعروف بسير البيعة المقدسة « همبورغ » ١٩١٢
سعيد بن بطريق (افتشيوس الاسكندرى البطريرك الروى الملكى المسمى سعيد بن بطريق) ٢٦٣ - ٣٢٨
ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق فى معرفة التواريخ « بيروت ـ اليسوعية » ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩
ابن سلام (أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى البغدادى) ١٩٧ ـ ٢٢٣ هـ
ـ الأموال بتحقيق الشيخ حامد الفقى القاهرة
السلاوى « الناصرى » (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصرى السلوى أو السلاوى ١٢٥٠ -- ١٣١٥
ـ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٤ أجزاء « القاهرة ـ البهية » ١٣١٢
سيدة إسماعيل كاشف (دكتوره)
ـ مصر فى فجر الإسلام « القاهرة ـ دار الفكر العربى » ١٩٤٧
الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ٢٢٤ - ٣١٠ هـ
ـ تاريخ الأمم والملوك « ليدن ـ بريل » الأول ١٨٧٩ -- ١٨٨١ والأجزاء الأخرى بعد ذلك
ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى) ... ـ ٢٥٧ هـ
ـ فتوح مصر والمغرب وأخبارها نشرة شارل تورى Torrey « ليدن ـ بريل » ١٩٢٠
ـ القسم الخاص بمصر نشرة ماسيه (مجلس المعارف الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقية. ١٩١٤
ابن عذارى المراكشى (أبو محمد عبد الله) أو (أبو عبد الله محمد) ... ـ أواخر القرن السابع
ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب جزءان « بيروت ـ مكتبة صادر » ١٩٥٠
فلهاوزن Wellhausen
_ The Arab Kingdom and its Fall "Caluctta" 1927
كريستنسن Cristensen : L'Iran sous les sassanides
ـ إيران تحت حكم الساسانيين: الترجمة العربية « الدكتور يحي الخشاب القاهرة ـ دار الفكر العربى »

الـكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) ٢٨٣ ـ ٣٥٠ هـ
ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة نشرة جست Rhuvon Guest
« التاسع عشر من مجموعة ذكرى جب » « بيروت ـ المطبعة الـكاثوليكية » ١٩٠٨
كيتانى (ليون الأمير) Caetani (Leone)
ـ حوليات الإسلام (ينتهى بحوادث سنة ٥٠ هـ) « ميلانو ١٩٠٠ ـ ١٩١٨ » Annali dell, Islam
لوسترانج Le Strange (G. B.)
ـ أراضى الخلافة الشرقية - The Land of the eastern Caliphate
Cambridge University Press 1930
المـالـكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المـالـكى)
ـ رياض النفوس فى طبقات علماء القـيروان وافريقية .
نشرة الدكتور حسين مؤنس « القاهرة ـ مكتبة النهضة » ١٩٥١
مؤنس (حسين - دكتور)
ـ فتح العرب للمغرب « القاهرة ـ لجنة الجامعيين لنشر العلم مطبعة مصر » ١٩٤٧
المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ٣٤٥ ـ أو ٤٦ هـ
ـ التنبيه والإشراف (الثالث من المـكتبة الجغرافية)
نشرة دى غويه « ليدن ـ بريل » ١٨٩٣ — ٩٤
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر) ٧٦٦ - ٨٤٥ هـ
ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار « جزآن » « القاهرة ـ بولاق » ١٢٧٠ هـ
ـ البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب « إبراهيم رمزى » « القاهرة ـ مطبعة مصر » ١٣٣٤
النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ٦٧٧ — ٧٣٢ أو ٣٣ هـ
ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب المطبوع منه ١٥ جزءاً « القاهرة ـ دار الـكتب المصرية »
« « « « الجزء الثانى والعشرون (الباب السادس من الفن الخامس
فى أخبار إفريقية وبلاد المغرب) غرناطة ١٩١٧
الهمدانى (الحسين بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك) ... ـ ٣٣٤ هـ
ـ صفة جزيرة العرب نشرة مولر « ليدن - بريل » ١٨٨٤م
وهبه (حافظ)
ـ جزيرة العرب فى القرن العشرين
« القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثانية » ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى) ٥٧٥ - ٦٢٦ هـ
ـ معجم البلدان ٤ أجزاء نشرة وستنفلد « ليبزيك » ١٨٦٦ — ١٨٧٠

(ا)

(ب)

(ز)

(س)

(ط)

(ظ)

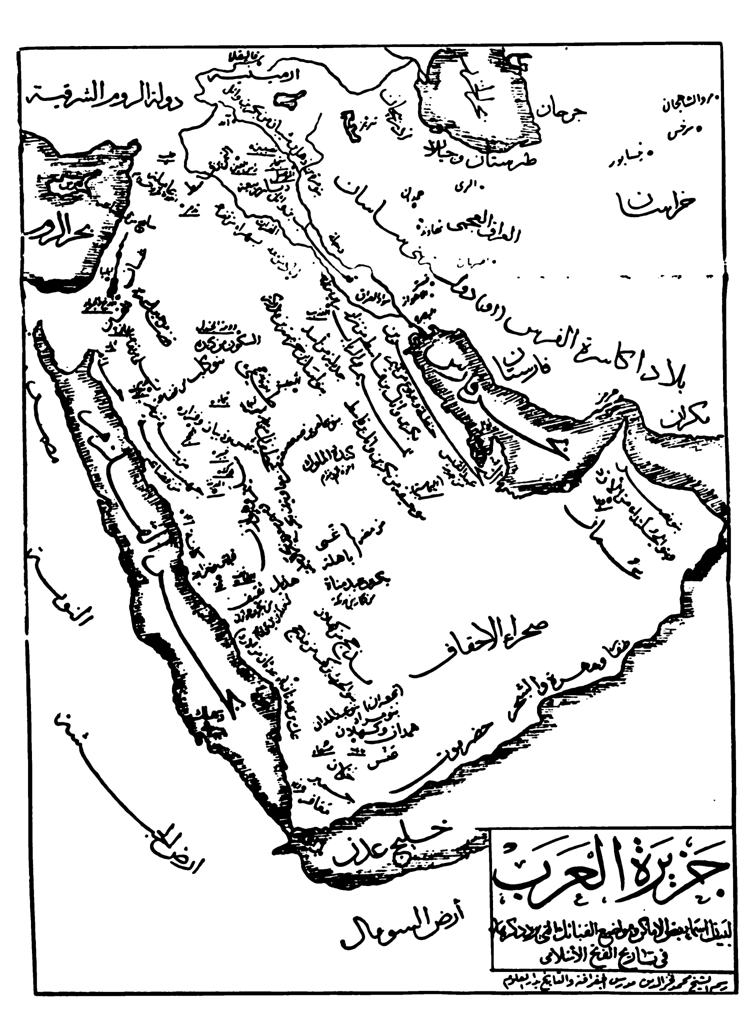
(ع)

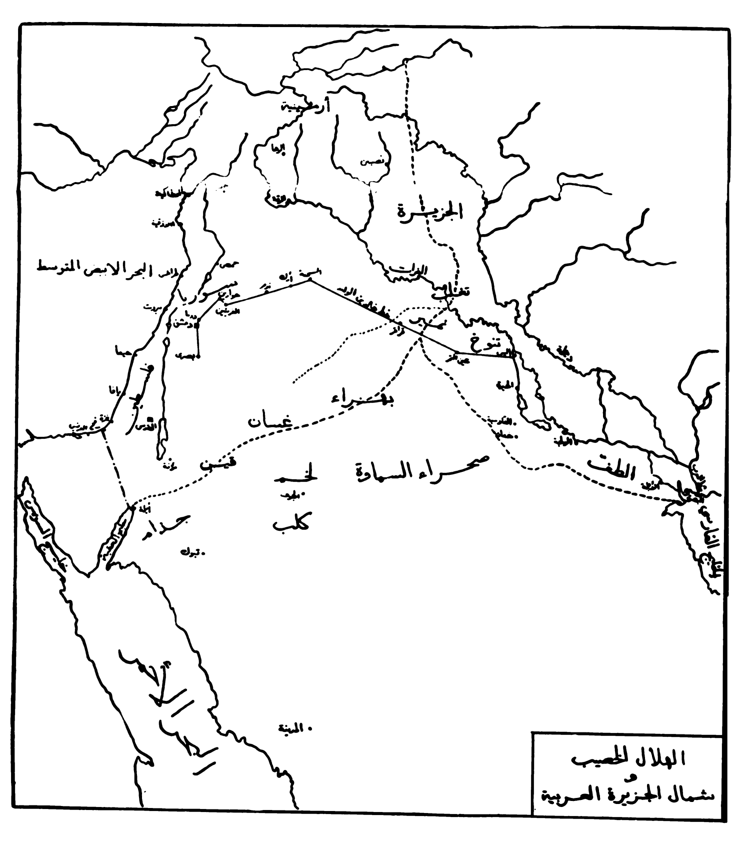
(غ)

(ف)

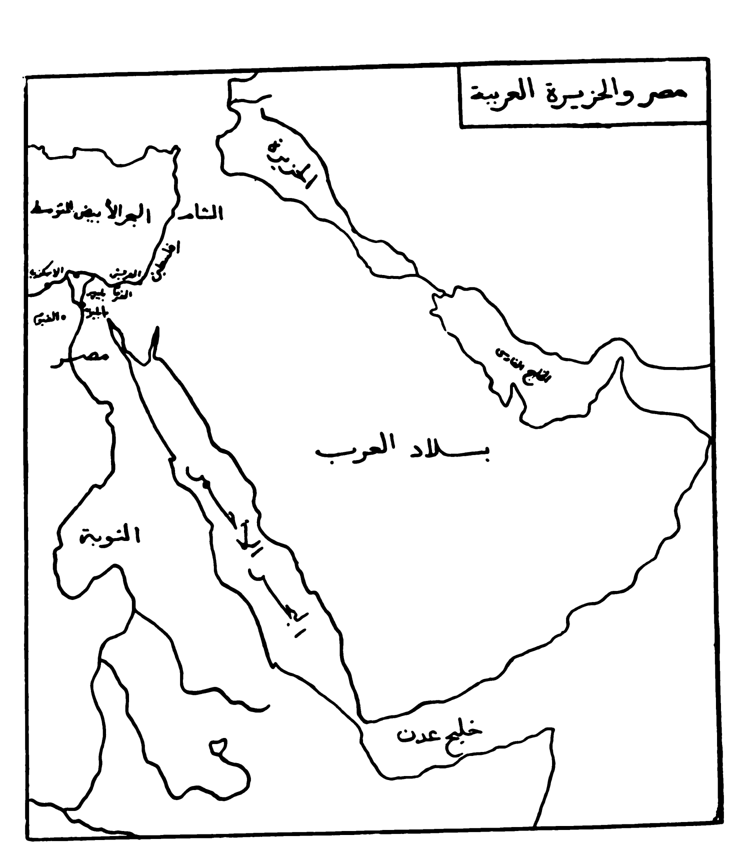
(ق)

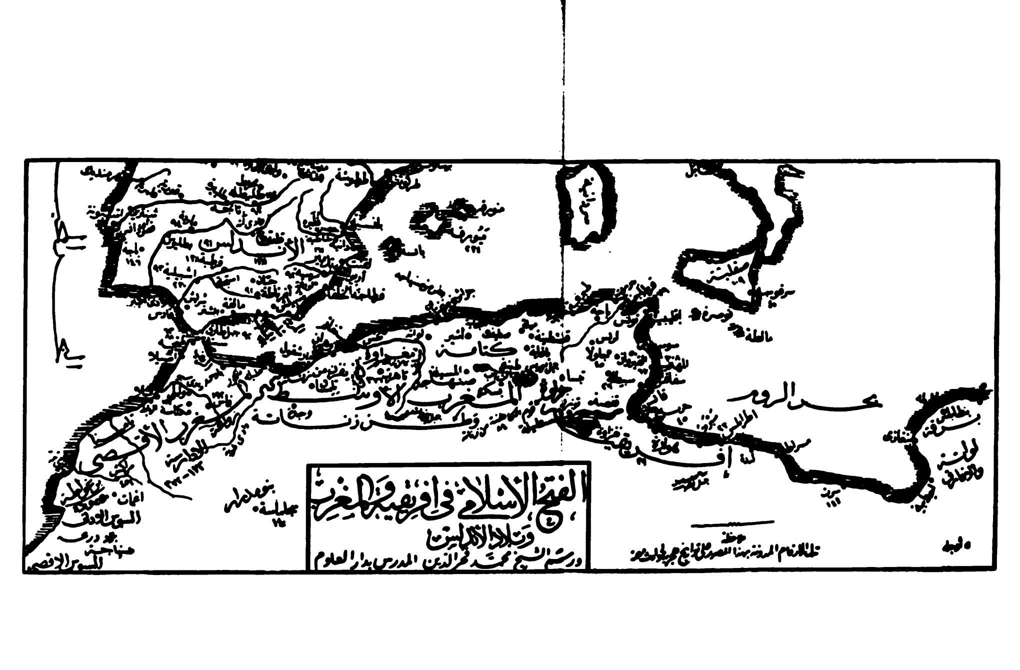
(ك)

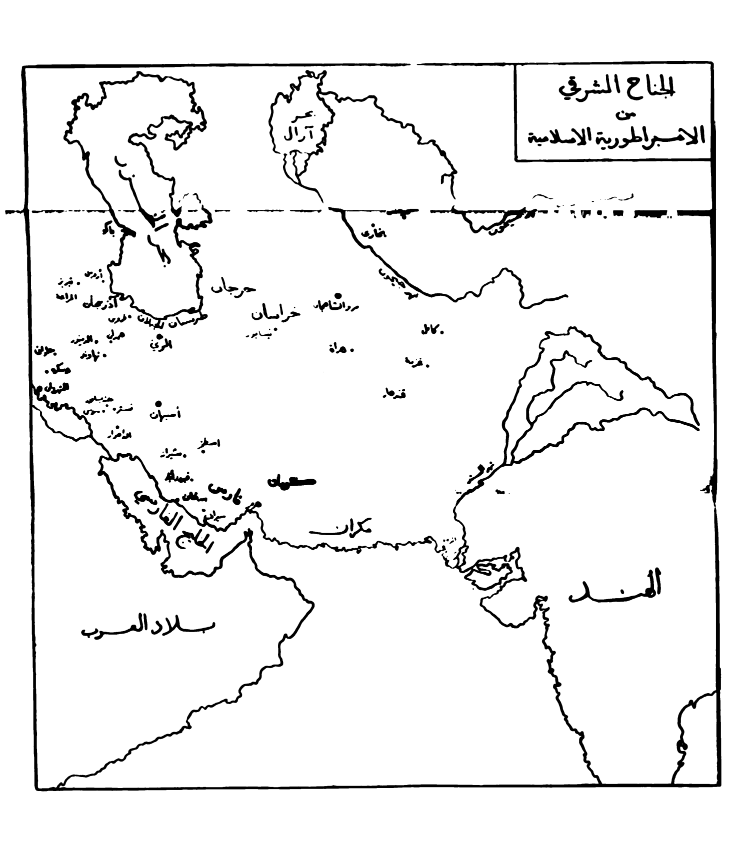

جزيرة العرب
لبيان أسماء بعض الأماكن ومواضع القبائل التي يرد ذكرها في تاريخ الفتح الإسلامي
دولة الروم الشرقية
ارمينية
جرجان
طبرستان وجبال
خراسان
العراق العجمي
فارس
مكران
عمان
صحراء الأحقاف
حضرموت
خليج عدن
أرض الصومال
كندة الملوك
باهلة
همدان وكهلان



الهلال الخصيب
و
شمال الجزيرة العربية


مصر والجزيرة العربية
الجزيرة
الشام
البحر الأبيض المتوسط
فلسطين
العريش
الاسكندرية
الجيزة
مصر
الخليج الفارسي
بلاد العرب
البحر الأحمر
النوبة
خليج عدن


الفتح الإسلامي في إفريقية والمغرب
وبلاد الأندلس
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بحر الروم
الأندلس
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
إفريقية
سردانية
صقلية
البحر المحيط


الجناح الشرقي
من
الامبراطورية الاسلامية
بحر
آرال
باكو
تبريز
أذربيجان
حرجان
خراسان
مرو
نيسابور
هراة
كابل
غزنة
قندهار
الري
همذان
نهاوند
أصبهان
اصطخر
شيراز
فارس
مكران
الخليج الفارسي
بلاد العرب
الهند